القديسة الأسيرة

د. محمد عبد الحميد أبو زيد

القِدِّيسَة الحَمْراء

(رواية)

وقصص قصيرة

د. محمد عبد الحميد أبو زيد



المشهد الأول

وليس على الخبز وحده يحيا الإنسان

وصلوا إلى مطار كوالالمبور. عاصمة ماليزيا. ضمن وفد طبي مصري للعمل في وزارة الصحة الماليزية. في جنوب شرق آسيا. ثلاثون طبيبا. في كافة فروع الطب. أمراض نساء وعظام وجراحه عامة ومسالك بولية. وباثولوجي (أي علم الباثولوجي. دراسة الأنسجة المرضية)... أرسلت حكومة ماليزيا. طائرة خاصة لنقل الوفد المصري من القاهرة إلى كوالالمبور. الأيام الخمسة الأولى قضوها في فندق شيراتون كوالالمبور. بالعاصمة وفي وسطها. الدكتور فكري الزيني أحد أعضاء الفريق الذي رفضت زوجته مرافقته خوفًا على أطفاله؛ حتى لا يضطرب نظام تعليمهم. الدكتور فكري الزيني أقام في حجرة رائعة في الطابق الثالث. حجرة رقم ٣٠٦. والحجرة تطل على الغابات الاستوائية. ويبدو من شرفتها منظر ساحر خلاب؛ حيث تمتد الغابات الاستوائية إلى آفاق بعيدة لا نهاية لها. وفي الحجرة المجاورة له رقم ٣٠٤، أقامت كل من الدكتورة زينات صدقي طبيب ممارس عام، والدكتورة فاطمة الدسوقي طبيبة أسنان.

الفريق المصري كله في حالة انفعال شديد. أول مرة يخرجون من بلادهم. أول مرة يجربون الغربة. بعد تناول العشاء نزل الدكتور فكري إلى Night club النادي الليلي. في الطابق الأول. المغني اليوناني كان يشدو بصوته الرخيم أغنية مشهورة "الغرباء في الليل". "Strangers in the night لاحظ فكري الدكتورة زينات والدكتورة فاطمة على ترابيزة قريبة منه. دعاهم للجلوس معه. انتقلت فاطمة وزينات إلى طاولته. قبلوا الدعوة. زينات طلبت كوبا من عصير التفاح. فاطمة طلبت مكعبات أناناس مغطاة بالآيس كريم والكريم شانتيه. أما صديقنا فكري فقد طلب كأس ويسكي فاخر. بعد تردد طويل طلب فكري زينات للرقص. شاركته في رقصة الدانوب الأزرق Blue Danube، الدكتور فكري متوسط القامة. عريض الأكتاف. غزير الشعر. أسود فاحم. له شارب عريض غزير الشعر له طرف مدبب إلى أعلى كأنه يتحدى به الزمن. أما زينات فتميل إلى قصر القامة. وهي أقصر من الدكتور فكري بقليل. وهي جميلة الطلعة. سحلية القوام. جسمها يشع طاقة جنسية هائلة تجذب الرجال إليها. شعر طويل ناعم حريري الملمس. أسود اللون يصل إلى منتصف ظهرها. رقصوا معا لمدة طويلة. الموسيقى هادئة حلوة. بعد الانتهاء من الرقص. عادوا إلى ترابيزتهم، وجدوها خالية؛ حيث قامت فاطمة للرقص مع الدكتور موريس.

زينات عرفته بنفسها. خريجة كلية الطب القصر العيني. أحدث منه بستة دفعات. أخبرته أنها طبيبة مبتدئة. وتعمل في المستشفى الذي يعمل به فكري. الدكتور فكري الزيني من خريجي الإسكندرية. أخصائي في الباثولوجي أي علم الأنسجة المرضية. أولاده أحمس ورمسيس. أحمس الصغيرة يبلغ من العمر أربعة سنوات. ورمسيس الكبير عمره السادسة. رفضت زوجته سعاد مرافقته والحضور معه. وهي مدرسة في اللغة الإنجليزية. استمر الحديث الشيق بينهما. إلى أن انتهى الدكتور موريس والدكتورة فاطمة من رقصتهما. الجلسة الهادئة الهانئة استمرت إلى منتصف الليل. موريس فكرهم بأن عليهم الاستيقاظ مبكرا. حيث إن اجتماع الفريق الطبي المصري مع السيد الوزير. وزير الصحة الماليزية في الثامنة صباحا. وهذا الاجتماع لتوزيعهم على الولايات المختلفة في ماليزيا العرب. ذهب كل واحد إلى غرفته.

المشهد الثاني

توزيع الفريق المصري على الولايات المختلفة

في الصباح بعد تناول الإفطار. أخذوا الأتوبيس الفاخر الذي أرسلته وزارة الصحة الماليزية. قابلوا السيد داتو مجيد وزير صحة ماليزيا. الذي رحب بهم وتمنى لهم التوفيق في عملهم الجديد. أخبرهم داتو مجيد في كلمته التي ألقاها عليهم أن ماليزيا تقوم على نظام سياسي لا هو جمهوري ولا هو ملكي. ويطلق عليه ملكية انتخابية. حيث تتكون ماليزيا من سبع ولايات. وكل ولاية لها ملك. وكل ملك في الولاية يُنتخب كل خمس سنوات. وينتخب ملك الملوك من أسره ملكية معينة. والسبعة ملوك يقومون بانتخاب ملك الملوك من بينهم. كل سبع سنوات. يُدعى أجونج (A Gong). وملك الملوك ينتخب كل سبع سنوات. وكل الملوك من أسرة حاكمة واحدة. أما النظام السياسي فهو قائم على الديمقراطية التعددية. الذي يشبه المفهوم الغربي للديمقراطية الغربية. وقام داتو منصور المدير العام للخدمات الطبية العلاجية بتوزيع الأطباء على الولايات المختلفة. وكان من نصيب فكري ولاية نيجري سمبلان Negrid Semblan وولاية نجري سمبلان قريبة من سنجابور. وتم توزيع فاطمة وزينات على نفس الولاية. فضلوا البقاء في فندق صيني رخيص حتى لا ينفد ما معهم من نقود. وهو فندق حدائق البحيرات. والفندق بالرغم من رخصه. فهو في وسط أجمل مناطق ماليزيا. ولكن زميلاً قديماً لهم هو الدكتور موريس عطا ا . في أواخر الستينيات من العمر. ولديه جنسية ماليزيا حيث أقام فيها منذ عشرين عاما. حضر موريس إلى الفندق الصيني وصمم على دعوتهم للبقاء معه في منزله. توفيرا للنفقات. لأنه من عيوب ماليزيا تأخرهم في صرف المستحقات المالية لمدد قد تصل إلى شهرين. وعليهم الاقتصاد في الصرف من المنحة المالية المؤقتة التي صرفت لهم. وهو يقيم في فيلا فاخرة بالقرب من المستشفى التي سيعملون بها. والفيلا تتكون من سبع حجرات. تتسع لعائلتين. وبخاصة أن زوجته سافرت إلى مصر مع أولاده. وحاليا هو يقيم وحده. ووافقت إدارة الفندق على إلغاء الحجز؛ حيث كانت الليلة ليلة رأس السنة الميلادية وإدارة الفندق في أشد الحاجة إلى الحجرات. رحب فكري وفاطمة وزينات. بالفكرة. وذهبوا للإقامة مع موريس في فيلته الفاخرة. توفيرا للنفقات. حيث لم يكن لديهم ما يكفيهم للمعيشة والإقامة بالفندق أكثر من عشرة أيام. ولم يتسلموا رواتبهم بعد.

* * *

المشهد الثالث

الاحتفال بعيد الميلاد الجديد

والحب قد يكون أقوى من الحياة أحيانًا

ركبوا جميعا سيارة موريس المرسيدس الحمراء الفاخرة. السعادة والبهجة على كل الوجوه وفي كل القلـوب. أقام موريس حفلاً صغيرا. احتفالاً برأس السنة الميلادية. اكتشفوا بعد وصولهم إلى منزل مـوريس أن زوجتـه وأبناءه الثلاثة. سافروا إلى أسيوط في مصر. لوفاة والدة زوجته. وموريس حاليا عايش لوحده. ولكن شـعورهم بالغربة لأول مرة في حياتهم. وانفعالهم العنيف لسفرهم من قارة أفريقيا إلى قارة آسيا. فصدمة الغربة شـجعتهم على اتخاذ قرار البقاء في فيلا موريس الفاخرة. حيث إن بقاءهم في الفندق وخاصة في أيام احتفالات عيد الميلاد مكاف جدا. وعبء كبير على ميزانيتهم المحدودة. احتفل بهم موريس احتفالاً كريما مضيافًا. أعـد لهـم مائـدة فاخرة. عليها كل ما لذ وطاب. ديك رومي محمر محشو بالمكسرات. طبق دولما كبير. محشي فلفـل.. محشـي باذنجان. محشي ورق عنب. الملوخية الخضراء التي يعشقها المصريون. بكل طبقاتهم. زجاجة شمبانيا وأنـواع عديدة من النبيذ الفرنسي الفاخر. طبق من الكافيار الروسي الأسود الثمين جدا. الجميع أخذوا في الأكل والشرب والرقص. على أنغام الموسيقى الهادئة راقص فكري زينات. واستمرت فاطمة بالرقص مع موريس. اقترب ميلاد العام الجديد. وأُطفئت الأنوار. احتفالاً بالعام الجديد. واستمرت مطفأة لمدة طويلة. احتضن فكري زينات وقبلهـا قبله عميقة. بكل ما فيه من رجولة وفحولة متدفقة. استسلمت زينات له وألقت بنفسها بين زراعية القويتين. لعبت الخمر بعقل زينات. أول مرة في حياتها تتذوق الخمر. استسلمت لأحضانه. بعد انتهاء الحفل ذهب كل منهم إلـى غرفته. التي أعدها له صديقهم موريس. فكري لم يستطع البقاء لوحده لمدة طويلة وبعد دقائق ذهب خلسة. وفـي هدوء تام توجه إلى غرفة زينات. طرق عليها الباب بلطف. كانت في انتظاره. أخذته في أحضـانها. وأطفـأت الأنوار. الويسكي لعب بعقولهم. تبادلا القبلات والأحضان. واستمر العناق لمدة طويلة. نسـي فكـري زوجتـه وأولاده الثلاثة في الإسكندرية. نسيت زينات أو تناست خطيبها الذي يدرس في لندن للحصول على الدكتوراه من جامعة لندن. اجترفهم إعصار الحب والشهوة. والحب قد يصيب الإنسان كالصاعقة. من أول نظرة. حقًا الحب قد يكون أقوى من الإنسان وإرادته. والشهوة النائمة لعن ا موقظها. وتصاب الإرادة بالشلل أمـام مـارد الجـنس والشهوة والحب. إذا خرج المارد من القمقم تصاب الإرادة بالشلل وتنهار كل الضرورات الاجتماعية، وتختفي كل المحذورات الأخلاقية والنواهي الروحية. وفي النهاية تنتصر الضرورات البيولوجية. لم يشعر فكري. ولم تشعر زينات إلا أنهما كطفلين بريئين عاريين - تماما - في أحضان بعضهما البعض. رقصا معا في الفـراش أبـدع الرقصات. في الفراش الدافئ العريض رقصة الحب والإبداع. الطبيعة كلها تشاركهما فرحتهما. اختفت أصـوات الضفادع. التي تنادي بها الأنثى على الذكر. توقفت طيور الغاب المحيطة بالفيلا عن الشدو. حتى الأشجار توقفت عن الحركة والهمس. الوجود كله توقف. ساد الصمت. إلا من تنهدات وتأوهات الحب والعشق التي تصدر عـن العاشقين. وبعد مدة تحولت التنهدات والتأوهات إلى صرخات هادئة لذيذة. وسرت في أجسادهما ارتعاشات الحب والعشق. ارتعش الفراش العريض من تحتهما.. وزُلزلت أرض الفيلا الفاخرة تحت رقصات جسديهما. وسـلمت زينات له نفسها بالكامل. وكانت أول تجربة في حياتها الجنسية. وفقد فكري حكمته ووقاره الذي اشتهر به بـين زملائه. وانتصر شيطان الشهوة على كل القيم.

المشهد الرابع

ولكن هذه هي الحياة..!!

وعند انبثاق أول شعاع للشمس في هذا الفجر الدامي. في وسط الغابات الاستوائية بدأت اليقظة تراود زينات. الوعي عاد لها. اكتشفت جسدها العاري - تماما - حتى من ورقة التوت - وهي في أحضان فكري العاري تماما أيضا. تذكرت كل شيء. تأثير الخمر زال. اليقظة عادت إلى عقلها. لم تجرؤ على سحب جسدها منه. خوفًا من إيقاظه من نومه العميق شفقة عليه وحبا له. لعنة ا على الخمر والويسكي. الرجل الذي تذوقت على يديه أروع ألحان الحب والعشق. ما أحلى الحب وما أعذبه. نعم.. بالرغم من كل شيء أحبته بكل كيانها، وهل في الإمكان تفجر الحب في كيانها كالإعصار الذي اقتلعها من أقدامها.؟ هل هذا ممكن؟ وأخذت تحدث نفسها. صاعقة أصابت وجودها؟... تذكرت ما قرأته في كتب فرويد عالم النفس الشهير. بأن الحب الروحي قد يولد من أعماق الشهوة الجسدية. أي من أعماق الحب الجسدي الحسي. والعكس صحيح... فقد يولد الحب الجسدي من أعماق الحب الروحي. والحب الجسدي الذي لا يتحول إلى حب روحي. يتحول إلى رماد لا أثر له. بل قد يتحول بفعل الزمن إلى حقد وكراهية. وإلى لا شيء، وبالرغم من الكارثة التي هبطت عليها من سماء صافية خالية من أي سحاب أو أي ضباب. هبطت عليها أو انقضت عليها بدون أي توقع أو تخطيط. ولكن هذه هي الحياة. كيف حدث لها ذلك؟... وعندما اكتشفت آثار الدم الذي سال على فخذيها. وعلى ملاءة السرير؛ تذكرت خطيبها الذي سافر إلى لندن للحصول على أعلى الشهادات في فرع التخدير. وتذكرت نصف الإكليل الكنسي الذي عقد في كنيسة ماري جرجس في مصر الجديدة. كيف حدث لها هذا؟..

وبالرغم من هذه الكارثة التي ألمت بها. فإنها كانت تشعر بالسعادة والارتواء يسري في جسدها. حقًا الحياة لغز عميق. لا يمكن فهمه. ولا يمكن حل طلاسمه مهما أوتي الإنسان من العلم في المستقبل؟... كيف حدث لها هذا؟.. كيف ضاعت حكمتها. التي أُشتهرت بها.. كيف غاب عنها رشدها وهو جزء من طبيعتها التي لازمتها طوال حياتها. هل هي الخمر فقط..؟ هل هذا هو الحب الصاعق الذي يصيب الإنسان بدون أي سوابق أو إنذار. واستمر فكري في نومه العميق. أخذت زينات تقبله في كل موضع من جسده. نعم لقد فجر في كيانها أجمل طاقات الحياة الخلاقة المبدعة. يا سبحان ا !!!.. هل هذا هو الحب الذي يُحكى عنه في الروايات.؟.. هل هي في حلم جميل.. ولكنها لا تحلم.. أخذت في لمسِه في كل أنحاء جسده للتأكد من أنها لا تحلم؟.. لا شك أنها لا تحلم.. لا شك في أنها لا تحلم. بل هذه هي الحقيقة والواقع واحتضنته كما تحتضن الأم طفلها الوحيد. نعم إنها لا تشعر بأي ندم. هذه هي قطرات الدم المقدس الذي سال من غشاء بكارتها وبلل فخذيها وملاءة السرير العريض. والغريب في الأمر أنها لا تشعر بأي ندم في أعماقها. ندم على ماذا؟.. إنها تشعر بالحياة المقدسة تسري في كيانها كله. وتشعر أن شجرة حياتها بدأت في الازدهار. وبالرغم من الفزع الشديد الذي سيطر عليها. فإن كل خلية من خلاياها تريده وتعشقه. ولكن ما مصير الإكليل الكنسي الذي عقدته مع خطيبها قبل سفرها إلى ماليزيا بسبعة أيام فقط. الدموع تسيل على وجنتيها واغرورقت عيناها الجميلتان بالدموع بدون أي توقف. الحزن الهادئ الجميل يسري في روحها ويتغلغل في نفسها. الحزن العميق لهذه الكارثة التي أصابتها. والبهجة والسعادة لطاقة الحياة التي انبثقت في وجودها. والحب الخلاق الذي تفجر في صميم وجودها.

المشهد الخامس
والليالي من الزمان حبالى
مثقلات.. يلدن كل عجيبة..

تغلب الإرهاب والألم والحزن والبهجة على زينات؛ فتغلب عليها النوم العميق، وغابت في سبات عميق في أحضان فكري. استيقظ الدكتور فكري من نومه يقظة مرعبة. أصابه الفزع. اكتشف زينات عارية في أحضانه. آثار دماء على ملاءة الفراش وعلى فخذيه. سحب نفسه منها بلطف. الفزع والرعب سرى في كيانه. ماذا فعل؟ ماذا ارتكب؟ خطيئة زميل له في المهنة؟.. الشيطان سيطر عليه. لعبت الخمر بعقله. سالت الدموع بغزارة من عينيه. جاء إلى ماليزيا ليجمع ثروة، ليربي أولاده وينفق على عائلته. ويتيح لهم فرصة حياة أكرم وأسعد... يا للمصيبة؟.. يا للعار..؟ كل هذه الخواطر تجري في عقله.. ماذا سيفعل؟ لقد سيطر الشيطان اللعين عليهما. ورمى بهما في أسفل سافلين... أخذ يفكر ويفكر.. لم ير أمامه أي طريق للخلاص... هل ما حدث كان نزوة طارئة.؟ هل كميات الخمر الهائلة التي شربها؟... ولكن كيف استسلمت هي له؟ لم يحاول إيقاظها. شعر نحوها بحنان وشفقة لا حد لهما. غطاها بملاءة خفيفة. تركها لتستكمل نومها.. المسكينة فقدت أعز ما تملك المرأة في شرقنا العربي. وا أسفاه؟ الضمير أين أرقى قانون في الوجود؟ ما هو إلا بين فخذي المرأة. الشرف في الشرق ما هو إلا في موطن العفة.. الأمانة التي ميز ا بها الإنسان عن الجبال والسماوات والكائنات جميعا ما هي إلا في مشاكل الجنس والضرورة البيولوجية... شعر في أعماقه بعاطفة جياشه نحو زينات، تنبثق في وجود عاطفة حب وحنان تتدفق في أعماق روحه. عاطفة مقدسة تنبعث في قلبه.

أخذ فكري يفكر ويفكر في عمق شديد. صنع لنفسه فنجانًا كبيرا من القهوة المرة السوداء. وذهب إلى الشرفة التي تطل على المحيط. وأخذ يتأمل أشجار الغاب العملاقة الممتدة حتى مياه المحيط الهادئ. واستمر تأمله في مجالات الحياة المحيط. وبدأت الخواطر والأفكار تتجسد في قرار خطير في حياته بل يعتبر أخطر قراراته المصيرية في حياته كلها. لن يتخلى عنها. لن يخذلها. لن يهرب ويتركها بمفردها. تواجه مصاعب الحياة. شعر بعمق المأساة التي تحيط بهما. شعر بالدوامة المخيفة التي تكاد تشدهم إلى الأعماق، إلى أعماق الظلام. ذهب إلى الحمام. أخذ حماما دافئًا. ارتدى ملابسه. تناول فنجانًا آخر من القهوة السوداء المُرة. في شرفة الفيلا المطلة على الغابات الاستوائية. المترامية الأطراف إلى ما لا نهاية. أخذ يعيد التفكير والتأمل بعقله وقلبه. وأخذ يقدح زناد فكره. ماذا سيقول للدكتورة فاطمة. ماذا سيقول لموريس الذي استضافهم في بيته. قرر إخبارهم بالحقيقة. قرر أن يتحمل مسئوليته بالكامل. وليذهب العالم إلى الجحيم. نعم عليه مواجهة الحقيقة. إنه يحبها حب العبادة. نعم هذا هو الحب المقدس الذي يخلق الحياة. الحب الرائع الذي لم يجربه أبدا في حياته. أيقن في قرارة نفسه أنه يحب زينات بكل كيانه. بالرغم من فترة التعارف القصيرة جدا. أيقن في أعماق قلبه أنها تحبه حبا لا حد له. وما حدث لم يكن من تأثير الخمر؛ بل ما حدث كان التعبير عن العاطفة

الصادقة الجياشة. التي انبثقت في كيانه وفي كيانها، ووحدت بين جسديهما، ووحدت بين روحيهما في جسد واحد وفي روح واحده. كل هذه الأفكار كانت تجري في خياله وعقله. لو كان ما بينهما هو الحب الجسدي الشهواني الخاص، لمات هذا الحب واختفت الشهوة بعد اتصالهما الجسدي. نعم لو كانت هذه العلاقة قائمة على نزوة الجسد فقط لانتهت القصة وأسدل الستار. لكن الحب الحقيقي يتفجر في الروح والعقل والقلب. كالبركان. نعم الالتحام بزينات جسديا وروحيا وفكريا مد حياته القصيرة على ظهر هذا الكوكب. هو مطلب حياته الأساسي. ورغبته الكامنة الأصيلة. ذهب فكري إلى الشرفة الأخرى المطلة على حدائق البحيرات السبع، وجد موريس وفاطمة يتناولان الشاي. جلس معهما وأخذ كوبا من الشاي ووضع عليه الحليب بكثرة. اعترف لهما بشجاعة وصدق بكل ما حدث وبكل شيء. أخبرهما بأنه يحب زينات ويريد الاقتران بها. قال لهما: "الحب قدر... وهذا هو قدري"...

* * *

المشهد السادس
وليس على الخبز وحده يحيا الإنسان

موريس : بس يا فكري الدين المسيحي لا يسمح بتعدد الزوجات. وكل الطوائف المسيحية تسمح بالتعدد إلا طائفة المورمون. ولا تعتبر طائفة مسيحية..

فكري : سأطلب الطلاق من زوجتي في مصر. وسأتقدم بطلب الطلاق للكراهية والنفور المتبادل بيني وبينها، وسأرسل طلب الطلاق اليوم إلى سيادة البابا الأرثوذكسي عن طريق محامي صديقي بالقاهرة.

موريس : الحكاية مش سهلة. زي ما انت متصور. الدخول في الحمام مش زي الخروج منه. الحكاية دي أكثر تعقيدا. ومحتاجة للمزيد من التفكير.

فكري : لو اعترضت الكنيسة سأغير ديني. وسأعلن إسلامي.

موريس : هي يا فكري الأديان لعبة!!.. تتنطط بينها زي ما انت عاوز.

فكري : الحقيقة يا موريس. الحق يقال. جوهر الأديان كلها واحد. وهو معاملة الناس معاملة طيبة وخدمة البشرية من كل لون. خدمة الحياة في كل صورها.

تركت الدكتورة فاطمة الشُرفة لإحضار كوب شاي لفكري. واستمر الحوار الهادئ بين موريس وفكري.

موريس : أنا موافق - تماما - على أن جوهر الأديان السماوية والغير سماوية واحد، ولكن كل مؤسسة دينية لها تقاليدها القديمة المستقلة المميزة. الصراع الحاصل حاليا في العالم. هو صراع بين المؤسسات الدينية. وليس بين الأديان.

والدكتور فكري مشبع بالثقافة الغربية. ويؤمن بالأسلوب العقلاني العلمي في التفكير. الذي حرر الإنسان من ظلام الأساطير والخرافات التي صاغها واخترعها إنسان العصر الحجري القديم. والتي ما زالت سائدة في عقول الناس إلى وقتنا الحالي..

قال الدكتور فكري في انفعال شديد: "الحب يا موريس هو الرباط المقدس الوحيد الذي يربط الرجل بالمرأة".

طلب فكري من فاطمة بالنيابة عن نفسه التوجه إلى زينات. لتبلغها بأنه يريد الزواج منها، لأنه يشعر نحوها بحب جارف لا سبيل لصده. ولا الوقوف ضده. حب جارف اقتلعه اقتلاعا من أقدامه وصادر من قلبه وروحه. وأنه في سبيل طلب الطلاق من زوجته في مصر. طبعا إذا كانت زينات تكن له نفس المشاعر والأحاسيس القوية، وإذا كانت زينات غير نادمة على ما حدث..

طلبت زينات رؤيته.. ذهب إليها. كانت قد ارتدت ملابسها. تمالكت نفسها. جميلة كعادتها، رائعة الجمال. عيونها زرقاء في زرقة المحيط. شعرها الناعم الحريري المسترسل يصل إلى أسفل ظهرهـا تقريبـا. فـي ضفيرتين كبيرتين. الوجه يعبر عن قوة الشخصية والحيوية. أعدت لها صديقتها فاطمة كوب شاي بالنعنـاع. ساعدتها فاطمة في استكمال زينتها. وما زال آثار الإرهاق الشديد يبدو على وجهها. وبالرغم من شـعورها بالإرهاق والإعياء. لم يظهر عليها أي أثر للرعب والفزع الذي يسري في كيانها كله. وانسـحبت الـدكتورة فاطمة برشاقة من الغرفة. لتترك مجالاً لهما للحوار. وذهبت إلى المطبخ لإعداد الإفطار للجميع حسب رجاء الدكتور موريس. لأن الخادمة في إجازة عيد الميلاد المجيد.

فكري "... أنا آسف. أنا المسئول عما حدث. سامحيني. لقد فكرت وفكرت وأطلت التفكير فيما حدث بيننا، والذي هو نتيجة الحب الجارف الذي تفجر في أعماق روحي. وقد اجترفني من حكمتي. اقتلعني من توازني. لم يحدث لي هذا من قبل. (وهنا غالبه البكاء وأخذ في البكاء بصوت عالٍ.) وأخرج منديله الحريري وجفـف دموعه..." الحب جمعنا في رباط مقدس". أقول لك الحق.. هذه التجربة الخلاقة أول حب حقيقي في حيـاتي الجافة الكئيبة. اللي حصل مني ليس بسبب الخمر أو صدمة الغربة. أو الشهوة العابرة.

زينات : أنا أشاركك المسئولية، أنا - أيضا - مسئولة عن اللي حصل. الواقع أننـي شـعرت نحـوك بمشاعر قوية وأنا أعمل تحت إشرافك في المستشفى في القاهرة. وعندما اشتركت معـك فـي رقصة التانجو في البار الليلي في العاصمة كوالالمبور. شعرت نحوك بحـب جـارف زلـزل كياني. عاطفة قوية صعقتني كإعصار مدمر. لم أستطع له مقاومة. بس أنا مرتبطـة بالـدكتور أنيس زميلك ودُفعتَك في الدراسة بنصف إكليل، في كنيسة كليوباترا بمصر الجديـدة.. وذهـب أنيس إلى لندن للتخصص في فرع التخدير. في جامعة شيفيلد. ولكن من حقي التراجع. سأعتذر له عن عدم إمكاني الاستمرار في هذه العلاقة. "أنا يا فكري وهبتك أمس نفسي وروحي بناء عن حبي لك ورغبتي الشديدة في الارتباط بك". والحب يا فكري هو الشرعية الوحيدة لعقد الـزواج. العقد المقدس. الدكتور أنيس ابن عمي. ولكني لا أحبه كزوج. وحاولت المقاومة بدون جـدوى. وصمم والدي المقدس "ويصا حنا". على إتمام عقد القران. بالرغم من إصراري على رفضه. لم أُكِن له أي حب. ولكني استسلمت أخيرا للضغوط التي مارستها علي أمي ووالدي. أهلي وخاصة أمي قد فرضوا علي هذا الوضع الشاذ. زواجي منه ظلم كبير لي وله. ولقد حـررت لـه هـذا الخطاب لأحرره من أي مسئولية علي. لأنني أحب العلاقات الأسرية أن تكون قائمة على الصدق والأمانة. ربنا يسامح أمي ووالدي المقدس "ويصا حنا". ا يسامحهم لظلمهم لي.

فرح فكري بموافقتها على الارتباط به. قبلها قبلات. ركعا على ركبتيهما أمام الكتـاب المقـدس. وضـعا أيديهما على الإنجيل. أقسما سويا على الحياة معا. وعلى الارتباط أمام ا بالرباط المقدس. في المرض وفي الصحة، في الغنى والفقر، في الشقاء والبهجة. والارتباط بالرباط المقدس. أمام ا والناس. في الموت وفـي الحياة. إلى آخر لحظة في حياتهما.

المشهد السابع
الرباط المقدس

فكري تركها. ذهب مع موريس إلى البنك. بنك باركليز. الذي سيأخذ منه مُرتبة. حاول أخذ سُلفة بضمان. رفض البنك. غضب الدكتور موريس. أصر على إعطائه سُلفة من حسابه الخاص في البنك. وافق فكري على أخذ شيك بثلاثة آلاف دولار أمريكي. ذهبوا سويا إلى أشهر محل في الصاغة بكوالالمبور. اشترى فكري سوارا من الذهب المرصع بالجواهر وخاتما وعقدا. في طريق عودتهما إلى المنزل عرجا على بار هادئ لتناول بعض المشروبات. تناول فكري كأسا من الكونياك الفرنسي الفاخر. أما موريس فشرابه المفضل الويسكي السكوتش. جلسا سويا في الشرفة المطلة على حدائق البحيرات السبع. استغرقهم التفكير العميق والتأمل. في الحياة العجيبة. والحياة ما هي إلا صندوق الغاز داخل صندوق. إذا نجحتَ في حل لغز اكتشفتَ صندوقًا آخر من الألغاز. وهكذا دواليك إلى ما لا نهاية من صناديق الألغاز. إذا نجحت الإنسانية في حل طلاسم الصندوق، تجد داخله صندوقًا آخر من الألغاز الأكثر تعقيدا. وهكذا إلى ما لا نهاية من صناديق لا آخر لها ولا أول. وهذه هي روعة الحياة الخالدة. والإنسان لا يستطيع استيعاب مغزى ومعنى الحياة والوجود. وكان يحيط بهما الهدوء الشامل والغابات المترامية إلى ما لا نهاية.

موريس : ... أنا شايف إنك سائر في الطريق الصحيح. ولا يصح إلا الصحيح. ضروري الإنسان يتحمل مسئوليته. ولا يهرب منها. دي هي الأمانة التي تميز بها الإنسان عن بقية الكائنات. الهروب من المسئولية يدمر شخصية الإنسان. ويخرب روحه.

فكري : ... أنا فعلاً غلطت يا موريس. لكن أنا مش متردد.. أنا مش ندمان. اللي حصل أقوى مني أقوى منها. الحب المتبادل الجارف. يتولد زي الإعصار. لا تعرف سببه. قد يكون تغييرات كهرومغناطيسية. في خلايا المخ. صدقني يا موريس اللي حصل مش بسبب الخمر. ومش بسبب الغربة أو صدمة الغربة. اللي حصل هو أول حب حقيقي في حياتي. شعرت به في كياني كله. شعرت في ساعات أن شجرة حياتي قد تفجرت فيها بذرة الحياة الخلاقة، واخضرت أوراقها بعد طول ذبول وجفاف.. في ساعات شعرت بميلاد جديد ومتجدد لشجرة حياتي التي كانت على وشك الاندثار والجفاف. ده هو الحب الوحيد في حياتي. وده الدليل على إن اللي حصل مش مجرد نشوة عابرة أو شهوة سطحية. اللي حصل هو ميلاد جديد لوجودي. حقًا أنا سعيد. عاوز أفرح. عاوز أعانق العالم كله. عاوز أحضن الدنيا كلها.. عاوز أُقبل كل الناس.

موريس : .. ناوي تعمل إيه مع زوجتك في مصر وأولادك. أنا يا فكري مسيحي زيك. الكنيسة الأرثوذكسية في مصر لن توافق على الطلاق. لا توافق إلا في حالة إثبات الزنا. انت يا عزيزي في ورطة كبيرة.

كلمات موريس أرجعت فكري إلى الواقع الصلب البارد زي حجر الصوان. عاد فكري إلى أرض الواقـع بعد التحليق في سحاب الأوهام.

فكري : .. (وقد عاد إلى الواقع المر. وتصبب عرقًا. وعاوده الاكتئاب والتجهم "أنا يا موريس غرقان لشوشتي. أنا الراقص على حافة الهاوية. أنا الذي بنى بيته في السحاب." وبعـد فتـرة ليسـت قصيرة. هب فكري واقفًا وقد انتابته نوبة بكاء شديد. وقال في انفعال عميق: "تصدق يا صديقي موريس.. لو تعقدت الحكاية.. لو رفضت الكنيسة الطلاق. سأعلن إسلامي. أنا راجل علمـاني. أحترم كل الأديان. والجوهر واحد وهو محبة الناس وخدمة المجتمع البشـري بكـل أنواعـه. وأحترم الحياة المقدسة في كل صورها. والإسلام دين واقعي عملي. وهو الدين الوحيد من بـين كل الأديان السماوية الذي يمكن أن يتعايش مع العصر العلمي الحديث... نعم يا موريس... لـن أتردد في اعتناق أي دين.. نعم لن أتردد في إعلان إسلامي والجوهر واحد، عبـادة ا العلـي القدير الرحمن الرحيم وخدمة عباده، والعمل في سبيل منفعة بين البشر. ا محبة. والخلق عيال ا . ومن أحبوه أحبهم ا . ومن كرهوه كرههم ا . والكائنات كلهـا مـا هـي إلا كلمـات ا الكونية. وكل الطرق تؤدي إلى روما. وكل الأديان تؤدي إلى ا . ومـا الأديـان الوضـعية أو السماوية إلا دروب مختلفة للوصول إلى ا خالق كل شيء. خدمة الناس ومنفعة البشر وتقديس الحياة في كل ألوانها هي أقرب الطرق لمعرفة ا وعبادته.

* * *

المشهد الثامن

ما عقده ا لا يحله إنسان

رجعوا سويا في عربة موريس المرسيدس الفاخرة. أعلن فكري لفاطمة وزينات أنه سيقدم الشبكة والخاتم. وحجز قاعة بار الأوهام في فندق هيلتون في العاصمة كوالالمبور. وكان حفلاً رقيقاً. لم يحضره إلا الأربعة أصدقاء فقط. وقدم فكري لزينات الشبكة. رمزا للارتباط الروحي والجسدي. ذهبا إلى السجل المدني ووثقا علاقتهما المقدسة. ودارت الأيام. ومرت الليالي. فكري في سعادة غامرة لم يشعر بمثلها من قبل. حبه لزينات يزداد مع الأيام عمقًا وحلاوة. أما زينات فقد تولدت الفرحة من جديد في قلبها. طوال النهار تغرد كالعصفور. عصفور السعادة المغرد الذي يطير راقصا بين الأشجار. كيانها كله التحم مع كيان فكري. وما الحب إلا انصهار الروح في الروح. وما الحب إلا انصهار الجسد في الجسد. لقد انجذبت زينات إلى فكري بقوة قاهرة، عندما كانت تعمل معه في قسمه في المستشفى. ولقد سعدت السعادة كلها عندما علمت بأنه ذاهب إلى ماليزيا في إعارة ضمن الوفد المصري المعار إلى ماليزيا. ولقد سعت بكل طاقاتها للذهاب معه. وعندما علمت من معارفها في القسم العلاجي بوزارة الصحة بأن الدكتور فكري قدم طلبا للذهاب ضمن الوفد المصري، أقنعت مدير الخدمات العلاجية بالموافقة على طلبها. وفي ماليزيا أقنعت مدير الطب العلاجي بإرسالها إلى نفس المقاطعة التي عُين فكري فيها، لصلة القرابة التي ادعت أنها تربطه بها. وهكذا عُينت في ولاية نجري سمبلان.

* * *

المشهد التاسع
وتتابعت الأحلام وتتابعت الأوهام

كان فكري يقود سيارته الجديدة الفولكس فاجن. متجها إلى الفندق الذي يقيم فيه. فندق البحيرات السبع. زينات كانت في انتظاره ليتناولا العشاء سويا كما هي العادة. أعدت له عشاء صينيا فاخرا. فكري يحب الأكل الصيني اللذيذ. ويقول دائما ويردد بصوت خافت "المطعم الصيني أحسن مطاعم الدنيا كلها.. أتقن فكري فن استخدام الطريقة الصينية في تناول الطعام. وبرع في تناول الأكل بالعصا الصينية الرشيقة، حتى تمكن من تناول الأرز باستخدام العصا. والحب يصنع المعجزات. أو هكذا خُيل إليه. عاد فكري بقدرة قادر إلى ربيع حياته. السعادة في قلبه، الفرح في روحه، جسمه ازداد نشاطًا وحيوية. أول حب حقيقي ينبثق في روحه، وفي أعماق وجوده. تجربة الزواج السابقة سببت له شقاء لا حد له وشجرة حياته جفت ويبست. ولكن الخضرة والنضارة تسريان حاليا في كيانه. أثناء تناولهما طعام العشاء. كان يدغدغ قدم زينات تحت طاولة الطعام في الخفاء. كالشاب المراهق. ودي هي الإشارة المتعارف عليها بينهما. بأن الليلة ليلة حب، حب ساخن. وكل إنسان في حاجة لسبر أعماق روح إنسان آخر. وهذه هي الحياة.

ومرت الأيام ومرت الليالي. والليالي من الزمان حُبالى مثقلات... يلدن كل عجيبة. نسيا وتناسيا الزمن. نسيا وتناسيا مصر والكنيسة القبطية. وعائلاتهما. عاشا فقط في حاضرهما. والنسيان رحمه. عاشا في فندق البحيرات الذي يطل على البحيرات السبع، بحيرات طبيعية منبثقة من أعماق الأرض الطيبة. والفندق يقع في وسط الغابات الاستوائية المترامية الأطراف. أقاما فيه واتخذاه بيتًا لهما. وذلك بعد عودة زوجة موريس من أسيوط. الحياة ابتسمت لهما، لفكري وزينات. جنة الفردوس المفقود. العش الهادئ، عش الحب المقدس. السعادة والصفاء في قاب زينات. شربا سويا من خمر الحياة والحب حتى الثمالة. لم يساور زينات أي قلق. لأن علاقتهما لم تُسجل في كنيسة أو جامع. بنيا عشهما المقدس في أعالي أشجار السنديان الضخمة، في أعمق أعماق الغابة الاستوائية التي لا حدود لها. شيدا عشهما المقدس في السحاب. قشة قشة كما تبني العصافير أوكارها بنيا عشهما في السحاب. يطلان على الدنيا ولا تراهم الدنيا. مثل طائر النورس الذي يفرد أجنحته الشفافة فوق السحاب. وينام فوق السحاب. ناما في عناق أبدي لا يراهما إلا ا العلي القدير. إله الحنان والحب والبهجة والرحمة. النجوم في أفلاكها شاركتهما بهجتهما. الحب المقدس هو الشفرة التي يقوم عليها الكون كله. وما الحب إلا محاولة إنسان اكتشاف أغوار إنسان آخر. وعش السعادة الذي اشتركا في بنائه سويا من أوراق الأشجار، من الأزهار البرية، من زهور البرسيم. وتعاونت الطيور معهما في بنائه. نام فكري ونامت زينات على السحاب الرقيق الشفاف الصافي نوما عميقًا. وجرت في خيالهما وفي أحلامهما أحلام عجيبة. أحلام باهرة وصور متنوعة سريعة. زي فيلم السيما. أحلام جاءت وأحلام ذهبت. في تسلسل مستمر. بقع مضيئة من النور تحل محلها بقع مضيئة أخرى. ولا تكاد تظهر البقعة المضيئة حتى تختفي في الظلام. شريط سينما ممتع. شعاع النور يقع على البقع المظلمة حتى يضيئها لثوانٍ قليلة. ثم ينتقل على بقعة

مظلمة أخرى. وهكذا تتابعت الذكريات والصور. وتتابعت البقع المضيئة والبقع المظلمة. في مسلسل سينمائي ممتع. والغريب في الأمر أن أحلامهما كانت مشتركة.. كأنهما اشتركا واندمجا في الجسد والروح وفي الأحلام والأوهام أيضا.!! وما أعجب الحب الحقيقي!!! وهكذا تتابعت البقع المضيئة والبقع المظلمة وتتابعت الذكريات. رأيا في المنام جيوش هتلر النازية وهي تحرق في أفران الغاز ملايين اليهود وملايين الشيوعيين.. رأى فكري فيما يرى النائم ديكتاتور إيطاليا موسوليني وفرق الفاشيست تستخدم الغازات السامة. في حربها ضد أهل الحبشة، الذين كانوا لا يملكون إلا أسلحة من النبال والحجارة. ركز شعاع الضوء على بقعة أخرى، رأى فتاة لا تتجاوز السادسة عشر تُغتصب في محطة الأتوبيس في وسط النهار، على مرأى ومسمع من الناس أجمعين وصمت الأهالي. كأن الأمر لا يعنيهم أو يجري في كوكب آخر. ركز شعاع الضوء على بقعة أخرى، رأى جحافل الصهيونية أو النازية الجديدة تغتصب وتطرد ملايين الفلسطينيين من بيوتهم وتضعهم في الصحراء الجرداء؛ حيث لا ماء ولا خضرة ولا حياة. وصفق العالم كله لرعاة البقر الجدد وللفتى اليهودي المدلل. انتقل شعاع ضوء الأحلام إلى بقعة مظلمة أخرى فأنارها. شاهد فيما يشاهد النائم محاكم التفتيش الدينية المرعبة في أسبانيا.. التي قتلت الملايين من المسلمين واليهود. وفي بقعة جديدة أخرى شاهد البروتستانت يقتلون الكاثوليك بالملايين في وسط أوروبا. رأت زينات في بقعة جديدة من بقع الأحلام التجار البيض، تجار العبيد يخطفون الأفريقيين السود ويصطادوهم كما تُصطاد الغوريللا والحيوانات المتوحشة. كيف كانوا يربون الأطفال السود في المزارع في أسبانيا. كما تربى العجول في المزارع لتصديرهم إلى أمريكا للعمل في مزارع البيض، لأن تجارة العبيد كانت تدر الملايين على أمريكا وأوروبا. رأت زينات في بقعة جديدة شارلي شابلن أعظم ممثل كوميدي في كل العصور، الممثل الذي وهب السعادة والبهجة لملايين الناس البؤساء في كل بلاد العالم الحديث. شارلي الذي أضحك الملايين كيف طرد شر طردة من أمريكا، بمعرفة اللجنة الأمريكية للأمن القومي للولايات المتحدة. رأت زينات فيما يرى النائم في بقعة مضيئة جديدة من بقع الأحلام الطائرة الأمريكية وهي تلقي بأول قنبلة ذرية على هيروشيما وناجازاكي، وذلك بدون أي ضرورة عسكرية؛ حيث أجمع الخبراء العسكريون أن اليابان كانت على وشك التسليم في الحرب بدون قيد أو شرط. والذي نتج عنها دمار لا حد له وقتل بسببها نصف مليون إنسان. وشوه لمدى الحياة ملايين الناس الذين لم يقتلوا، أُلقيت القنبلة الذرية لإشاعة الرعب في قلب البشرية كلها، لكي تخضع الدنيا كلها لأمريكا والصهيونية. وفي بقعة مضيئة أخرى شاهدت زينات رئيس الولايات الأمريكية، يشجع العراق على محاربة إيران في حرب استمرت عشرة سنوات، وأدت إلى قتل مليون عراقي ومليون إيراني وإلى مكاسب هائلة لشركات الأسلحة الأمريكية، وتقدر ببلايين الدولارات الأمريكية. وزيادة المكاسب الهائلة للشركات عابرة القارات التي تربح البلايين من ازدهار تجارة الأسلحة، بينما يتباكون على القيم الحضارية للحضارة الأمريكية الأوربية، وكيف يتباكون على الديمقراطية الغربية وقيمها السامية وعلى حقوق الإنسان. ورأت زينات فيما يرى النائم في بقعة مضيئة أخرى كيف ابتلعت الغوريلا الأمريكية منطقة الشرق الأوسط ودوله، واستولت على البترول واستعمرته سياسيا وعسكريا. وساندت حُكاما ليس لهم أي جذور شعبية، وهم لا يزيدون عن كونهم أقزاما كقطع الشطرنج. لا هم لهم إلا جمع المال وضمان استمرار الملكية الاستبدادية إلى

أبنائهم من بعدهم. ورأى فكري فيما يرى النائم بقعة أحلام جديدة، عندما وقع عليها شعاع الأحلام وكيف أن العلم الحديث استُخدم أسوأ استخدام لانتصار قوى الشر والهمجية، وكيف دُمرت البيئة التي يحيا فيها الإنسان، وأن الحياة بكل أنواعها الاجتماعية والبيولوجية على وشك الانقراض بسبب النشاط المدمر والمخرب للبيئـة التي تمارسه الشركات العملاقة التي سادت الكرة الأرضية، والتي لا يهمها إلا حافز الربح الأقصى. وحيـث إن التنوع هو أساس التقدم البيولوجي والتطور الحضاري.

شاهد فكري بقعة أخرى - وقع عليها شعاع الضوء - إسرائيل وهي لا تزيد عن أربعة ملايـين تمتلـك قنابل ذرية تكفي للقضاء على شعوب المنطقة بأكملها. وتألقت بقعة مضيئة أخرى في خيال وأحـلام فكـري وزينات فشاهدا كيف أن أمريكا دمرت بوعي تامٍ هيئة الأمم التي كانت مناط أمل شعوب العـالم المتحضـر. شاهدت زينات وفكري كيف أن العلم الحديث الذي كان أمل الإنسان به ورجاء الشعوب في مستقبل أفضـل لبني الإنسان بعد عصور الهمجية والبربرية أصبح الكارثة الكبرى التي تهدد مستقبلاً أفضل لبني الإنسان بعد عصور الهمجية والبربرية. بل أصبح الكارثة الكبرى التي تهدد مستقبله، حيث ساعد العلم الحديث في تدمير البيئة البيولوجية للكرة الأرضية، البيئة الخصبة التي ساعدت على نشوء ونمو وتطور أنواع الحياة المتنوعـة من عالم النبات إلى عالم الحيوان إلى الإنسان الواقف على قدميه. البيئة التي ساعدت في خلق الحياة وأشكالها المختلفة في بلايين الأشكال التي لا نهاية لها، والتي لا نهاية لتنوعها ووحدتها. شاهد العلم الحـديث وكيـف استغلته الدولة الغربية والصناعية والشركات عابرة القارات. لتحقيق أقصى قدر من الأربـاح الهائلـة. وإن حافز الربح الأقصى ساعد في تخريب الحياة الاجتماعية على ظهر كوكبنا الأرضي الجميل، وساعد في ميلاد المجتمع الحديث القائم على العنف والقسوة وعبادة الشهوات الحسية، وحافز تحقيق الحد الأكبر للربح والسعي لإفقار الجميع لاستعباد كل الشعوب؛ أدى إلى سيادة عبادة الفرد والتطرف الديني والتعصب القومي والعرقي. وكان فكري في أحلامه يردد قول الكاتب الأيرلندي جورج برناردشو - وهو كاتب وفيلسوف العصر الحديث بلا منازع. الذي تنبأ بمذبحة العلماء- و الذي قال: إن الشعوب كلها ستقوم بتدمير معامـل الأبحـاث وقتـل العلماء لإنقاذ البشرية من الدمار والتخريب الذي أصبح يهدد بقاءها ووجودها ذاته. وقد تنبأ شو بمذبحة فـي القرن الحادي والعشرين، حيث إن العلم الحديث بقدراته وحافز الربح الأقصى بأطماعه قـد حـول مجتمـع العصور الحديثة إلى بربرية وهمجية وتوحش تفوقُ كل العصور السابقة في انحطاطها الروحـي وهمجيتهـا وبربريتها. وكان فكري في منامه يردد قول شو الذي تنبأ بمذبحة العلماء في المستقبل، ويردد قوله: الإنسان عملاق في قواه المادية وقزم في قواه الأخلاقية والروحية. إنسان العصور الحديثة هو غوريلا كثيفة الشـعر في أعمال الغابات الاستوائية.

* * *

المشهد العاشر

الإعصـ ـار

استيقظ فكري من نومه العميق. الذي انتابته فيه كوابيس كثير مرعبة وأحلام مزعجة. زينات نائمـة فـي حضنه كالطفل الرضيع. أخذ حمام الصباح، أعد لها طعام الإفطار؛ توست طازج دافئ بالجبنة الرومي. وأعد لها إبريقًا من القهوة بالقشدة الطازجة إفطارها المفضل. داعبها في قدمها فاستيقظت، ابتسمت له، قبلته قبلـة الصباح الجميل. ذهبا بسيارة المستشفى إلى عملهما. توجهت زينات إلى قسم الحوادث والإصابات الذي تعمل فيه. وذهب الدكتور فكري إلى المعمل الباثولوجي الذي يرأسه. أخبرته سكرتيرته وأن السـفارة المصـرية طلبته مرات عديدة، وتركت له إشارة عاجلة عند مدير المستشفى للحضور إلى السـفارة المصـرية. أخبـر زينات، أخذ عربته الخاصة التي اشتراها بالتقسيط المريح. وصل بعد ساعتين إلى كوالالمبور. توجـه إلـى وزارة الصحة الماليزية. تصور فكري أن داتوا عبد المجيد المدير العام للخدمات العلاجية بالوزارة يريد أخذ رأيه الفني لإنشاء معمل باثولوجي جديد في ولاية بينانج. وتعتبر بينانج من أجل ولايـات ماليزيـا، إذ أنهـا جزيرة مستقلة من جزر ماليزيا السبع، بل هي تعتبر أجملها بلا شك، ويتمنى فكري الانتقال للعمل فيها.

ذهب أولاً لمقابلة داتوا عبد المجيد لثقته فيه، إذ أشاد داتوا مجيد بقدرات فكري الفنية وكفاءته في عملـه. أثناء اجتماعه بالأطباء المصريين - وهو الوحيد من الأطباء المصريين الذي أثنى عليه- أشـاد بالمسـتوى الرائع لمعمل الباثولوجي تحت إشراف الدكتور فكري الزيني، وسمح له بمقابلته فورا. بالرغم مـن تواجـد الكثير من الزار الكبار الذين يرغبون في مقابلة داتو مجيد أدخلته السكرتيرة. أشار عليه بالجلوس. طلب لـه كوبا من عصير الرمان المثلج.

داتوا مجيد : "أنا آسف يا دكتور فكري. عندي لك أخبار غير سارة ومزعجة لي ولك. السفارة المصـرية المشرفة على الفريق الطبي المصري. أرسلت خطابا مستعجلاً لنا عن طريق وزارة الخارجيـة الماليزية، طلبت الحكومة المصرية فيه فسخ عقد العمل معك، وإنهاء التعاقـد الرسـمي معـك. حاولت المستحيل دون جدوى، وذلك للنقص الشديد في أطباء فرع الباثولوجي، وحاجتنـا إليـك شديدة، وقد اخترتك من بين كل الفريق للعمل في ولاية بينانج، إذ أنه أحدث وأكبر معمـل فـي ماليزيا. حاولت التمسك بك، وعمل عقد شخصي معك مباشرة. ولكن وزارة الخارجية المصرية اعترضت بشدة، وهددت بسحب كل الفريق المصري في كل الفروع. أنا آسف جـدا وبخاصـة أنك ممتاز في عملك وتخصصك، ونحن في أشد الحاجة إليك، وخاصـة بعـد إنشـاء معمـل الباثولوجي في بينانج.

الدكتور فكري الزيني وقد صدمته المفاجئة الغير متوقعة؛ بحيث إنه امتنع عن الكلام لفترة مـن الـزمن. وبهت لونه وغرق في عرقه وتلعثم في الكلام غير المفهوم الذي نطق به. ووجد صعوبة شديدة فـي النطـق والتعبير عن نفسه. قال: "طيب... ممكن أعرف السبب...؟".

داتوا عبد المجيد: حاولت جاهدا معرفة الأسباب من سيادة السفير المصري دون جـدوى. رفـض سـيادته الإفصاح عن أي شيء".

سيطر فكري بصعوبة على رغبته في الإجهاش في البكاء أمام المدير العام. أعاد السؤال بصوت خافـت متلعثم يكاد لا يسمع... "طيب ممكن أعرف السبب..."

داتوا عبد المجيد: ... يظهر يا فكري أنها أسباب شخصية. ونحن هنا في ماليزيا لا نسمح لأنفسنا بالتـدخل في حياة العاملين الخاصة، إلا إذا آثرت في عملهم العام. لأن حياة الإنسان ملكه الخـاص، ولا يجوز التدخل فيها. وحقوق الإنسان عندنا مقدسة، ومن يخالف قانون حقوق الإنسان الذي أقرتـه هيئة الأمم، ووقعت عليه كل الدول الأعضاء في منظمة هيئة الأمم. إنه يعاقب أشد عقاب، إذ أن نظامنا السياسي يقوم على الديمقراطية والتعددية والحرية الوحيدة في عالم والتي لا تقل عن أي دولة أوربية في تقدمها الصناعي والسياسي والحضاري. لأن الحرية السياسية والتعددية واحترام حقوق الإنسان كما ينص عليها ميثاق حقوق الإنسان. هذه العوامل مـن أهـم أسـباب التقـدم الحضاري ولن نستطيع اللحاق بمستوى الدول الأوربية الغربية إلا بها. ولا مكان عندنا لعبـادة الفرد ولا مكان عندنا للحكم الشمولي الاستبدادي، إذ أن الاستبداد والشمولية وحكم الفرد يحطـم أروع ملكات الإبداع عند الناس، ويدمر طاقة الخلق لدى الشعب في هذا العصر بالذات. عصـر المعلومات. وبخاصة أننا مقبلون على عصر الفضاء الذي سيقوم أساسا على الإبـداع والخلـق. ولا مكان فيه لشعوب نمطية التفكير، الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان هي ضرورة حتميـة للدخول إلى عصر الإبداع. عصر الفضاء الذي ستسود فيه الإجابات الغير تقليدية لأسئلة غيـر تقليدية. ".. أنهى سيادته حديثه وقام واقفًا وأوصل الدكتور فكري الزيني إلى باب غرفته. تعبيرا عن احترامه وتقديره له.

توجه فكري إلى مبنى السفارة المصرية. لقد تحطمت آماله. كارثة، مصيبة، تحطم عش الحـب، تحطـم عش الآمال في لحظات.. وزينات حتعمل إيه؟.. إيه حيكون مستقبلها. زينـات حامـل فـي الشـهر الأول، ورفضت إسقاط الجنين. فضلت الاحتفاظ به. إنه ثمرة حبها الأول في حياتها. قالت زينـات: "ده ثمـرة أول حب في حياتي، حياتي الجافة القاحلة. ده ابني وابنك يا فكري. حياة جديدة تنمو في أحشائي ودمـاء جديـدة تجري في عروقي وتدب في كياني"....

جحافل الظلام تزحف عليهما من كل جانب. رضخ لها فكري وسكت. ترك أمره للحي القيوم الذي لا ينام. أسرع في طريقه على السفارة المصرية لمقابلة السيد السفير. طلب مقابلته، أُدخل فورا كـأنهم جميعـا فـي انتظاره.

سيادة السفير: ... أنا آسف يا دكتور.. الظروف لعبت ضدك. أو أنت لعبت بحماقة ضـد نفسـك.. (وهنـا توقف سيادة السفير عن الكلام، وأطلع فكري على خطاب عاجل صادر مـن وزارة الخارجيـة المصرية، تبلغه بقرار السيد رئيس الجمهورية بإلغاء قرار إعارته لماليزيا، وتطلب من سـيادة السفير إعادته فورا إلى مصر.

سيادة السفير: "أنت عارف يا دكتور السبب. الكنيسة أعلنت عليك قرار الحرمان بناء علـى شـكوى مـن زوجتك الشرعية في الإسكندرية. وأنت أرسلت طلبـا إلـى جنـاب بابـا الكـرازة المرقسـية الأرثوذكسية تطلب فيها الطلاق. انت عارف كويس إن الطلاق ممنوع في الديانـة المسـيحية، الكنيسة اعتبرت علاقتك بالدكتورة زينات علاقة زنا، أي علاقة غير شرعية. والد زوجتك لـه نفوذ كبير في مصر. وهو رئيس مجلس إدارة المستشفى القبطي الذي تعمل فيه بمصـر، وقـد وافق مجلس الإدارة على فصلك من وظيفتك في قسم الباثولوجي.

بدأت الحقيقة البشعة تتضح في صورتها الكاملة أمام عيني فكري. زوجته في القاهرة هي التي أشعلت نار هذه الثورة ضده. استخدمت كل أنواع الأسلحة الشريفة والغير شريفة. ولكن كيف وصلتها الأخبار.؟ طبعـا الكنيسة أخبرتها بخطابه الذي يطلب فيه فصل العلاقة بينه وبينها. ويمكن كمان بعض الزميلات الطبيبات في الفريق الطبي قد أخبرنها بذلك. تهالك فكري في مقعده من الإعياء الشديد الذي انتابه. كاد أن يُغمـى عليـه. طلب له سيادة السفير كوبا من الليمون المثلج، حتى يعطيه الفرصة ليتمالك نفسه. وبعد فترة غيـر قصـيرة استرد فكري سيطرته على نفسه. اعترف للسفير بأنه قرر اعتناق الدين الإسلامي، وأن علاقتـه بالـدكتورة زينات شرعية من وجهة النظر الإسلامية، لأنه تزوجها أمام شهود، الدكتورة فاطمة الدسوقي طبيبة الأسـنان والدكتور موريس.. وأنه تزوجها عن حب أمام ا ، وأنه فعلاً طلب الطلاق من زوجته السابقة ولكن الكنيسة التابع لها رفضت الطلاق، وذكرت له النص الإنجيلي "ما ربطه ا لا يحله إنسان". ولهذا قرر الزواج مـن الدكتورة في السجل المدني في كوالالمبور. وذلك بعد إشهاره إسلامه، وزينات زوجته حامل منه في الشـهر الأول، وأنه مرتبط بها في الحياة وفي الموت.

نصحه السيد السفير بالعودة إلى مصر. لحل هذه المشكلة. وأخبره بأنه صدر عليه حكم بالنفقة الشـرعية لصالح زوجته الأولى. والدكتورة زينات تستطيع البقاء في ماليزيا إذا رغبت في ذلك. أما فكري فعليه العودة لمصر، ومحاولة حل مشاكله مع الكنيسة ومع المستشفى القبطي. ودعا له بالتوفيق في حل مشاكله العديدة.

انهمرت الدموع من عيني فكري رغما عنه، وشاطره سيادة السفير مشاعره بـالحزن والأسـى. انتهـت المقابلة. أصاب فكري اليأس والقنوط من رحمة ا الواسعة. أظلمت الدنيا في عينيه سار مترنحا إلى عربته مثل السكران آخر الليل بعد ليلة حافلة من السكر والعربدة، لا يدري أين الطريق. الأمطار تهطل بغزارة من السماء. موسم الأمطار. رفض فكري نصيحة سعادة الوزير في البقاء والمبيت في كوالالمبور نظرا لخطورة الطريق السريع، بسبب كثرة الشاحنات العملاقة الناقلة للأخشاب إلى ميناء سـينجابور فـي طريقهـا علـى أوروبا. قرر الدكتور فكري العودة إلى زينات. ليروي لها أحزانه وأحزانها، وكيف حطمت الريـاح العنيفـة

الهوجاء عش السعادة الصادق، الذي شيداه في أعالي أشجار السنديان والحور العتيق، العش الذي شيداه سويا هربا من القدر. حقًا الحياة ما هي إلا حلقات متتابعة من القسوة والعنف. ليس أمامه إلا العودة إلى مصر. وإعلان إسلامه حتى يتمكن من الطلاق، ويعود لعمل عقد شخصي مع وزارة الصحة الماليزية وسيرحبون بعودته. والاستمرار في الحياة الزوجية مع زوجته زينات أمام ا والناس. ده هو الطريق الوحيد المفتوح له، ويرى من خلاله بصيصا من النور. ذهب إلى بار الأوهام، وأخذ يعُب من الويسكي عبا كأسا وراء كأس، حتى شرب زجاجة كاملة. نصحه المتر دي تيل بعدم السفر هذه الليلة نظرا لخطورة الطريق السريع الذي يطلق عليه نتيجة كثرة الحوادث (طريق الموت). نصحه البار مان بالبقاء والمبيت في كوالالمبور والسفر في الصباح. أو ترك عربته والسفر بالقطار إلى نجري سمبلان فالأمطار ثقيلة وغزيرة، الشبورة ثقيلة وتتعذر الرؤيا. كل هذه النصائح كانت دون جدوى. صمم فكري على السفر في نفس الليلة. كان واثقًا من قدرته على القيادة حتى في الظروف الصعبة.

قاد سيارته في سرعة مجنونة. في طريقه إلى ولاية نجري سمبلان، في الطريق السريع الذي يطلق عليه "طريق الموت" - ونظرا لأن الشاحنات العملاقة التي تنقل كل أخشاب الغابات إلى أوروبا عن طريق سينجابور تستعمله ليلاً نهارا، وتسير هذه الشاحنات في سرعة مفزعة - قاد فكري السيارة في طريقه إلى حبيبة القلب زينات. أوقفته الشرطة مرارا، وحاولوا مصادرة رخصة القيادة. ولكنه أخرج لهم البطاقة وتعرفوا على شخصيته. أخبرهم أنه مطلوب في استدعاء إلى مستشفى نجري سمبلان العام، لإسعاف حالة عاجلة. إكراما له رفضوا إجراء محضر رسمي له، وسمحوا له بمواصلة السفر بشرط التقليل من السرعة، حفاظًا على سلامته. إذ أن الطريق خطر جدا، وخاصة أثناء غزارة وشدة الأمطار. وأخبروه بأن الطريق غرقان مياه، وبه أعلى نسبة حوادث في العالم. واستمر فكري بالرغم من كل النصائح في سرعته الجنونية هروبا من آلامه وعذابه العميق، العذاب والشقاء الذي يسري في روحه وجسده؟ هل عقله الباطن صمم على الهلاك؟. هل عقله اللاوعي قد رسم له النهاية المحتومة؟. هل فقد الأمل نهائيا. هل انبثقت في نفسه الإرادة والرغبة في التدمير الذاتي.؟ هذا علمه عند ربي!! ا ورسوله أعلم.

لمح فكري فجأة أنوار كشاف سيارة عملاقة زغللت بصره، عملاقة من ناقلات أخشاب الأشجار. والشبورة كانت كثيفة جدا. معالم الطريق غير واضحة. حاول بدون جدوى تفادي الشاحنة التي ظهرت أمامه فجأة، ضغط بشدة على الفرامل، انقلبت سيارته الصغيرة ودرات حول نفسها عدة مرات، واصطدمت بشجرة على الطريق. تهشمت سيارته، أصبحت مثل علبة الصفيح المهشمة، عجلة القيادة أطبقت على صدره، تحطم القفص الصدري نتيجة الارتطام العنيف، تهشمت رأسه، توقفت السيارة الصغيرة الوقفة الأخيرة. رقد فكري الرقدة الأخيرة له في هذه الدنيا. واستمرت الأمطار في الهطول واستمرت العاصفة الهوجاء. توقف قلب فكري عن الخفقان، وساد الهدوء وظللت السكينة المكان. أما العاصفة والأمطار فقد استمرتا في ثورتهما، كأنهما يشاركان الحياة أحزانها لموت الطبيب الشاب الممتاز. وساد الهدوء التام الأخير العربة والدكتور فكري.. واستمر النزيف الشديد.. من رقبته وصدره.. الصمت ساد الكون، وطيور النورس استمرت في النحيب حزنًا على الحياة الرائعة التي فُقدت، وشاركت الطبيعة كلها في جلال ورهبة الموت. وتوقف قلب فكري عن الخفقان إلى الأبد..

المشهد الحادي عشر

ولا يبقى إلا وجه ربك ذو الجلال والإكرام

في الصباح اكتشفت شرطة المرور السيارة المحطمة المهشمة. اكتشفت الجثة الممزقة بعد الحادث بحوالي خمس ساعات. وتعرفت الشرطة على شخصية المتوفى من تحقيق الشخصية المؤقت الذي يحمله فكري في حقيبته السمسونايت، الذي صُرف له حتى يستطيع الحركة والذهاب إلى المستشفى، حتى تصدر له الأوراق الدائمة. نُقلت الجثة إلى المشرحة. وفي المستشفى تعرف عليه زملاؤه وأصدقاؤه. اتصل الدكتور فاروق مدير عام المستشفى بالدكتورة زينات. أبلغها أنه يريدها في مكتبه بالمستشفى لأمر هام. توقعت زينات الشر، كابوس ثقيل مرعب طوال الليل الطويل. وتناوبت عليها الهواجس والأحلام المزعجة. أرسلت المستشفى عربة الإسعاف لها، وقابلت المدير في غرفته. الدكتور فاروق كان يعرف جيدا علاقة زينات بفكري. أخبرها بلطف ورقة وفي صوت خافت. وسماء الحزن بادية عليه، والدموع تكاد أن تطفر من عينيه ولكنه تمالك نفسه. أخبرها بأن فكري قد وقع له حادث في الطريق من كوالالمبور إلى نجري سمبلان. وتهشمت سيارته إذ أنه كان يقود السيارة بسرعة جنونية في الطريق السريع، والطريق كان زلقًا لكثرة الأمطار، واصطدمت سيارته بشاحنة كبيرة وبشجرة ضخمة عملاقة. أصيب الدكتور فكري الزيني بجرح نافذ إلى القلب والصدر، والشرطة أحضرته إلى المستشفى، وأنها إذا أرادت فعليها الذهاب إلى المشرحة لإلقاء نظرة الوداع الأخير والتعرف عليه، حسب طلب الشرطة. وأخبرها أنه اتصل بالسفارة المصرية في كوالالمبور، وأخذ رأيها بخصوص طريقة الدفن، إذ أنه مسيحي الديانة. وسأل الدكتور فاروق الدكتورة زينات إذا كان لها رأي خاص بخصوص دفن الجثة. أو إرسالها إلى محافظة طنطا في مصر لدفنها هناك، أم أنها تفضل دفنها في ماليزيا.؟ أخبرته زينات بهدوء عجيب وهي تتمالك أعصابها ودموعها بصعوبة. أخبرته أنه من الأفضل الاتصال بالسفارة المصرية لكي يتصلوا بأهله في طنطا، وأن علاقته بها علاقة صداقة فقط، وأنها لم تتعرف عليه إلا في ماليزيا.

تمالكت زينات مشاعرها. سيطرت على نفسها بقوة إرادة فولاذية. جففت الدمع التي سال من عينيها. صدمة مرعبة لها، ونهاية لكل أحلامها آمالها في الحياة السعيدة. شعرت أنها ماتت معه، شعرت زينات أن روحها ماتت وتمنت أن تدفن معه في قبر واحد.

بل تمنت أن تُحرق وهي حية مع جثته، كما يفعل الهندوس والبوذيون، وأن يُنثر رمادُهما المشترك في مياه المحيط الأطلسي. وكانت تريد الصياح بدون جدوى، وكانت تريد الصوات بصوت عالٍ يصل إلى السماء، ولكنها لم تتمكن. كانت تريد إلقاء نفسها من الدور الثامن من حجرة المدير، ولكن لم يظهر على وجهها الجميل أي أثر لأي انفعال. تيبست ملامحها، وتجمدت تعبيرات وجهها، وأصابتها حالة ذهول وتوهان وفقد الوعي، وتحولت إلى حجر صوان جامد صلب لا ملامح له ولا تعبيرات. جفت عواطفها. جفت وذبلت شجرة حياتها. تيبس جسدها. ماتت العواطف في قلبها، ومن الحزن ما قتل. وقتلت روحها.

المشهد الثاني عشر

ا الدايم.. هو الدايم.. ولا دايم غير ا

ذهبت زينات إلى المشرحة لإلقاء النظرة الأخيرة. نظرة الوداع الأخير. رأته، كشفت عن وجهه. رأت الرجل الوحيد في حياتها الذي أحبته والذي فجر في حياتها وفي قلبها الحب. رأته، قبلته في كل مكان من جسده. قبلته في قدميه، في وجنتيه، في صدره. قبلته في كل مكان فيه أثر جرح. قبلته في شفتيه قبلات عميقة وعنيفة بالرغم من تهتكهما. فكت الصليب الذهبي من حلو عنقها، ووضعته حول رقبته المتهتكة. أخذت تبكي بدون توقف. أرادت أن تُدفن معه. رفضت مغادرة المشرحة إلا بالقوة. حضر مدير المستشفى الدكتور فاروق، لإخراجها ليعطي فرصة للطبيب الشرعي لعمل فحص تشريحي للجثة، حتى تتمكن المستشفى من دفنه. استمرت في البكاء الصامت. مع موت فكري مات الأمل الوحيد في حياتها، جفت وماتت شجرة وجودها. أقسمت في نفسها أمام جثة حبيبها أنها ستحافظ على ابنهما أو ابنتهما، وأنها لن تحب غيره من البشر ما دامت على قيد الحياة، وأنه أول رجل وأنه آخر رجل في حياتها. وأنها وهبته جسمها وأعطته روحها عن حب صادق وإرادة واعية، ولم تتمالك نفسها فهجمت على الجثة تعيد تقبيل جسده الدامي في كل مكان من جسده المتهتك والمصاب بجروح في كل مكان. وقبلته في كل كدمة أو جرح. فيضان الدموع انهمر من مآقيها. ارتمت على الجثة - بالرغم من مدير المستشفى والطبيب الشرعي- تحتضنها وكأنها تريد إعطائه حياتها، وكأنها تريد أن تهبه أنفاسها. سقطت مغشيا عليها في حجرة المشرحة، أصيبت بتشنج في كل عضلات جسمها، فقدت الوعي. فأُدخلت حجرة العناية المركزة. استمر فقد الوعي والغيبوبة ستة أيام. اشتبه أخصائي الأمراض الباطنية في إصابتها بحالة نزيف في المخ، ولكن بعد عمل الأشعة المقطعية ورسم المخ بالرنين المغناطيسي، تأكد أخصائي الباطنية أنها حالة انقباض في أوعية المخ Spastic encephalopathy وهي حالة مؤقتة من تشنج الأوعية الدموية في المخ، بسبب زيادة مفاجئة في ضغط الدم وقابلة للتحسن والشفاء التام. وفعلاً تم شفاؤها ونُقلت إلى قسم الأمراض الباطنية.

اتصل السيد الدكتور فاروق مدير عام المستشفى بسعادة سفير مصر في ماليزيا، وأخبره بالحادث الأليم، وبوفاة الدكتور فكري الزيني. أعطاه بالفاكس نسخة كاملة من تقرير الوفاة. ذهل السفير. صُدم صدمة كبيرة لسرعة مجرى الأحداث. وأخذ يردد بصوت خافت مقطعا من أغنية أم كلثوم: "يا نفس دنياك تخفي كل مبكية.. وإن بدا لك منها حسن مبتسمٍ". أرسلت المستشفى تقرير الطبيب الشرعي إلى السفارة المصرية. اتصل سيادة السفير تليفونيا بعائلة فكري الزيني بالإسكندرية. أبدت زوجته برودا عجيبا، ولم يبدو عليها أي علامات من الحزن، حتى أنها لم تتظاهر بالحزن أو الاهتمام بموت والد أبنائها. أخبرت سعادة السفير أنها لا تُعتبر زوجته أمام ا ، لأن الكنيسة أعلنت عليه الحرمان الكنسي وطُرد من رحمة ا ، وطُرد من رحمة الكنيسة شر طردة، وهو يستحق كل هذا، وأنها شرعا وقانونًا لا تعتبر زوجته، وأنها بريئة منه إلى يوم الدين. وحاولت السفارة أخذ رأي زوجته الجديدة زينات. حاول السيد السفير الاتصال أولاً بوالد فكري أو أخواته، ولم يتمكن من الاتصال

بعائلته في الإسكندرية. وكذلك فشل في الاتصال بالدكتورة زينات، لأنها كانت في حالة غيبوبة. فكـر السـفير طويلاً وأطال التفكير، أبلغ المستشفى رسميا أنها تملك حرية التصرف في دفنه كما تشاء، حيث رفـض أهلـه استلام الجثة، ورفضت زوجته الشرعية استلامها. والدكتورة زينات في حالة لا يمكن فيها أخذ رأيها. وأخبـر السفير الشرطة أن أقاربه جميعا لا يرغبون في استلام الجثة أو القيام بدفنها، أو حتى اسـتقبالها فـي المطـار. وطبعا شركة الطيران رفضت استلام جثة ليس لها صاحب، ورفضت الكنيسة في ماليزيا القيام بمراسم الـدفن المسيحية، إذ أن فكري الزيني عبر للكثيرين أنه لا يؤمن بأي دين وخاصة الدين المسـيحي، إذ أنـه علمـاني التفكير، وأنه اكتشف أن الإسلام هو أقرب الأديان إلى العلمانية والعقلانية. وأنه كان يسعى لاعتناق الإسـلام، ولذلك اعتذرت الكنيسة عن القيام بمراسم الدفن الكنيسة لدفنه في مقابر الكنيسة. وقرر الدكتور فاروق مدير عام المستشفى دفنه حسب الطقوس الإسلامية، حيث إن الدكتور فكري الزيني قد أعلن عن رغبته في اعتناق الـدين الإسلامي، إذ أن الإسلام في نظره الدين الوحيد الذي يملك القدرة والحيوية للتعايش مع العصر العلمي. إذ أنـه مبني على العقلانية والعلمانية، وهو دين عملي براجماتي له قدرة التعايش مع العصور الحديثة، وما بهـا مـن مستجدات. ولقد اتصلت الهيئة الشرعية الإسلامية بإدارة المستشفى وأخبرتهم بأن لديها طلـب مـن المرحـوم فكري الزيني المصري الجنسية بأنه يرغب في إعلان إسلامه، وقدمت زوجته الدكتورة زينات طلبـا رسـميا بإعلان إسلامها، وبذلك يعتبر عقد زواجهم عقدا شرعيا حسب الشريعة الإسلامية، وهذه الطلبات قدمت للهيئـة الشرعية الإسلامية منذ شهر، وعلى هذا يجب دفن الدكتور فكري الزيني حسب طقـوس وتعليمـات الشـرع الإسلامي؛ لأن عقد نكاحهما سليم من وجهة النظر الإسلامية، ولا يجوز إخضاعهما في الممـات والحيـاة لأي دين غير الدين الإسلامي. وافق السفير المصري على هذا الإجراء. واعتذر عن عدم إمكانه حضـور الجنـازة وقال سيادته: "الخير فيما يختار ا . وهذه هي إرادته ومشيئته عز وجل".

دُفن فكري حسب طقوس ومراسم الشرع الإسلامي. وصلى عليه المسلمون في الجامع الكبير فـي نيجـري سمبلان Negri Sembilan ودفن في مدافن الصدقة، حيث يدفن من لا أقارب له أو جذور. نقلت الجثـة إلـى المدافن الإسلامية بسيارة الموتى السوداء الكبيرة. لم يحضر إلا العدد القليل للجنازة. الكثير من زملائه قـاطعوا الجنازة. الرحمة والسماحة ماتت في قلوب الناس. قاطعوا الجنازة بسبب السمعة السيئة التي أحاطـت بموتـه، والعلاقة الغير شرعية التي ربطته بالدكتورة زينات زميلته وخطيبة زميله أخصائي التخدير. هذه العلاقة الغيـر شرعية التي تحدث ما تعارف عليه المجتمع من قيم وتقاليد. قاطعوا فكري حيا وقاطعوه ميتًا. لم يحضر الجنازة إلا الدكتورة فاطمة الدسوقي والدكتور موريس والقليل من موظفي المستشفى الهنود، الذين أخذتهم الرحمة بـه والرثاء له والشفقة على الدكتورة زينات. شاركت زينات في كل الطقوس الإسلامية. رافقت الجثمان حتى مثواه الأخير. استأجرت زينات بعض الفقهاء ليرتلوا على قبره بعضا من آيات القرآن الكريم.. وعادت زينـات إلـى الجناح الذي أقامت فيه هي وفكري في فندق البحيرات السبع لتواجه الحياة لوحدها. وتواجه مصيرها المرعـب في جناحها. وعاشت في وحدتها القاسية، في عشها الهادئ، عش الحب والسعادة الذي بنته مـن القـش فـوق السحاب. فوق قمم الأشجار العملاقة، عشها الذي تناثر إلى شظايا بسرعة مخيفة عنـد هبـوب أول عاصـفة مدمرة، عش الحب الذي تعاونت معهم العصافير والطيور في بنائه، وكل شيء ذهب إلى الريح وكـل شـيء ذهب أدراج الريح. أما الزبد فيذهب جفاء، أما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض.

منحتها المستشفى أجازة لمدة أسبوعين للنقاهة، ولم يواسِها أحد، الجميع قاطعوها، ابتعدوا عنها، تجنبوها كما يتجنب الناس المصابون بالجُذام، ما عدا الدكتورة فاطمة. حاولت فاطمة إقناعها بإجهاض الحمل، وبخاصة أنه في الشهور المبكرة للحمل، وقد وافق رئيس قسم النساء على القيام بعملية الإجهاض، وإنهاء الحمل، والقانون في ماليزيا يبيح عملية الإجهاض لأسباب نفسية. زينات رفضت بكل عناد توسلات صديقتها فاطمة. صممت زينات على الاحتفاظ بالجنين قائلة لفاطمة: "ابن أو بنت فكري.. إزاي أتخلص منه. إزاي اقتله. ده مستحيل"... رفضت الإجهاض بشدة، واستمر الحمل في التقدم. فضلت زينات الانزواء والوحدة مع أفكارها، وفضلت رفقة الحزن في صمت. تجنبت الزيارات، تجنبت حفلات المستشفى الاجتماعية، وتجنبت - أيضا - حضور الاجتماعات الأسبوعية الدراسية الإكلينيكية التي تُعقد أسبوعيا في قاعة المحاضرات، لزيادة المستوى الطبي لدى الأطباء الجدد، والتي في الماضي كانت في غاية الحرص على حضورها، للحفاظ على مستواها العلمي. وانفردت زينات مع أحزانها. وانفردت مع الحياة الجديدة التي انبثقت في أحشائها. فضلت الوحدة مع نفسها.. استسلمت للتأمل والتفكير العميق. حاولت البحث عن معنى للحياة؟. هذه الحياة العجيبة العابثة التي لا تنفك تعبث بالكائنات.. أخذت زينات تتأمل مسرح الحياة المتنوع الأشكال والألوان، تقضي الساعات وحيدة في شرفة الفندق المطل على الحدائق الاستوائية التي تمتد إلى المحيط الأطلسي. المحيط الهادر اللانهائي. تتأمل القدر الذي يخلق إنسانًا رائعا ويجيد خلقه وسبكه، ثم يدمره في لحظات؟ القدر الذي ينشئ حضارة رائعة ثم يدمرها في لحظات، بل في ثوانٍ؟. أين الحضارة المصرية الفرعونية التي امتدت آلاف السنين؟. مصر مهد الحضارة الإنسانية كما قال المؤرخ هيرودوت. أين الحضارة الإغريقية التي كانت منبع العلم الحديث؟.. القدر الذي يخلق مجرة كونية في بلايين السنين ثم يحطمها بدون أية رحمة.. ما معنى الوجود؟ هل نحن موجودون أم لا.؟. البناء والهدم هما القانون الأساسي لكل الوجود. البناء والهدم أحل أجسامنا. البناء والهدم داخل عقولنا، البناء والهدم في كل مظاهر الوجود. هل الحياة لها أي معنى؟ هل الأديان لها أي مغزى؟ هل ا موجود؟ هل ا من خلق خيالنا؟ هل الأديان والمعتقدات الدينية ليست إلا أساطير صاغها خيال إنسان العصر الحجري القديم؟. هل هناك حياة أخرى؟ هل هذه المعتقدات ليست إلا مجرد أوهام وأساطير وخرافات؟ كادت زينات أن تفقد توازنها العقلي واستقرارها الروحي، وأخذت الدكتورة زينات تتأمل مسرح الحياة المتنوع الخلاق، وما الحياة إلا مسرح كبير، مسرح الحياة الذي يُخرج المآسي فيبكي الناس، والذي يُخرج الملهاة فيضحك الناس. وما نحن إلا قطعا شَطَرَنْجِية يحركها اللاعب على رقعة الشطرنج، أو على رقعة الحياة السرمدية اللانهائية. وأخذت زينات تتأمل قانون الهدم والبناء، القانون السائد في كل مجالات الوجود، الذي درسته في علم الفيزياء. القانون الوحيد المطلق في الحياة، في المجتمع، في الوجود ذاته في الكون اللانهائي. أخذت تبكي بصوت خافت وتردد قول الشاعر أحمد شوقي:

"ضحكُ الدنيا احتشاد للبكاء

وأغانيها مُعداتُ الأنين..

إنما الدنيا شجون تلتقي

وحزين يتأسى بحزين.."

أصيبت زينات بصدمة نفسية وعقلية شديدة. عرضتها إدارة المستشفى على كبير أخصائيي الأمراض العقلية في العاصمة كوالالمبور، الذي شخصها "حالة اكتئاب حاد والرغبة القاهرة لتدمير الذات والانتحار" وأخضعها لعلاج مكثف من الصدمات الكهربائية والعقاقير والجلسات النفسية، وعلاج الصدمات الكهربائية قد قل استخدامه حاليا في علاج الأمراض العقلية، نظرا لآثاره الضارة على هيكل الشخصية وتأثيره الضار على تركيب خلايا المخ ذاته. وعادت زينات إلى عملها، وعادت زينات إلى غرفتها في فندق البحيرات السبع لصاحبته الصينية مسز يونج Mrs. Young. وكانت زينات تقضي أوقاتها بعد الانتهاء من عملها في المستشفى، في السير والتجوال في أروع حدائق الدنيا - حدائق البحيرات السبع - في صحبة السيدة الطيبة مديرة الفندق الصينية والتي لا تعرف الإنجليزية إلا بصعوبة، ولكن نشأت علاقة صداقة ومحبة بينهما بالرغم من الفجوة الثقافية، ولكن لم تتمكن الدكتورة زينات من الهروب نهائيا من ذكريات وفاة الدكتور فكري الزيني؛ فهي تتذكر دائما الفقهاء الذين استأجرتهم لتلاوة القرآن على قبر فكري، قبر الصدقة في مقابر الفقراء والمعدمين والمساكين. نعم لقد مات حبيبها فكري، فكري الذي أحبته بكل روحها وجسمها. نعم لقد مات أروع الرجال الذين قابلتهم في حياتها. وهذا ليس من صنع وخلق خيالها العبقري. لقد بدأت تقتنع بموته حقًا وصدقًا. وفعلاً لقد دفنت جثته في مقابر المساكين. وطوبى للمساكين فإنهم سيرثون الأرض وما عليها. وأخذت تكرر قول رسول الإسلام الكريم: " اللهم أحيني مسكينًا وأمتني مسكينًا واحشرني في زمرة المساكين"... نعم لقد مات فكري حقًا وصدقًا. موته ليس وهما ولا خيالاً. نعم مات ودفن مع أصدقائه المساكين. فإنه سيرث معهم الأرض وما عليها كما قال السيد المسيح: " طوبى للمساكين فإنهم سيرثون الأرض وما عليها".

وفي تجوالها في حدائق البحيرات السبع مع صديقتها الجديدة المسز يونج Mrs. Young كانت دائما تتغنى وتنشد مع الفقهاء: (ا الدايم. هو الدايم. ولا دايم غير ا .) وكانت زينات تقوم بترجمة هذه الأناشيد الدينية إلى السيدة الصينية.. (ا الدايم.. هو الدايم.. ولا دايم غير ا ..). وأخذت تتغنى بهذه الإيقاعات الفلكلورية المصرية والدموع تسيل من عينيها فيضانًا وأنهارا. وكانت المسز يونج صديقتها الصينية تردد بلغةٍ إنجليزية ركيكة كلمات شكسبير أعظم شعراء البشرية على الإطلاق في مسرحية عطيل: (الحياة قصة رواها معتوه. الحياة قصة رائعة رواها معتوه.) وكانت زينات ترد عليها: صدقَ الشاعر وليم شكسبير. حقًا الحياة قصة رواها معتوه. (Life is a story told by a fool).

* * *

المشهد الثالث عشر

الميلاد الجديد لزينات

لا مكان للضعفاء ولا رحمة للمساكين في هذا العالم

أرسل لها الشيخ زهران المفتي الديني في ولاية نجري سمبلان الاستمارة الرسمية للدخول في ديانة الإسلام. أخذت الاستمارة. قطعتها إربا إربا. فقدت الاهتمام بالدين الإسلامي أو بأي دين. هي أصلاً لا تؤمن بما وراء الطبيعة. ولا تؤمن إلا بالفلسفة العلمية التجريبية التي نقلت أوربا من القرون الوسطى إلى عصر الكمبيوتر والفضاء من عصر الخرافة والأساطير إلى عصر العقل والعقلانية، حيث لا سيد للعقل إلا العقل ذاته. فقدت زينات أي اهتمام جدي بالطقوس الدينية التي تعتقد في أعماقها أن هذه الطقوس الدينية الجماعية خلفها خيال الإنسان العبقري، ليعبر بها عن الوجود المطلق، كما شعروا به في العصور البدائية البربرية الأولى في تاريخ بني الإنسان. أخذت تتساءل في نفسها؟ أين العدل الإلهي؟ أين الرحمة الربانية؟ ملايين الفقراء يموتون جوعا؟ الضعيف لا مكان له في هذا العالم؟ الوجود هو القوة والقسوة والعنف؟ لا مكان للضعفاء. ألم يستعبد الجنس الأبيض الجنس الأسود..؟ ألم يخطف الرجل الأبيض الإفريقيين من إفريقيا ويتاجر فيهم ويربيهم كما تربى الحيوانات في المزارع في أسبانيا كما جاء في قصة الجذور؟. ويتاجر في العبيد كما يتاجر الإنسان في المواشي والحيوانات. ألم يقتل هتلر النازي القوي ملايين الضعفاء اليهود بطرقٍ مختلفة. ألم يستعبد الرجل الأبيض كل شعوب العالم قاطبة. لأنه يملك مدفعا وبندقية وسلاحا أقوى. ألم يسرق الرجل الأبيض ثروات شعوب العالم ويؤسس به أعظم حضارة في التاريخ البشري؟. ألم يقضي الجنس الأبيض الأوربي على الجنس الهندي الأحمر في أمريكا.؟ ألم يقضِ على ملايين الهنود الحمر. لماذا؟ لأنه يمتلك سلاحا أقوى، لأنه امتلك بندقية ومدفعا أضخم. وذلك بفضل امتلاكهم العلم الحديث الذي لم يساعد على تنمية إلا القوى المادية لبني الإنسان؟. واليهود الضعفاء عندما نجحوا في السيطرة على العلم الحديث واحتكروا العلم والإعلام والمال في العصر الحديث؟ ماذا فعلوا للعرب؟ ماذا فعلوا للفلسطينيين؟ ألم يخربوا حياتهم ويستولوا على أراضيهم ويدمروا حضارتهم. باسم أسطورة مضحكة من أساطير العصر الحجري القديم؟ إن ا قد وعدهم بهذه الأرض إرضاء للنبي موسى؟ وقد وصلت إلى قناعات خاصة بها. ومنها أن المجتمع الإنساني هو الخالق لهذه الأساطير، خلقها خيال الإنسان العبقري. وعبد الإنسان الأسطورة التي خلقها خياله. القسوة هي الإيقاع الوحيد والرئيسي في مجالات الوجود المتنوعة؟ ألم تطرد الكنيسة الدكتور فكري وهو زينة الرجال من رحمتها أعلنت عليه الحرمان. ألم تدمر الشاحنة القوية حياة فكري وسعادته.؟ وقضت على كل آمالها في الحياة الإنسان به السعيدة.؟ فقدت زينات - وهي طالبة في كلية الطب - الإيمان بما وراء الطبيعة وبالغيب. آمنت بالتطور العضوي للكائنات. آمنت بنظرية التطور الخلاق لدارون - أي البقاء للأقوى- ولا مكان للضعفاء في هذا العالم. آمنت زينات بالوجود المادي والوحدة العضوية المادية والتنوع المادي للكائنات. وفقدت إيمانها بوجود الروح والعالم الروحاني، إلا في أوهام إنسان العصر الحجري القديم، واتخذت من الفلسفة العلم التجريبي نبراسا لها ومنهجا لتفكيرها.

وامتنعت عن الذهاب إلى الكنيسة منذ زمان طويل. أخذت تفكر في حاضرها الأليم، كيف قاطعها زملائها، كيف أعلن أهلها التبرؤ منها وفصلوا روابطهم الأسرية بها عندما علموا بفسخ علاقتها بخطيبها وأنها تعتـزم الاتخاذ الإسلام دينًا لها ومنهجا في الحياة. كل هذا بسبب قصة حب. لا مكان للحب الصادق في هذه الحيـاة. ألم يقاطعها كل زملائها. ألم تشعر أن كل أحاديثهم تدور حولها، الجميع ساخطون عليها. لماذا كـل هـذا إلا أنها أحبت فكري. الجميع نسجوا حولها ستارا من السخط والحقد والنفور والقسوة. شعرت بالقسوة في تعاملها مع زملائها وأصدقائها القدامى. وما الحياة إلا لحظات من القسوة والحقد والصراع. لا مكان للضعفاء في هذا العالم. لا مكان للمساكين في الحياة على كوكبنا الأرضي.

من لندن كتب لها خطيبها أنيس بأنه سمع من زملائها بما دار حولها من شائعات، وأنه يتبرأ منها، وأخطر الكنيسة بفسخ التعاقد معها، فسخ نصف الإكليل الذي عقد في كنيسة كليوباترا بمصر الجديدة. وأنه يحمـد ا على أنه نصف إكليل فقط، إذ أنه يجوز التراجع عنه، وأنه أخطر جميع أصدقائه وزملائه بما أقدم عليه مـن فسخ نصف الإكليل وأن الكنيسة وجناب البابا قد وافق على هذا الفسخ، وأنه قد ارتبط فعلاً بزميلة لـه فـي القسم الإنجليزية من أصل يهودي. وشعرت زينات بالسعادة البالغة لخطاب خطيبها السابق المسـجل الـذي حررها من كل القيود والارتباطات. وبذلك تحررت من الماضي وما يمثله لها من هواجس. إنها أصبحت - تماما - حرة. بدون أي قيود اجتماعية. وشعرت أنها أشبه بسفينة الفضاء التي خرجت من نطـاق الجاذبيـة الأرضية. أصبحت غير خاضعة لأي قيود تلزمها الضرورة الاجتماعية، وأنها أصبحت خاضـعة لقوانينهـا الشخصية فقط ودوافعها الذاتية. أصبحت زينات امرأة بلا قلب. دفنت قلبها في مدافن الصـدقة فـي مقـابر المساكين. التي دفن فيها الدكتور فكري الزيني. نعم.. الحياة قصة عجيبة رواها معتوه كما قال شكسبير فـي مسرحية عطيل. الدكتور فكري الزيني في حياته خدم الضعفاء والمساكين وأبناء السبيل، قدم حياته وفنه للذين فقدوا جذورهم، وفي الممات دُفن معهم وقبلوه بينهم في مدفنهم واحتضنوه في عناق أبدى، إذ أنه في جوهره وروحه من الحرافيش من المساكين الذين سيرثون الأرض وما عليها. سيرثون ملكوت السماوات مـا قـال السيد المسيح.

وكل هذه الأفكار جرت في خيالها وهي جالسة في حدائق البحيرات السبع. ترتشف في هدوء كوبـا مـن عصير الليمون في الجو الحار الاستوائي. أما شجرة الحب التي ولد في قلبها ونمت وترعرعت في روحهـا، والذي أشعل فكري جذوتها، أمدها بعصير الحياة، وساعد بحيويته في ازدهارها. الحب للحياة من أجل الحياة Vivre pour vivre. الحب لكل البشرية. الحب لكل الناس. الحب لكل مظاهر الحياة بكل أنواعها المتنوعة والمختلفة بالرغم من وحدتها العضوية ووحدتها المادية. شجرة الحب هذه ذبلت وجفت وماتت. روحها ماتت. دفنتها في قبور المساكين مع حبيبها فكري الزيني. القسوة التي أحيطت بها من كل الناس ومن أصدقائها ومن رجال السفارة المصرية الذين سخروا منها ومن إدارة المستشفى ومن كنيستها ومن خطيبها، كل ذلك قتل فيها أجمل ما في الإنسان؟ قتل أزهار شجرة الحياة، أزهار الحب والإيمان والخير. ورددت قـول عيسـى عليـه السلام رسول الحب والخير والسلام: "وماذا يربح الإنسان لو كسب العالم كله وخسر نفسـه.. مـاذا يـربح الإنسان لو ربح العالم كله وخسر ذاته؟. وقبل الكسر يكون الكبرياء، وقبل الكسر يكون الشـموخ. وأصـابها

الكبرياء في مقتل. أصابها الشموخ في صميم وجودها. ولكن كيف تواجه الحياة بمفردها. الشيء الوحيد الذي يمنعها من ارتكاب حماقة قتل النفس هو الحياة الجديدة التي تتحرك في أحشائها. الشيء الوحيد الذي منعها من الانتحار وقتل الذات وإنهاء القصة كلها هو الحياة الجديدة التي فجرها فكري الزيني في وجودها. الذي ساعدها في التغلب على إرادة تدمير الذات هو البيئة الخضراء الصغيرة التي تنمو في روحها، والتي زرعها فكري في أحشائها.

وتحولت زينات إلى حية رقطاء. هل حقًا ما يقوله الطب عن مرض ازدواج الشخصية.؟ هل حقًا ما تقوله قصة الدكتور جيكل ومستر هايد: (إن كل إنسان منا داخله شخصية شريرة جدا وقاسية إلى أبعد الحدود). شخصية شريرة مدمرة تسيطر عليها شهوات التملك والجنس والعنف، وشخصية أخرى لا علاقة لها بالشخصية الشريرة الشهوانية القاسية. والشخصية الثانية الكامنة في عقل الإنسان، الشخصية الطيبة الخيرة الرحيمة المؤمنة التي تزرع شجرة الحب والخير في كل مكان. وعند تعاطي عقاقير معينة أو في ظروف قاسية معينة؛ تظهر الشخصية الشريرة الشهوانية المدمرة. وعند استعمال عقاقير معينة أو في ظروف معينة تظهر الشخصية الكريمة الطيبة المحبة لكل أنواع الحياة الخالدة. ومأساة الإنسان في تواجد الشخصيتين في كيانه الواحد وفي قلبه وعقله. نعم تحولت زينات إلى وحش مفترس ودخلت حلبة الملاكمة. دخلت حلبة المصارعة. وصممت على الانتصار في حلبة الحياة. ُولدت الغوريلا القبيحة كثيفة الشعر في وجودها ذاته، في أعماق روحها الطيبة. أقسمت زينات في نفسها عندما قاطعها الناس جميعا أن تقتل كل عاطفة نبيلة في قلبها. الحب الوحيد الباقي لها هو حبها لفكري. فكري الذي أعطته كل شيء. فكري الذي وهبته جسدها وأعماق روحها شجرة الحب والحياة التي زرعها في أعمق أعماقها. مازالت تنمو في أعماقها. أي اقتراح بإجهاض الجنين قاومته بشدة وعنف. وفي هذه اللحظات الحاسمة والمتناقضة في وجودها أقسمت لنفسها أنها ستعيش من أجل جنين فكري الذي ينمو في أحشائها. نعم ستعيش له وستحيا من أجله. أما باقي البشرية فلن يروا منها إلا القسوة والحقد والعدوان. وهذا القسم الذي ولد في حدائق البحيرات السبع. التي تطل على المحيط الأطلسي اللامتناهي. شهدت عليه الأشجار العملاقة التي تحيط بها من كل جانب. والقرود التي تتسلق وتلعب فوق الأشجار وتقذفها بثمار الجوز اللذيذ الطعم. كل الكائنات وحتى الزهور والطيور والعصافير شاهدت موت زينات العذراء الدافئة ذات القلب الطري الأخضر. زينات التي أعطت للحب كل وأعز ما تملك. الكائنات جميعها شاهدت مولد زينات الجديدة، حتى الطيور والعصافير التي ساعدت زينات في بناء عش الحب والسعادة شاهدت موت قلب مملوء بالحنان والحب والدفء، وشاهدت مولد الغوريلا الدميمة الكثيفة الشعر من أعماق وجودها وكيانها وروحها. ماتت الفتاة الطاهرة الشفافة العذراء مع موت الحب في روحها. ومع قتل بهجة الحياة المقدسة في عقلها الباطن. وولدت المرأة الأفعى، الحية الرقطاء ذات الفحيح المرعب المخيف الذي يُسمع في كل الدهور والأزمان. المرأة التي باعت روحها للشيطان. وعاشت زينات الجديدة بقية حياتها ترقص وتتعبد في معبد الشيطان الرجيم وإبليس اللعين. وأخذت زينات تردد في أعماقها: وما الحياة إلا قتال الإنسان والجن في القلب والروح. وعاشت زينات بقية عمرها راهبة تتعبد في معبد إبليس اللعين الذي لعنه ا عز وجل إلى يوم الدين.

المشهد الرابع عشر
مقابلة الدكتورة زينات
مع قطب من أقطاب الشركات العالمية العملاقة
المتعددة والمتعدية الجنسيات والقوميات

واجهت زينات الحياة بمفردها. الأيام الأخيرة من الحمل كانت مزعجة جدا، ولكنها مرت بسلام. تمت الولادة في قسم النساء في مستشفى نجري سمبلان Negri Sembilan. اضطر أخصائي النساء لإجراء عملية قيصرية، إذ كانت رأس الجنين كبيرة بالنسبة لاتساع الحوض. وتمت العملية بنجاح، طفلة شقراء جميلة زرقاء العينين أسمتها ميريام. وفي خانة الوالد سُجلت باسم الدكتور فكري الزيني عطا ا ، حتى بدون أخذ رأي زينات. الجميع في المستشفى أحاطوا زينات بالنفور وابتعدوا عنها. والمجتمع دائما أبدا يقف موقف العداء لمن يخالف العرف والتقاليد الاجتماعية. رفضت ميريام الرضاعة الطبيعية من ثدي أمها وفضلت الرضاعة الصناعية. منحت إدارة المستشفى زينات إجازة وضع. أهملها زملاؤها، حتى فاطمة تكاسلت عن المرور المنتظم على صديقتها. وتدريجيا تباعدت الزيارات ثم انقطعت نهائيا. ويلٌ للضعفاء. ويلٌ للمهزومين. الفريق المصري في كل أنحاء ماليزيا وصلت إليه أخبار زينات وفكري. شعروا بالسمعة السيئة التي أحاطت بهما. خرجت زينات شافية معافية من المستشفى واستمرت في حياتها في فندق البحيرات السبع. كانت خبرتها في العناية بالأطفال بسيطة جدا ومحدودة. تعاطفت معها المسز يونج Mrs Young مديرة الفندق. وساعدتها في رعاية ميريام. حيث إنها عندها خبرة طويلة في تربية الأطفال، وهي أم لعشرة أولاد وبنات. الصينيون يحبون كثرة الإنجاب. وبالرغم من كل الصعوبات، فقد جلبت ميريام السعادة والبهجة لقلب زينات. ودارت الأيام ومرت الليالي. انتهت إجازة الوضع. ذهبت زينات إلى المستشفى لاستلام راتبها الشهري من صراف المستشفى. رفضت المستشفى إعادتها إلى العمل، إذ أن الوزارة قد أخبرت المستشفى بخطابٍ رسمي بأنه تم إنهاء عقد العمل معها بناء على رغبة الحكومة المصرية. وبكل هدوء استلمت زينات خطاب الفصل من العمل. وأخذت تذكرة الطيران للسفر إلى مصر. وبدون أي تردد ذهبت إلى شركة الخطوط الماليزية، وطلبت إضافة سيدني في أستراليا إلى تذكرة الطيران. أخبرتهم كذبا أن خالتها تعيش في سيدني. ذهبت إلى الوزارة واستلمت راتبها وكل مستحقاتها. كان لها مرتب شهر ونصف علاوة على الشهر الحالي.

* * *

المشهد الخامس عشر
المقابلة مع المستر هيو رجل الأعمال الشهير
في جنوب شرق آسيا

وبناء على نصيحة المسز يونج Mrs Young مديرة فندق البحيرات السبع وصديقتها. أخبرها المستر هيو Mrs. Huo. وهو رجل أعمال صيني مشهور في منطقة جنوب شرق آسيات، وهو المدير الفني والمستشار المالي للبنك التجاري الدولي في جنوب شرق آسيا، ومستر هيو له جناح خاص في الفندق، وهو صديق قديم لمسز يونج. أخبرها المستر هيو MRS Huo. في أول تعارف معها في شرفة فندق البحيرات السبع أن أستراليا في أشد الحاجة إلى أطباء في كل الفروع، وأنه يستطيع مساعدتها في العمل هناك - كما أرادات - لأن البنك التجاري الدولي الذي يرأسه له فروع عديدة في كل مدن أستراليا. ومستر هيو كان يشغل الجناح المجاور لغرفتها في نفس الفندق التي تقيم فيه وإدارة الفندق تحجز له جناحا كاملاً طوال العام. أخبرها أنه على أتم الاستعداد لإعطائها خطاب توصية لأصدقائه الكثيرين في استراليا، والذين يشغلون مناصب هامة في قطاع الأعمال في استراليا، والذين لهم نفوذ قوي هناك.

عند عودتها إلى فندق البحيرات السبع، ذهبت إلى صديقتها المسز يونج. امرأة صينية الأصل. قصيرة القامة بشكل ملحوظ. تتكلم الإنجليزية بصعوبة بالغة. وبرطانة خاصة بمنطقة جنوب شرق آسيا. وطلبت منها تحديد موعد لمقابلة المستر هيو، لأنها قد عقدت العزم على السفر إلى أستراليا. وأنه قد وعدها بمساعدتها في تحقيق حلمها في العمل في استراليا، إذ أنها عزمت على عدم العودة إلى مصر بلادها عند إنهاء تعاقدها مع الحكومة الماليزية. وأنه قد أبدى لها رغبته في مساعدتها.

وذهبت الدكتورة زينات إلى حجرتها. وأخذت في ترتيب أشيائها وحقائب السفر وجهزت وجبة الغذاء لميريام. وساعدتها مسز يونج في ترتيب حقائبها، لأنها تعاطفت معها وخاصة عندما شعرت بأن المستر هيو متعاطف جدا معها لأسباب لا تدركها. ومستر هيو من الأثرياء الكبار ولا تستطيع إهمال أي رغبة من رغباته، مهما تكن نوع هذه الرغبات. زينات كانت متعبة جدا. تناولت حبة فاليوم ٥ مجم ونامت نوما عميقًا بدون أحلام مزعجة ولم تتخللها أي كوابيس مرعبة. بكت ميريام بشدة وصرخت صراخًا عاليا من الجوع والبلل. مسز يونج كانت في غرفة مجاورة وسمعت صراخ الطفلة العالي. أخذتها الرأفة بميريام - وطبعا لديها مفتاح يفتح جميع الحجرات Master Key - فتحت به باب غرفة زينات. لم تشعر بها زينات. سيطر عليها سلطان النوم. بهدوء أخذت الطفلة في أحضانها. إلى غرفتها الخاصة بها. أطعمتها الوجبة التي أعدتها لها. غيرت لها ثيابها المبتلة وشعرت مسز يونج بعمق مأساة الدكتورة. وبعد توقف ميريام عن البكاء أرجعتها إلى حجرة أمها.

* * *

المشهد السادس عشر
عِش في خطر، المغامرة روح الحياة
ومن لا يملك روح المغامرة فهو الحي الميت

في الحادية عشر صباحا قابلت زينات مستر هيو في جناحه الخاص - بناء على طلبه - أخبرته بأنها أصبحت بدون عمل. فسخت الحكومة التعاقد معها. طفرت الدموع من عينيها الجميلتين. أخبرته بصوت ضعيف يكاد لا يسمع أنها حجزت تذكرة طيران للسفر إلى سدني للعمل في أستراليا. وأن معها شهادات الخبرة الخاصة بها التي قد تساعدها للعمل هناك كطبيبة.

مستر هيو في أواخر الستينات من عمره. يُعتبر من أغنى أغنياء منطقة جنوب شرق آسيا. كتب لها خطابات توصية إلى بعض أصدقائه المقربين إليه هناك. قال لها في لكنةٍ إنجليزيةٍ ركيكة وبرطانة صينية: "الحياة ما هي إلا موقف تحدٍ. عِش في خطر. المغامرة روح الحياة.. ما لم يُتمن يزيدني قوة. واجهي المخاطر. ده هو الشعار اللي جعلته نبراس حياتي ولم أندم عليه أبدا. الواحد ضروري يتحدى الهزيمة. بدون هزيمة لا يوجد انتصار. الواحد ضروري يخربش. اللي عاوز ينجح في معترك الحياة لا بد له من الخربشة. الحياة بتعطي اللي يتحداها ويخربش فيها". وبارك خطواتها وأعجب بشجاعتها. وقال لها: "من لا يغامر لا يعيش ولا يتذوق روعة الحياة المباركة" وعبر لها عن إعجابه الشديد بقدرتها على مواجهة تحدي الحياة. أعطاها هدية إلى ابنتها ميريام جنيها من الذهب الخالص عليه صورة الملك جورج. تناولت العشاء على مائدة المستر هيو في جناحه الخاص.

هيو : المغامرة يا دكتورة هي روح الحياة. بل هي جوهر الوجود. لا حياة بدون مواجهة المصاعب والأخطار. أمريكا سادت على كل شعوب الأرض والقوميات المختلفة بفضل روح المغامرة. وليس بأي عامل آخر.

زينات : أنا شاكرة تعاطفك معي. أنا في موقف صعب جدا. أخبرتني السيدة مديرة الفندق بأنك عرفت ظروفي المريرة التي مررت بها. وعرفت منها أنك متعاطف معي. ولا مانع لديك في مد يدِ المعونة لي، وإنقاذي من غرق محقق. وترغب في انتشالي من ورطتي بعهد تنكر عائلتي لي، وتنكر زملائي لي، وإعلان الكنيسة حرمانها لي من كل الحقوق المدنية. حتى خطيبي في لندن قد أعلن فسخ علاقته بي. لذا التجأت إليك واحتميت بك من الإعصار الذي يكاد يعصف بحاتي.

هيو : حياتي كانت صعبة جدا. لكن لذة الحياة هي في مواجهة الصعاب والتحديات اللى بتُفرض علينا. قامت الثورة الحمراء في الصين. قتلوا كل أفراد عائلتي. هربت بجلدي من هناك. لا مال ولا أقارب ولا أصدقاء. صادرت الحكومة الشيوعية كل ما نملك من مال وعقار. بدأت الحياة هنا في ماليزيا من مستوى الصفر. نعم بدأتها من أحط الأعمال. اشتغلت كادي. عارفة يا دكتورة يعني إيه الكادي؟! هو الصبي اللي بيجمع الكور في ملعب الجولف. فأصابتني كورة

الجواف في عيني اليُسرى. وفُقد البصر في عيني اليُسرى. طردوني من نادى الجولف. ذهبـت للعمل في البلدية للعمل في تنظيف الشوارع. لم يكن لي بيت أنام فيه أو زوجـة أعـود إليهـا. عملت قوادا عند عاهرة تُدعى مسز تان. الدعارة في الصين كانت من الأعمال المحترمة قبـل الثورة الشيوعية. وقعت المسز تان في حبي وعشقتني. بعد الانتهاء من العمـل تعـودتُ علـى مشاركتها نارجيلة أفيون. ثم نستمتع بممارسة الحب حتى الصباح.

أثناء هذا الحديث الممتع الهادئ. دقت المسز يونج على الباب مستأذنة في الدخول. فتحت لهمـا زجاجـة شمبانيا. كان قد طلبها المستر هيو. لم تشاركه الدكتورة زينات الشرب، بل جلست تستمع إليه وهي مبهـورة بقصة حياته العجيبة، وكيف ارتفع من صبي (كادي) يجمع الكور في ملعب الجولف). إلى أغنى أغنياء فـي المنطقة. في جنوب شرق آسيا. يملك سلسلة من السوبر ماركت، ففي كل مدينة تقريبا يملك سوبر ماركـت. وهو قصير القامة، عريض المنكبين. له عينان في لون القطط السيامي تشعان بالمكر والدهاء. ورأس أصـلع بالكامل، ولا حتى شعرة واحدة.! استمر المستر هيو في الشرب بتلذذٍ عجيب ومتعة عميقة. عزم عليها للمرة الثانية لمشاركته الشرب ولكنها رفضت، إذ أنها اعتقدت أن الخمر هي السبب في كل مـا حـاق بهـا مـن مصاعب ومصائب. وأنه لولا الخمر لما حدث لحبيبها ما حدث.

المستر هيو : حاليا أنا صاحب أكبر أوسع سلسلة المحلات التجارية المنتشرة في جميع أنحاء العالم وخاصة في جنوب شرق آسيا. وكذلك أمتلك العديد من فنادق خمس نجوم المنتشرة فـي كـل عواصـم العوالم. العالم أصبح قرية صغيرة جدا. طبعا دي شركة عابرة للقارات Trans national co. وفتحت - أيضا - أكبر سلسلة سوبر ماركت أدوات وإكسسوار لفن الاستمتاع بممارسة الحـب والجنس. ودرت علي تجارة الجنس البلايين من الدولارات. وكذلك فتحت الشركة عابرة القارات التي أملك خمسين في المائة من أسهمها. والعديد من صالونات المساج في سينجابور وتايلانـد وإندونيسيا وطوكيو وبرلين. وهذه الصالونات متخصصة في إتاحة فرصـة الراحـة والسـعادة لزبائنها. إنسان العصر الحديث في حاجة ماسة إلى الاسترخاء، للتغلب على زيـادة الضـغوط النفسية المعرض لها. وهذه الشركات عابرة القارات تملك العالم وترسم سياسات كـل الـدول. وهي مركز القوة والسلطة الحقيقة في العالم. وتملك من المال ما يتجاوز ما تملكه أوربا وأمريكا واليابان. وهي أقوى من الحكومات. هذه الشركات تتاجر في كل شيء؛ السـلاح والمخـدرات والنساء. الشرف الوحيد التي تعترف به هو الفوز بالربح الأقصى، وليس لها أي هدف إلا الربح والمزيد من الربح.

وكانت الدكتورة تستمع بعمق إلى هذا المارد العالمي. العملاق المالي وهو يقص قصة حياتـه المثيـرة العجيبة. وقد أطلقت الشمبانيا لسانه. واستمر مستر هيو في حديثه الممتع الشيق:

المستر هيو : "هذه الشركات العملاقة العالمية المتعددة الجنسيات لا وطن لها ولا قومية ولا دين، وتستغل الدين والقومية والوطنية في سبيل تحقيق أهدافه، ولا هدف لها إلا تحقيق حد الربح الأعظم. هذه الشركات التي أنا جزء منها تملك العالم بدون منازع. وتتجاوز قدراتها المالية قدرات الدول الغربية وأمريكا بل اليابان. وهي التي تقيم الحكام وتدمرهم في أي مكان في العالم. ولقد تمكنت هذه الشركات من إقامة دولة بني إسرائيل. بل تمكنت من هزيمة وتدمير الاتحاد السوفيتي، وهزيمة كل النظم الشعبية والتحررية والنظم الشيوعية في جميع أنحاء العالم المتحضر والغير متحضر. وهي تحتكر المال والعالم في كل أنحاء العالم. وهذا الكوكب الأرضي ملكها بدون أي منازع".

كانت زينات تستمع إليه بشغف شديد وإعجاب لا حد له. هل تعمد المستر هيو بطريقة ذكية لبقة، إشعار زينات بأبعاد التجربة الضخمة التي هي مقدمة عليها؟. هل كان بذكاء وحكمه يربطها برباط خفي بمشروعاته العالمية العملاقة. واستمر المستر هيو في حديثه الطريف:

المستر هيو : "الكلام ده يا دكتورة احفظيه في طي الكتمان. أنا حاولت أعرف عنك كل شيء. لا شك أنكِ امرأة قوية وجسورة. اطلعنا على خطاب عائلتك لك. تبرأت فيه عائلتك منك عندما تزوجتِ رجلاً متزوجا وله أولاد. اطلعنا على خطاب بابا الكرازة المرقسية لأرثوذكسية، إنه يعلن عليكِ قرار الحرمان من رحمة الكنيسة القبطية. "..

بان الرعب والفزع على وجه زينات. ولكنها لم تهتز ولم تتراجع، بل واجهته بجسارة. وماذا يضير الشاه بعد ذبحها. لقد تحالفت مع الشيطان. لقد باعت فعلاً روحها في محراب المال. المال هو القوة الوحيدة في هذا العالم. في الماضي وفي الحاضر وفي المستقبل. وأقسمت زينات في قلبها بأنها لن تتراجع عن ارتكاب أي شر، في سبيل أن تصبح من أثرياء الدنيا، وأن تصبح من أغنى أغنياء الكوكب الأرضي. ونظرت في عينيه بثبات وجسارة.

لاحظ إمبراطور الشر ثباتها ونظراتها القوية المقتحمة. وعرف أنها امرأة مصنوعة من الفولاذ. نعم زينات الفرعونية ستكون من أعمدة إمبراطورية الشر التي شيدها أو ساهم في تأسيسها. وتيقن أن ملوك المال في تل أبيب سيغدقون عليه كنوز الأرض والمال الوفير لهذا الصيد الثمين.. إذ أن لهم مصالح مهمة في القاهرة وهدفهم هو تدمير هذه المنطقة كلها، والاستيلاء عليها ونسف كل الأنظمة التحررية في الشرق الأوسط. نظرت زينات إلى ساعتها الذهبية التي أهداها لها المستر هيو.. واعتذرت لضرورة ذهابها إلى غرفتها لإعطاء ميريام رضعتها. أبدى المستر هيو إعجابه بشخصيتها القوية الجذابة. أوصلها مودعا إلى باب جناحه الذي يقيم فيه. وقال في سره: "امرأة مصنوعة من الصلب والفولاذ. وسيكون لها مستقبل رائع في خدمة أهداف الشركات العابرة للقارات والصهيونية العالمية". ومن هذا اليوم أطلق عليها اسم تاتشر الفرعونية. وقد لازمها هذا اللقب إلى آخر لحظة في حياتها الحافلة.

أعطاها خطابات التوصية الضرورية لها للعمل في أستراليا. وأخذ منها جواز سفرها للحصول على فيزا دخول إلى أستراليا. ذهبت زينات إلى غرفتها. وجدت المسز يونج محتضنة ميريام وهي تعطيها رضعتها. وابتسامة مشرقة حلوة على وجه ميريام الجميل وكأنها الشمس بازغة من أعماق الليل البهيم. ملاك من السماء، الأمل الحلو ينبثق من الظلمات.

المشهد السابع عشر

ناتشر الفرعونية

الحياة مغامرة كبرى في سبيل البقاء. الموت سكون. الحياة حركة دائمة. عِش في خطر. هذا هو الشعار الذي تبنته زينات في المرحلة الصاخبة الجديدة من حياتها. عش في خطر. ابنوا حياتكم على حافة الهاوية.. وما الحياة إلا قتال الإنس والجن في الفكر والنفس والحياة.

في الطائرة إلى سدني استعرضت زينات شريطاً سينمائيا طويلاً. شريط حياتها جرى في خيالها جريان السحاب في السماء، منذ حضرت إلى ماليزيا والأيام الأولى في شقة الدكتور موريس في غياب زوجته. زاد تصميمها على الاعتماد على نفسها والوقوف على قدميها. وليس على أقدام إنسان آخر. قررت عدم استخدام خطابات التوصية الذي كتبها المستر هيو إلى أصدقائه في أستراليا إلا في الضرورة القصوى، وبخاصة أنها شعرت أثناء حديثه معها شعورا مبهما بأنه يسعى للسيطرة عليها والاستيلاء على روحها، لغرض في نفس يعقوب. وأقسمت في نفسها: بأن هدفها الوحيد هو السعي لتحقيق أهدافها هي. النابعة من قلبها ومن مصالحها هي. ولن تقف أية قيم أخلاقية أو روحية في طريقها.

كان يجلس بجوارها في الطائرة المتجهة إلى أستراليا كاهن كاثوليكي. تعرفت عليه زينات.. يُدعى الأب جوهان. أعطاها بعض المعلومات القيمة عن أرخص الفنادق في سدني وتليق بمكانتها كطبيبة. وصلت إلى سدني في غاية من الإرهاق والإعياء، إذ أن المحيط الهادئ مليء بالمطبات الهوائية العنيفة، حتى أنها فقدت وعيها وأُغمى عليها.

وقامت المضيفات بإسعافها وأحضرن لها أسطوانة أكسوجين. أما ميريام فلم تعان أي إرهاق. وانجذبت المضيفات لميريام وأحطنَها بكل رعاية وعناية.. وساعدن زينات حتى أفاقت من إغمائها. وساعدنها في تحضير وجبات ميريام.. الكاهن الكاثوليكي جوهان كتب لها عناوين بعض المستشفيات التي قد تجد بها فرصة عمل. أعطاها رقم تليفون الكنيسة الكاثوليكية التي يعمل بها. شعرت زينات بمزيد من الثقة في نفسها. وهي تواجه المجهول. حقًا الحياة وقفة تحدٍ.

عند وصولها إلى سدني، لم تواجهها أية مشاكل في الحصول على تأشيرة إقامة لمدة عام قابله للتجديد. والفضل كله يرجع لخطابات التوصية التي كتبها لها المستر هيو. وإلى شدة حاجة أستراليا إلى أطباء في جميع التخصصات. عرض عليها الأب جوهان توصيلها إلى فندق يعرف صاحبه. Holiday inn. يقع الفندق في موقع هادئ. أناقة بسيطة. عرفها بمدير الفندق الذي رحب بها. أخبره الأب المقدس أن زينات طبيبه ماهرة تبحث عن عمل. أعطاها غرفه مُريحة تطل على الميدان الكبير في سدني. منحها تخفيضا لا بأس به بقيمة خمسة وعشرين في المائة إرضاء لعيون الأب جوهان، حيث إنه راعي كنيسته والكاهن الذي يشرف على سعادة روحه. والجميع في سدني يحترمون ويحبون الأب جوهان. حياها الكاهن وسار في طريقه إلى منزله الواقع في حديقة الكنيسة الأرثوذكسية خلف مبنى الكنيسة.

في الصباح دق التليفون في غرفتها. الأب جوهان أعطاها مستشفى الراهبات التابعة للكنيسة الكاثوليكيـة. وحدد لها موعدا لمقابلة مديرة المستشفى، وهي راهبة تبلغ من العمر الثمانين عامـا تقريبـا. فـي غرفتهـا الواسعة المفروشة بأفخم الأثاث اطلعت المديرة على شهادات الخبرة لزينات وأرسـلت شـهاداتها للشـئون القانونية في المستشفى. رفضت الشئون القانونية اعتماد شهاداتها لعدم وجود بروتوكول توثيق مع الجامعـة المصرية، وهم لا يعترفون إلا بالشهادات الصادرة من جامعات المملكة المتحدة. ولكن.. تحت إلحـاح الأب جوهان وافقت المستشفى على إلحاقها في وظيفة مساعد طبيب في قسم المعامل الباثولوجية، لتـوفر وظيفـة شاغرة. قبلت زينات العرض. استلمت العمل في وظيفة متواضعة مرتبها زهيد. كانت في حاجة لنـوع مـن الاستقرار في هذه المرحلة الحرجة من حياتها. ولم تشكل لها ميريام أية مشكلة لوجود حضانة في المستشفى للعاملات بها. أعطت زينات التعليمات الخاصة بوجبات ميريام للسيدة المشرفة علىالحضانة. أما زينات فقـد انغمست في أعمال المعمل الباثولوجي لشوشتها. حاولت إعطاء كل طاقاتها المبدعة إلـى عملهـا الجديـد. ونجحت زينات في اكتساب ثقة كل من عمل معها. نجحت في اكتساب ثقة مديرة قسم البـاثولوجي، حيـث أشادت المديرة في اجتماع مجلس إدارة المستشفى بمهارة الدكتورة زينات ونشاطها. ووافـق مجلـس إدارة المستشفى على تعيينها في وظيفة دائمة بعد أن كانت في مرحلة اختبار. وبعد مُضي سنة كاملة تم تعيينها في وظيفة طبيب بعد اجتيازها امتحان المعادلة بتفوق ملموس، ومن أول امتحان.

استمرت زينات في الحياة في الفندق. المشكلة الكبرى التي واجهتها ارتفاع مستوى المعيشة، واسـتمرار الارتفاع بشكل جنوني. وأخيرا بعد البحث والتحري وكثرة الاتصال بزملائها وجدت شقة صـغيرة. حجـرة واحدة مجهزة بأثاث لا بأس به. وملحق بها مطبخ وحمام صغير. وثمن الإيجار لا يتعدى نصـف تكـاليف الإقامة بالفندق. لقد أرشدتها إليها زميله لها في المعمل. سعدت زينات مؤقتًا بالشقة الجديدة وبخاصـة أنهـا أقرب إلى المستشفى. وكذلك جارتها في نفس العمارة المسز ستيفن جنا MRS Genna Stephen. وتمتلـك مسز ستيفن عربة هوندا صغيرة وعرضت على زينات توصيلها يوميا إلى العمل لقاء أجر زهيد يتناسب مع دخل زينات. عشرين جنيه استرليني شهريا. وافقت زينات فورا. وتمكنت من حـل مشـكلة المواصـلات، وشراء عربة والحصول على رخصة قيادة، وهي ليس لديها أية خبرة في قيادة السيارات.

ودارت الأيام ومرت الليالي. تأقلمت زينات مع إيقاع الحياة الجديدة. ولكنها في أعماق قلبها تطلعت إلـى آفاق أرحب وأكثر اتساعا. ونمت علاقتها بمسز جينا ستيفن. ولكن استمر الضيق المالي المشكلة الرئيسية في حياتها. وعندما ذهبت إلى بنك باركليز لصرف مرتبها الشهري أصيبت بالرعب أو الذعر لتآكل رصـيدها. لأن الغلاء الفاحش والذي يزيد باستمرار استهلك كل مدخراتها. وأخذت في البحث عـن عمـل جديـد دون جدوى، إذ أنها كانت سنوات تضخمٍ مالي وأسوأ سنوات عجاف تمر بها استراليا.

* * *

المشهد الثامن عشر

بدأت الغيوم تظهر في الأفق. بعد فترة الاستقرار النسبي التي تمتعت بها زينات حوالي العام تقريبا. ظهر في الأفق شبح الكساد الكبير الذي أصاب أستراليا. بضربة قاضية ظهر أولاً في مصانع الصلب. ثم في صناعة السيارات. غزت السيارات اليابانية السوق الاسترالي. بلغ عدد العاطلين حوالي مليون عامل متعطل. فقدت العملة قيمتها. زينات وزميلتها الممرضة جينا ستيفن كانتا من ضحايا الكساد الكبير. حيث استغنت المستشفى عن خدماتهما وخدمات نصف العاملين بها. أعطتها إنذارا بالفصل قبل التنفيذ بشهر. وصُرف لهما شهر كامل. أصيبت زينات بالذعر. دب الخوف واليأس في كيانها خوفًا على ميريام وخوفًا من المستقبل. ذهبت إلى الأب المقدس وطلبت مقابلته. أخبرته بمشاكلها. لم يستطع الأب جوهان مساعدتها. أخبرها بأن عدد العاطلين قد بلغ الملايين في العالم، لأن العالم أصبح قرية صغيرة. والذي زاد الحالة سوءا في أستراليا انتشار وباء خبيث في الماشية قضى على الثروة الحيوانية التي هي تعتبر أهم مصادر الثروة في أستراليا. وأخبرها بأن الحالة سيئة جدا. وأن هناك جوعى كثيرين يموتون من التشرد والجوع. ونصحها الأب المقدس بالعودة إلى وطنها ومحاولة رأب الصدع الذي حدث بينها وبين عائلتها والكنيسة. وشرح لها أن فترة الكساد قد تطول إلى سنوات ولا يعلم إلا ا متى تنتهي الكارثة. ولكن زينات صممت على البقاء وعدم الاستسلام. وقالت في نفسها: إن الحياة موقف تحدٍ. وإن الصعوبات والتحديات تزيدها قوة وصلابة وبخاصة أنها مُنحت حق الإقامة الدائمة، بفضل تدخل الأب المقدس والعملاق المالي مستر هيو، الذي تدخل كثيرا لصالحها، لأنه كان يرسم خطة كبرى لها، لتحقيق مآرب الشركات متعدية الجنسيات في الشرق الأوسط. ولم تكن تدرك زينات أبعاد هذه الاستراتيجية البعيدة المدى. ومُنحت الدكتورة زينات بطاقة شخصية. وآمنت أنها في سبيلها للحصول على الجنسية الأسترالية. وبالرغم من كل هذه الغيوم والصعوبات وبالرغم من نصيحة الأب المقدس استقر قرارها على البقاء وعدم العودة إلى مصر المحروسة، لأنها تكره أية صلة تربطها بوطنها. تكره عائلتها وتكره المؤسسة الدينية التي أعلنت عليها الحرمان وحرمتها من الحقوق الأساسية للإنسان. وتذكرت في ألم شديد كيف تبرأت منها عائلتها عندما قررت الدخول في الإسلام.

لولا إعانة البطالة التي تمنحها الدولة للعاطلين والتي لا تزيد عن مستوى الكفاف لتضورت زينات جوعا. ولولا بطاقة التموين التي تمنحها حكومة أستراليا للعاطلين حتى يتمكن الناس من الحصول على الحليب والأدوية الخاصة بالأطفال لماتت ميريام بسبب الجوع وسوء التغذية. ضاقت الدنيا أمام زينات. إعانة البطالة لا تكفي الضرورات ولا تغطي تكاليف المعيشة الأساسية. بدأت في السحب من رصيدها في البنك الذي أخذ في التناقص المستمر. توقفت عن دفع الإيجار لمالكة الشقة. حاولت تخفيض إيجار الحجرة التي تقطن فيها إلى النصف. رفضت مالكة العقار. أنذرتها بصورة نهائية لترك الشقة عندما لم تتمكن من تسديد الإيجار. كيف تواجه الحياة بدون أي دخل جديد.؟ ميريام كانت حملاً ثقيلاً حول رقبتها، حملاً ثقيلاً منعها من حرية الحركة. وبعد تردد طويل أخذت قرارا نهائيا كان له الأثر الحاسم على حياتها.

ذهبت إلى الكنيسة. طلبت مقابلة الأب الصالح. قابلته في حجرته الخاصة للعبادة، كان في جلسة تأمل وعبادة. قطع الكاهن صلاته وتأملاته الصوفية. شعر بعمق مقدار الألم والعذاب الذي تعانيه زينات في أعماق قلبها. أدرك مقدار اليأس الذي يسري في روحها. التفت إليها. أخبرته زينات أنها قررت عدم العودة إلى وطنها. مهما كانت الصعوبات والمشاق. الكنيسة في وطنها أعلنت عليها الحرمان. مجلس إدارة المستشفى في مصر قرر طردها من العمل أسوة بالدكتور زوجها فكري الزيني. حتى عائلتها تبرأت منها. والعائق الوحيد الذي يقف في سبيلها ويعوقها عن الحركة هو ميريام. وميريام حاليا قد بلغت من العمر العامين تقريبا. ركعت زينات أمامه. لثمت يديه. لثمت الخاتم الذهبي الذي يُزين يده اليُسرى. صلى لها. باركها. أخذ يفكر ويفكر ويطيل التفكير في كيف يتمكن من مساعدتها. وأخذ يصلي لها في محرابه مستلهما يسوع المسيح. بالرغم أنه يعلم - تماما - أنها لا تؤمن إلا بالمادة، وأنها لا تؤمن بالغيب، أو بأي دين من الأديان. الأب الروحي كان مقتنعا بأن رحمة ا واسعة لا حدود لها. وأن رحمته شملت كل شيء وشملت كل مخلوقاته واتسعت لكل الكائنات. الأب الروحي كان يعلم علم اليقين بأن الشقاء في العالم كثير. وأن البؤس لا حد له. بكى الأب الصالح. بكى الأب جوهان. خضبت دموعه ملابسه الكنسية. سجد أمام زينات. شعر بمقدار البؤس والأسى الذي يجتاح وجودها. شعر بضياع هؤلاء الذين فقدوا جذورهم. وفقدوا أجنحتهم ففقدوا قدرتهم على الطيران. ألم يصلب السيد المسيح على الصليب.؟ ألم يوضع فوق رأسه تاج من الشوك؟. ألم يتعذب العذاب الكامل؟. شعر الأب الصالح بمدى سلطان ملك الظلام. روحها. روح الإنسان الذي فقد نور قلبه، وما مغزى وجود الكاثوليكية في هذا العالم. إذا لم تقف مع من فقدوا جذورهم وأجنحتهم؟. وما معنى صلب المسيح إلا لإدخال نور الأمل في قلوب النساء. وفي قلوب المساكين..؟!

وبعد فترة طويلة من التفكير العميق والتأمل والتهجد إلى العلي القدير أن يلهمه الصواب والحكمة وصل إلى قرار. وظهر في وجهه نور الإيمان وانتصار الروح على بواعث الشر والأنانية والفردية. وقال لها: "أقترح عليكِ أن تقوم الكنيسة بتنشئة ميريام. وأن تدخل في رحمة وأحضان الكنيسة الكاثوليكية في روما. يجب عليكِ إذا رغبتِ أن تهبيها إلى الكنيسة. وستقوم الكنيسة بتربيتها وتعليمها على نفقتها. ولك الحق في الوصاية عليها حتى تبلغ زينات الثامنة عشر.. وسأتولى أنا شخصيا مسئولية نفقات تعليمها من جيبي الخاص، حتى تبلغ سن الرشد. أعلمك أن الكثير من العائلات الغنية في الغرب وفي أمريكا يرسلون بناتهم لمعاهد الراعي الصالح، التي أسسها القديس جوهان في القرن السادس عشر، وقد اكتسبت هذه المعاهد التعليمية شُهرة كبيرة في تعليم وتربية الفتيات. وتعتبر هذه المعاهد أحسن مراكز تربية الشخصية الإنسانية على مستوى العالم.

"**... وصمت الأب الصالح لبرهة ثم استمر في حديثه:**

- "بس الشرط الأساسي الوحيد الذي عليكِ الالتزام به حرفيا هو أن لا ترينها إلا بعد مضي خمسة سنوات. ولا يُسمح لك بزيارتها بتاتًا أثناء هذه المدة.. وعليكِ بتوقيع وثيقة التنازل عن حضانتها إلى الأم الكبرى الربانية وهي الكنيسة الكاثوليكية. أرجو منكِ التفكير العميق قبل التوقيع على وثيقة التنازل".

وافقت زينات فورا دون أي تردد. وبدون أي تحفظ قامت بكتابة الطلب والإقـرار والتنـازل عـن حـق حضانتها. ووافقت على كل الشروط التفصيلية التي ذُكرت في وثيقة التنازل. وتركها الأب جوهان وعاد إلى صومعته ومحرابه. عاد إلى تأملاته الروحية. ونسي أو تناسى وجودها. وأخذ الأب جوهان يتأمل أعاجيـب الحياة المقدسة اللانهائية. وتناقضاتها التي لا حدود لها. وألغازها التي إذا نجحنا في حل طلاسم لغز اكتشـفنا ألغازا أخرى. وهكذا دواليك. لا نهاية لألغاز الحياة ولا حدود. والحياة لغز داخل لغز داخل لغـز ولا نهايـة لألغازها. وأخذ يقول في نفسه: الحياة السرمدية لا يمكن لبني البشر استيعاب معناها أو مغزاها، ولـو بعـد الملايين من السنيين. وأخذ يرتل بصوت جهوري تراتيلَ من الكتاب المقدس.

في اليوم التالي أرسل طلب الدكتورة زينات إلى قداسة البابا في روما مشفوعا بخطـاب شخصـي منـه. وأخبر قداسة البابا في خطابه أن الهاتف جاءه في المنام بعد صلاة الفجر. وأن القدوس أو روح القدس حملته مسئولية تربية وتنشئة ميريام، وأنه قد علم مسبقًا قبل حضور أمها بأن الدكتورة ستهب ميريام إلى أحضـان ورحمة الكنيسة، وأنه قد يكون لها شأن، وأن هذه هي إرادة السيد يسوع المسيح كما تراءى له فـي الحُلـم. وختم خطابه إلى جناب البابا في روما.." ومن يعش يرى... والليالي من الزمان حُبالى مثقلاتٌ يلـدن كـل عجيبة.

بعد مُضي عشرة أيام قابل الراعي الصالح الدكتورة زينات وأخبرها أن جناب البابا في روما وافق علـى تبني ميريام، و أنه سيأخذها في رحمة وأحضان الكنيسة في روما. وكانت ترافقه راهبة كاثوليكية. اسـتلمت الراهبة الطفلة وأخذتها في أحضانها بكل عطف وحنان. أخذتها من أمها. ضمتها إلى صدرها. هكذا انفصلت ميريام عن أمها. وانضمت إلى أسرة الكنيسة الكاثوليكية التي ستقوم بتربيتها وتعليمها ورعايتها إلى أن تبلـغ من العمر الثامنة عشر.

وداعا للحب. وداعا للخير. وداعا للبراءة. بعد مغادرة الأب الصالح وفي رفقته الراهبة تحمل ميريام فـي حضنها. أغلقت زينات عليها حجرة نومها. ثلاثة أيام من البكاء. لا تأكل ولا تشرب. بكت بكاء عميقًا لا حد له. بكت من أعمق أعماق قلبها. ولكن إصرارها على مصارعة القدر وقهر الأيام لم يضعُف ولم يهُن، بـل زادت إصرارا وعنادا على المُضي في طريقها الذي رسمته لنفسها. أصبحت زينات لأول مرة فـي حياتهـا حرة طليقة في حلبة الصراع الرهيب الدائر في كل مكان بين قوى الخير وقوى الشر، بين قوى البناء وقوى الهدم. ورقص الشيطان أروع رقصاته. وقهقه ضاحكًا سعيدا مرحا. أدرك أنه حقق أعظم انتصـاراته وأروع إنجازاته في معركته الهائلة ضد الحب والخير والحنان.

* * *

المشهد التاسع عشر
مشروع التجارة في الأعضاء البشرية

بعد شهرين من العناء والقلق اتصل بها دكتور برنارد ألبا. حضر بنفسه لزيارتها. بعد شهرين من سفر ميريام إلى روما. الدكتور برنارد من جراحي القلب المشهورين على مستوى العالم، وكان يعمل في نفس المستشفى في سدني التي كانت تعمل بها الدكتورة زينات، وكان يعلم أنها في أزمة مالية شديدة، وأنها في أشد الحاجة إلى طوق نجاة. الدكتورة زينات كانت تُكن له الاحترام والتقدير، ومعجبة بمهارته وشهرته في جراحه القلب. كان قصير القامة وله رأس كبير مستدير، عريض الأكتاف، وعيناه تشع بالمكر والدهاء. وجهه جامد صلب، لا يبدو فيه أي أثر لأي عواطف أو مشاعر، ولا تستطيع بسهولة قراءة أفكاره أو مشاعره. وتنم ملامح وجهه عن القسوة العلمية والكبرياء المتعالية العقلية. عرض عليها وظيفة جديدة في المؤسسة التي تقوم بالمتاجرة في الأعضاء البشرية، وهو المشرف عليها ومديرها. وهي مؤسسة عالمية وتمتلكها الشركات العملاقة عابرة القارات. وأعمالها تتصف بالسرية التامة، وتدر البلايين من الدولارات والمال الوفير على الذين يعملون في هذا المشروع العالمي.

الدكتور الجراح برنارد ألبا: أنا آسف. أنا جئت بنفسي وبدون أي إخطار حفاظًا على السرية المطلقة. ولهذا لم أتكلم في التليفون. أنا في حاجة إليك في وظيفة فنية في المؤسسة التي أشرف عليها.

الدكتورة زينات: (في قلبها شعرت بالفرح والسعادة. بصيص من الأمل في أعماق حالة اليأس التي تعانيها)... - - أهلاً وسهلاً بك. حضورك لي شرف كبير. أنا في خدمتك.

الدكتور برنارد: "المؤسسة التي أرأسها وأشرف عليها مؤسسة عالمية. شركة عالمية عابرة للقارات. رأس مالها يتجاوز ما تملكه إنجلترا وأوروبا. مؤسسة محاطة بالسرية التامة والكتمان الشديد. لذلك حضرت بنفسي تجنبا للاتصال الهاتفي. الذي رشحكِ لهذه الوظيفة المستر هيو العملاق المالي في جنوب شرق آسيا. وكذلك مهارتكِ في علم الباثولوجي وجدارتك في عملك الفني في المستشفى. المستر هيو أوصانا خيرا بكِ أشاد بقوة شخصيتك وذكائكِ وصلابتكِ. وإننا نستطيع الاعتماد عليكِ. ولا أكتمكِ القول إن المؤسسة وضعتكِ تحت الرقابة الدقيقة لمدة عامين. ولكني أرجو قبل الموافقة التفكير العميق ولا تتسرعي. هذا القرار مصيري. ادرسيه بكل هدوء من كل جوانبه. وسأتصل بكِ بعد ثلاث أيام. ".. وصمت الدكتور برنارد ثم استمر في حديثه الهادئ والمهم:

- - " نعم يا دكتورة أكرر القول بضرورة التفكير العميق. ادرسي الأمر من كل جوانبه. إذا قررت العمل معنا فلا تراجع أبدا، مهما تكون الظروف. ومهما تكون الملابسات فكري كويس يا دكتورة زينات. مش عاوز أسبب لك أي مشاكل. أنا مش عاوز أورطك. المستر هيو اتصل بي من ماليزيا وهو يثق بكِ ومهارتكِ وصلابتكِ ثقة كبيرة. وقد وصل إلى علمه طردكِ من العمل في المستشفى بسبب الأزمة الاقتصادية. وأيضا قد عرف أنك سلمت ابنتك ميريام إلى أحضان الكنيسة الكاثوليكية، وتنازلك عن حق الوصاية عليها ورضاكِ بحق الحضانة للكنيسة لتربيتها وتنشئتها.

وتركها برنارد وذهب إلى مستشفاه الخاص. ثلاثة أيام من التفكير العميق. وثلاثة أيام من القلق. درست الأمر من جميع وجهات النظر. وأخذت تفكر وتطيل التفكير، لا شك أنها مقدمة على أخطر خطوة في حياتها. المخاطر تهددها في كل خطواتها. تذكرت قول الفيلسوف الألماني نيتشه: "عِش في خطر" "واجه الإعصار. عِش في قلب العاصفة. عِش على حافة الهاوية. احذر من الخمود. احذر من السكون. اقتحم قلب العاصفة. عِش على حافة الهاوية. حذار من الخمود. حذار من السكون. اقتحم العاصفة. ما لم يُتمن يزيدني قوة. ما لم يُتمن يزيدني قدرة. الخوف هو الموت في الحياة. المغامرة ومواجهة الأخطار هي جوهر الوجود الصحي الخلاق. مواجهة الأخطار والأهوال هي الحياة في مستواها المبدع الخلاق".

اتخذت قرارها النهائي. بعد التفكير الهادئ العميق. وبعد دراسة عميقة لكل الأبعاد، لا مكان للتراجع ولا مكان للتردد. حضر برنارد بعد ثلاثة أيام بعد الانتهاء من عمله الشاق في المستشفى. أخطرته بصراحة ووضوح بقرارها النهائي. بموافقتها الكاملة على الارتباط به والعمل لخدمة أهداف لا تدرك أبعادها، والتي تخططها الشركات العابرة للقارات.

زينات : أنا موافقة. على أن أقوم بأي عمل يوكل إلي. لا مكان للتردد في قلبي. ولن أتراجع مهما كانت ظروف العمل.

برنارد : (ولم يظهر وجهة الجامد أي انفعال).

"الخطوة الأولى التمهيدية للعمل في هذه المؤسسة هو الانضمام إلى جمعية إخوان "ماسون". أو بما يعرف بالإنجليزية "اللودج" Lodge وهم جمعية بنائي الماسون Mason builder. إذ توجد طقوس معينة يجب القيام بها بكل دقة. حتى تصبحين عضوة في جمعية بنائي الماسون.

فرحت زينات لحضور الدكتور برنارد ألبا. وانتهاء فترة التفكير والقلق. القدر بدأ يبتسم لها. وأدركت أن صديقها المستر هيو يراقب خطواتها عن كثب. وأنه أحاطها ويحيطها برعايته وعنايته منذ تركته في ماليزيا في فندق البحيرات السبع. وأنه لا سبيل على بقائها في أستراليا إلا بانضمامها إلى جمعية إخوان ماسون. واعتبرت زينات هذه الخطوة الجريئة البداية الحقيقية لانتصارها في معترك الحياة العاصف والمثير. هكذا خيل لها.

* * *

المشهد العشرون
الميلاد الجديد

ذهبت زينات في اليوم التالي إلى العنوان الذي أعطاها إياه الدكتور برنارد. ارتدت أفخر ما عندها. فستان من الحرير الأسود الفاخر. دي كولتيه. أظهر بوضوح مفاتنها الجنسية. في الموعد المحدد وصلت إلى معبد بنائي ماسون، أو ما يطلق عليه اللودج استقبلتها امرأة طاعنة في السن، مرتدية زيا خاصا بمعبد إخوان وبنائي ماسون. أخبرتها أن وظيفتها هي إعدادها للدخول إلى هيكل الملك سليمان. للقيام بطقوس تطهيرية معينة، وهذه الطقوس المقدسة ستتيح لها أن تصبح عضوا عاملاً في الجمعية. أمرت السيدة العجوز بتجهيز العروس للعرس. البنات خلعن عنها كل ملابسها. حتى ملابسها الداخلية. أحرقن كل ملابسها القديمة، والرماد الناتج عن الاحتراق، أذيب في شراب خاص أحمر اللون. غريب المذاق. أمرت المرأة العجوز زينات بشربه على رشفة واحدة. وضعن زينات في مغطس خاص مثل مغطس التعميد في الكنيسة الكاثوليكية. أخذت السيدة العجوز تتلو بعض آيات من التوراة والتلمود. امتلأ البانيو والحمام برائحة ذكية مثل رائحة البخور الهندي.

بعد الحمام شعرت زينات بنشوة غريبة وعجيبة تسري في جسدها. أعطين زينات ملابس جديدة. الزي الخاص لحضور الاجتماع المقدس الخاص بالتعميد الجديد، أو الميلاد الروحي الجديد. جونيلا قطيفة حمراء اللون أحمر داكن. تصل إلى بوصة واحدة أسفل ركبتيها. بلوزة من الحرير الفاخر بنية اللون. عليها رسم دقيق لنجمة بني صهيون ومكتوب عليها بالعبرية (هيكل الملك سليمان الحكيم). ووضعن على رأس زينات عمامة على شكل النجمة السداسية. هذه الطاقية مصنوعة من قماش فاخر أسود اللون. علقن في يديها وقدميها أجراسا ذهبية اللون. وعند دخولها المعبد الصهيوني دُقت الأجراس فأحدثت أصواتًا موسيقية. وقفت زينات أمام هيكل الملك سليمان في الحجرة المقدسة أي قُدس الأقداس الذي يجتمع فيه دوريا الحكماء السبع الذين يحكمون العالم.

بوابة المعبد مطلية بالذهب الخاص. المدخل إلى قدس الأقداس على هيئة البقرة المقدسة، والتي كانت من آلهة قدماء المصريين. مكتوب عليها بالهيروغليفي (الميلاد الجديد). أمرن زينات بالسجود والزحف على ركبتيها خلال تجويف في هيكل البقرة المقدسة. والتجويف يرمز إلى الجهاز التناسلي للبقرة. زحفت زينات من خلال الفَرج والرحم. وعند مدخل الهيكل المقدس انسحبت فتيات الملك سليمان، لأنه لا يُسمح لهن بالدخول إلى الأعتاب المقدسة. قاعة طويلة مضاءة بنور وردي غريب يشع في القاعة ولا يمكن معرفة مصدره. طاولة مستديرة من الأبنوس الأسود الفاخر. سبع كراسي كبيرة حول الطاولة المستديرة. الأرضية مغطاة بالسجاجيد الشيرازي الثمين. مرسوم عليها رسومات لآلهة قدماء المصريين إيزيس وأوزوريس وحورس. وعلى جدران الغرفة سجاجيد فاخرة وعليها رسومات للملك إخناتون وزوجته.

بعد ثوانٍ معدودات من دخول زينات القاعة المقدسة، دخل إلى القاعة الحُكماء السبع الذين يحكمون العالم. وعلى رءوسهم تيجان من الذهب. الجميع يرتدون أروابا واسعة مثل أرواب القضاة والمحامين، ولكنها بنيـة اللون من الصوف الفاخر الداكن اللون. نُقشت عليها رسوم فرعونية. وفي صدر القاعة تمثال للملك سـليمان نبي ا الذي حكم عالم الإنس والجن. وعلى يساره تمثال للملك داود نبي ا وهو متكئ على عصـاه التـي أكلها النمل. ويوجد خلف تمثال نبي ا سليمان سجادة مصنوعة من الشيراز الثمين منقوش عليهـا صـورة فرعون مصر الملك رمسيس. وفي يده صولجان الملك والألوهية. أمام تمثال الملك سليمان يوجد المذبح الذي تقدم فيه القرابين، وخلف المذبح وقف الكاهن، أو الرابي، وعلى رأسه طاقية من القطيفة الحمراء الداكن على شكل النجمة السداسية، يرتدي عباءة واسعة وفضفاضة، وفي يده سكين لامع تشع ضوءا شديد اللمعان ولهـا نصل حاد قاطع. يشع ضوءا غريبا من تأثير اللون الوردي الذي ينتشر في كل مكان ولا يُعـرف مصـدره. سجدت زينات أمام عرش سليمان. تنفيذًا للأوامر التي صدرت لها. رفعت زينات رأسها قلـيلاً لتشـاهد مـا حولها وقد اعتراها الخوف الشديد والهلع المرعب. اكتشفت وجود إنسان آخر ساجد مثلها وبجوارهـا أمـام هيكل - نبي ا سليمان الذي كلم الطير - يرتدي زيا مثل الزي الذي ترتديه- تماما- ُأمرت بمد رقبتها على المذبح وكذلك ُأمر الساجد بجوارها. وتبينت أن الساجد بجوارها هو الدكتور برنارد جراح القلـب المشـهور فاطمئن قلبها. وعندئذ انبثقت موسيقى خافتة كأنها من السماء في القاعة كلها. موسيقى رائعة تنبعث من كـل مكان، من التماثيل من الحيطان، من السقف، ومن أرض القاعة، من المذبح، من السجاد الشـيرازي الفـاخر الذي يغطي كل الحيطان. بدأت التراتيل والترانيم. الحكماء السبع بدءوا ينشدون ويرتلون الترانيم الدينية تعبدا لآلهة الشمس والكون الذي عبده إخناتون - فرعون مصر- زاد النور الوردي تألقًا. وانبعثت رائحة البخـور والمسك من كل مكان. وسيطر جو السحر على قدس الأقداس. وقف الرابي متقلدا سكينًا ذهبية اللـون علـى يمين المذبح. ونصل السكين يلمع لمعانًا غريبا من انعكاس النور الوردي المتألق وكأن النصل يسـيل دمـا. وأخذ الكاهن يتلو الآيات من التوراة باللغة الفرعونية القديمة. زاد الرعب في قلب زينات وسرى الذعر فـي روحها. سرح بها الخيال وتصورت أنها ستُقدم قربانًا بشريا إلى الإله الواحد الذي عبده إخنـاتون فرعـون مصر وسيدها، الإله الذي دعا إليه نبي ا موسى. لامست السكين الذهبية رقبتي زينات وبرنارد في وقـت واحد. أحدثت جرحا سطحيا جدا في رقبتي برنارد وزينات من الخلف. ُأمرت زينات بلعق وامتصاص الـدم المنبثق من الجرح في رقبة برنارد. وُأمر برنارد بلعق الدم المنبثق من جرح زينات. مصت زينات الدم مـن جرح برنارد ومص برنا رد الدم المنبثق من جرح زينات. وقام الرابي بامتصاص الدم من الدكتور برنـارد، ونفخه في جرح زينات. وكذلك امتص الدم المنبثق من جرح زينات ونفخه في جرح برنارد. وهكـذا تمـت الولادة الجديدة أو الميلاد الجديد. ووقف الجميع وهو يرتلون بصوت جهوري تـرانيم فرعونيـة. ثـم سـاد الصمت المطلق. ُأمرت زينات بالوقوف والتقدم إلى الحكماء السبع. وفي رفقتها الدكتور برنارد. أعلن رئيس الحكماء (حكماء بني صهيون) الميلاد الجديد لزينات، وأعطاها الاسم الجديد وهو (ماجي) الأسترالية. أعلـن أن ماجي الأسترالية أصبحت من جنود بني إسرائيل، من جنود الملك سليمان. وأنها الأخت الروحية لبرنارد ألبا، وأنه لا يحل لهما الزواج أو أي اتصال جسدي. وهذه العلاقة الأخوية التي باركها الرب ستستمر مـدى

الحياة الدنيوية الزائلة وفي الحياة الأخرى في الآخرة. وأن الرابي - رابي المعبد المقدس- قد نفخ فيها مـن روح القدس، ليقدس هذه العلاقة. أصبحت شقيقته الروحية وعندئذ خرت ماجي الأسترالية مغشيا عليها. أظلم الهيكل. اختفى النور الوردي. انتشر الظلام الحالك. اختفت رائحة المسك النفاذة. اختفـى الحكمـاء السـبع. وحُملت ماجي بواسطة بنات صهيون إلى حجرة العناية الروحية الملحقة بالهيكل. وغطست للمرة الثانية فـي الماء المقدس. أُخرجت ماجي من المغطس. وخلعن عنها الزي الخاص بالاحتفال. وبُعثت ماجي الأسـترالية من ركام وأشلاء ورماد زينات المصرية، مثل طائر الرخ الذي جاء في الأساطير أنه يحترق ليبعث من جديد ويولد من ركام ورماد الطائر القديم. عادت زينات إلى الحياة من جديد، يقظة جديدة انبعثـت فـي كيانهـا. أوصلها الدكتور برنارد إلى منزلها بدون أن يجري معها أي حوار. أوصلها إلى مسكنها. وذهب إلى عيادته. أما زينات القديمة أو (ماجي كالفِن) الجديدة فقد نامت نوما عميقًا لمدة يومين، يومان من النـوم العميـق لـم تتذوق طعاما أو شرابا. وعند عودتها إلى اليقظة في اليوم الثالث تصورت أنها كانت في حلم عميق، لكنهـا اكتشفت الجرح في مؤخرة الرقبة وأسفلها وعليه مشمع لاصق معقم. اكتشفت الملابس الجديدة. تيقنت أنها لم تكن تحلم. وأن ما حدث لها لم يكن حلما من الأحلام. بل كان حقيقةً وواقعا. واكتشفت جواز سفر اسـترالي مصدقٌ عليه من وزارة الخارجية الأسترالية ومذكور فيه اسمها الجديد وهو "ماجي كـالفن". وأن جنسـيتها استرالية ومولودة في سدني باستراليا. شعرت في قلبها بالسعادة الكبرى. وأقسمت في نفسها أنها ستهب نفسها وبقية عمرها في خدمة أهداف اللودج - أي جمعية بنائي ماسون - وأدركت أنها خلية في تنظيم عالمي يدير شئون العالم. وأقسمت في نفسها أنها ستعمل لأن تكون من أغنى أغنياء الكوكب الأرضي. وأن الإله الوحيـد الذي ستتعبد له هو إله المال والذهب والقوة. وأنها إلى آخر ثانية في حياتها لن تعبد إلهـا آخـر. وأن هـذا التنظيم العالمي الذي ستعمل فيه يسيطر على القرية العالمية الصغيرة، أدركت أن هذا التنظـيم يـتحكم فـي مصير شعوب هذه الكرة الأرضية.

وداعا لليأس. وداعا للحزن. لعنة ا على وطنها مصر. لعنة ا على ماليزيا. لعنـة ا علـى الكنيسـة الأرثوذكسية. وداعا للبؤس. وداعا للركود. وداعا للخمود. أهلاً وسهلاً للبعث الجديد. أهلاً وسهلاً بالمعارك. بقية عمرها ستنذر نفسها راهبة في محراب المال والقوة. في محراب الشيطان الرجيم. إبليس يحكم العـالم. زينات باعت روحها للشيطان. وارتبطت معه بالرباط المقدس.

* * *

المشهد الحادي والعشرون

ماجي كالفن الأسترالية

بعد أسبوع تقريبا. مر عليها الدكتور برنارد ألبا بعربته الكاديلاك السوداء. رافقته في جولـة فـي معهـد الأبحاث المتخصص في نقل وزارعة الأعضاء. مبنًى ضخم من ثلاث طبقات. فوق تل مرتفع يبعد عن مدينة سدني بمائة كيلومتر في وسط الغابات. وبه مطار دولي خاص بالمعهد. مركز الأبحاث على اتصال مسـتمر عن طريق قمر صناعي خاص به وبجميع مراكز الأعضاء في العالم، وعلى اتصال بجميع المستشفيات التي يتم فيها زرع الأعضاء في العالم الغربي ويتم تصدير الأعضاء البشرية (القلب، الكلية، الكبد، وحاليا تُجـرى تجارب لنقل المخ.) إلى أي مكان في العالم في أقصر وقت ممكن، بحيث تصل الأعضاء في الوقت المناسب لكي تصلح للزرع في المرضى المحتاجين لها. يُحاط العمل بسرية تامة. ومن لا يحـتفظ بالسـرية التامـة، يُقضى عليه في أسرع وقت ممكن. ومن لا يلتزم بالكتمان التام والصمت المطبق يُلغَى من الوجـود بطـرق علمية سريعة لا يمكن اكتشافها بأية طريقه. وأعضاء هذا المركز لا يُسمح لهم معاقرة الخمر أو لعب الميسر إلا لضرورة العمل. ومن يثُبت عليه معاقرة الخمر بانتظام يُطرد من العمل شر طرده، بل قد يُصفى جسـديا إذا ثبت أنه عليم بخفايا العمل وأسراره.

وانتشرت عمليات زرع الأعضاء في العالم كله. وزادت الحاجة إليها زيادة كبيرة جدا على مستوى العالم المتحضر بسبب التلوث المريع الذي أحدثته الثورة الصناعية الكبرى، التي ساعدت في تدمير البيئـة علـى مستوى العالم كله. وكذلك الزيادة الفائقة في سرعة السيارات والطائرات، والتي نـتج عنهـا الكثيـر مـن الإصابات القاتلة. عُهد إلى (ماجي كالفن) وظيفة إشرافية. وبعد ستة شهور من العمل المبدع الخلاق أثبتـت ماجي قدراتها الهائلة في التنظيم والإدارة. صدر قرار مجلس إدارة المشروع بترقيتها إلى وظيفة قيادية. طبعا تضاعف مرتبها. استأجرت شقة فاخرة بجوار المركز. اشترت سيارة مرسيدس فاخرة. وتدفقت الأموال عليها من كل جانب. فيضان من المال. اختفت مشكلة الفقر نهائيا. فتحت حسابا في بنك باركليز في سدني. الحيـاة ابتسمت لها. أعجب بها كل أعضاء مجلس الإدارة. لأنه تبين لهم قدرتها على الخلق والابتكار. إذ ازدهـرت أعمال المركز ازدهارا كبيرا في عهدها، وتدفقت الأموال بآلاف الملايين على المركز. وقرر أبوها الروحي (المستر هيو) ضمها إلى مجلس الإدارة وأصبحت المدير التنفيذي للمشروع.

وبعد مُضي سنتين اجتمع مجلس إدارة المشروع، وعرضت ماجي كالفن المركز المالي له مع بيان مقارنة بنشاط السنوات السابقة.

ماجي كالفن : السادة الأعضاء الموقرين.. يسعدني ويشرفني عرض المركـز المـالي والإداري لمشـروع الأبحاث العلمية في زرع الأعضاء البشرية. فعلاوة على الفوائد الجمة التي عادت على البشرية كلها بالخير والمنفعة، فقد حقق المشروع النتائج الآتية؛ في السنة الماضية تضاعف العمل كمـا وكيفًا. وكذلك تضاعفت الأرباح. الربح الصافي للمشروع زاد بنسبة مائة في المائة. حاليا الدخل الصافي يعادل عشرة آلاف مليون جنيه إسترليني، وكان في السنوات السابقة قبل توليتي القيـادة لا يتجاوز الخمسة آلاف جنيه إسترليني. وأهم أسباب النجاح هو إنشاء كومبيوتر على مسـتوى العالم يتلقى الطلبات من أي مكان في العالم من عملائنا وفي أي وقت، ويتم التنفيـذ بالسـرعة الممكنة، وتلبية جميع الطلبات العاجلة من جميع أنحاء المعمورة في أقصر وقت ممكن، بحيـث قلت نسبة التالف إلى النصف، بعد أن كانت نسبة التالف حوالي ثمـانين فـي المائـة، وهـذه الإحصائية تعبر عن نشاط المركز في السنة السابقة. وحاليا لا تتجاوز نسبة التالف عن عشـرة في المائة. وهذه الإحصائية الجديدة أجريت منذ عشرة أيام فقط. والمشكلة الكبرى التي تواجـه المركز، هي صعوبة الحصول على الأعضاء البشرية، وخاصة في مجال زرع الكلى والكبـد. وهي المشكلة الكبرى حاليا ولا حل لها إلا تنفيذ أو زيادة تنشيط عمليـة الكـود ٩٠٤. والتـي يشرف عليها الدكتور برنارد ألبا.. وإذا نجحنا في تنشيط هذه العملية؛ فإني آمل فـي مضـاعفة الأرباح في السنوات القادمة. كما قمت بدراسة ميدانية لعملية أخرى تعرف الكود ١٠٥ وقـدمت لكم مشروع التنفيذ لعملية الكود ١٠٥ في المذكرة السرية التي أرسـلتها إلـى جميـع السـادة الأعضاء الموقرين.

وكانت العملية الكود ٣٠٤ وعملية الكود ١٠٥ من الخطورة والسرية بحيث لم يجـرؤ الأعضـاء علـى مناقشتها بالطرق التقليدية للكلام. وبالرغم من السرية التامة التي تحيط اجتماع المجالس، فقد استخدموا آخـر صيحة في مقاومة التجسس الإلكتروني باستخدام شبكة إليكترو مغناطيسية مضادة لأي نوع مـن التصـنت. وبالرغم من هذه الحيطة اكتفى الأعضاء على إعطاء الموافقة الصامتة بهز الرأس ورفع الأيـدي بـدون أي كلام. وبذلك أصبحت ماجي كالفن المسئولة رقم واحد على تنفيذ وتنشيط الكود ٣٠٤ والعملية الكـود ١٠٥. والبدء في تنفيذ العملية المعروفة بالكود ١٠٥ على مستوى العالم أجمع، بعد أن كانت قاصرة علـى بعـض البلاد فقط.

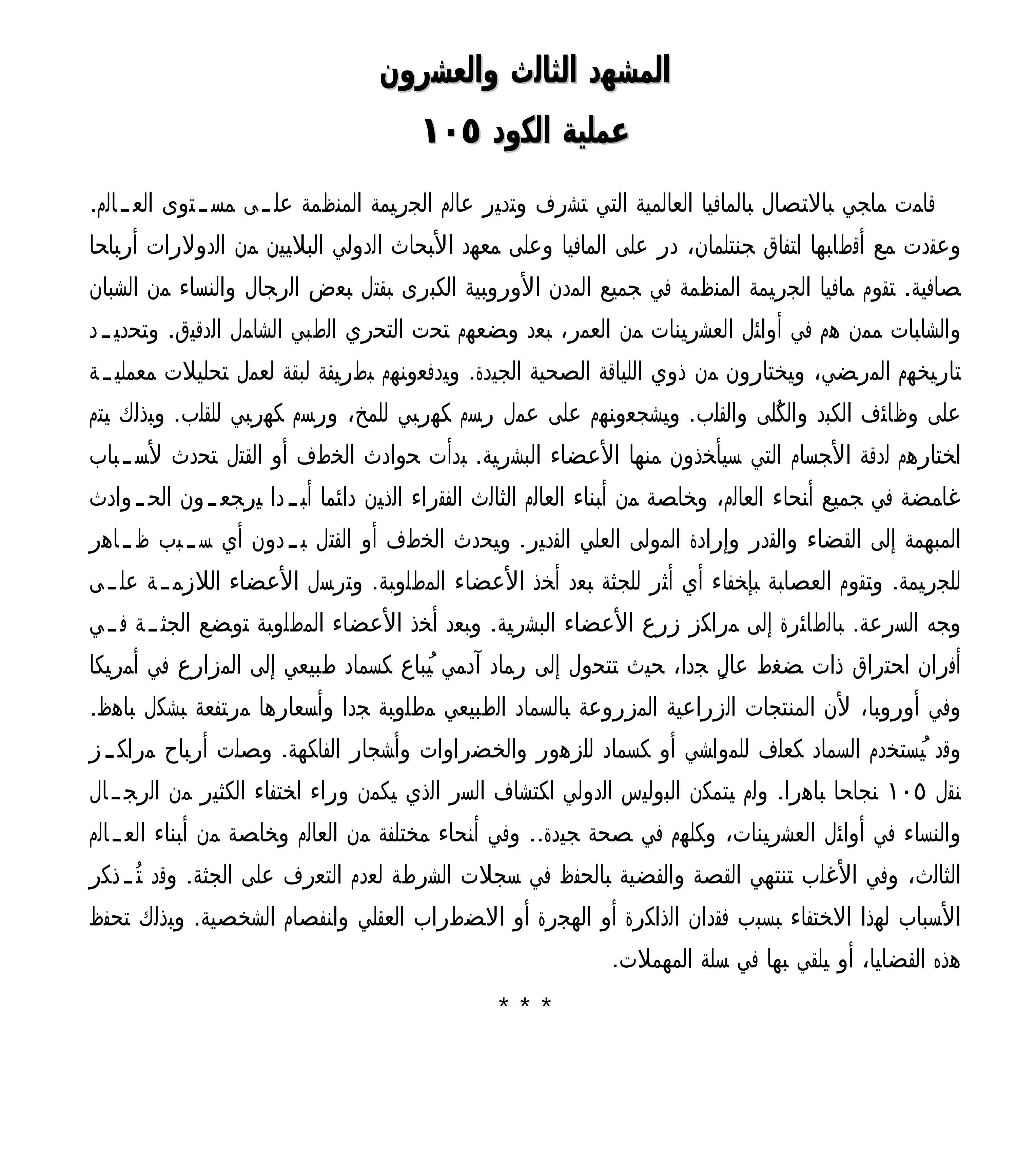
* * *

المشهد الثاني والعشرون
العلم الحديث قوة هائلة إذا استغلت للتدمير
فقد تكون أكبر لعنه على بني الإنسان

أُحيطت العملية العلمية كود ٣٠٤ والعملية كود ١٠٥ بالسرية المطلقة، حيث إن المشكلة الكبرى في مراكز نقل الأعضاء - كانت ومازالت – في صعوبة الحصول عليها لندرتها، مع الزيادة الهائلة في الطلب عليهـا. وكـان نشاط هذه المراكز يقوم أساسا على هبات بعض فاعلي الخير. أو حوادث الطريق المفجعة. ولقد قـام الـدكتور برنارد ألبا، باقتراح في جميع أنحاء العالم، سواء كان يعرفهم أو كان يعمل معهم ويثق فيهم، فهو يقوم بـإغرائهم بالمال. وبما أن الذهب الأصفر الرنان هو الإله الوحيد الذي يتعبد له الناس في كل مكان، فقد سهل عليه شـراء ضمائرهم. وانضموا إلى الفريق الطبي الذي يرأسه. وهذا الفريق يقوم بعمله في سرية تامة. وكان هناك مـوت مفاجئ أثناء إجراء العملية، بسبب زيادة طفيفة في كمية المخدر قد تؤدي إلى توقف القلب عن الخفقان. وغالبا ما يكون الجراح من أعضاء هذه الجمعية المتاجِرة في الأعضاء البشرية. ونجح الدكتور المشهور في تنظـيم هـذه العصابات الطبية على مستوى العالم كله، وتقوم هذه الجمعيات بقتل المرضى أثناء إجراء العمليات البسيطة. وذلك بثقب أنابيب الأكسوجين المركزي الموصل إلى جهاز التخدير، وتوصيل أنبوبة الأكسوجين إلـى أسـطوانة أول أكسيد الكربون. وتكررت حوادث الموت المفاجئ بدون سبب واضح. ويُفاجأ أخصائيو التخدير بازرقاق المريض وتوقف القلب فجأة عن الخفقان. ثم يُذكر سبب الوفاة.. هبوط حاد بالقلب. وتنقل الجثة إلى المشرحة أو إلى المعمل الباثولوجي. طبيب مشهور وله مكانته ويكون - أيضا - عضوا في العصابة الدولية لسرقة الأعضاء البشـرية. وتؤخذ الأعضاء حسب المطلوب (الكبد - الكلية - القلب) وتوضع فورا في محاليـل خاصـة للحفـاظ علـى الأعضاء. وترسل فورا بالطائرات للطالب في أي مكان من العالم. أما الجثة فتعالج بأرقى الوسائل العلمية حتى لا يكتشف أهل المريض ما حدث لذويهم. وتُسلم الجثة إلى أهل المتوفى بدون الأعضاء المسروقة والتي أرسلت إلى مكان آخر. ويذكر الجراح لأهل المريض أنه كان من الضروري عمل فحص تشريحي للجثة حتى يتأكدوا مـن سبب الوفاة تحقيقًا للفائدة العلمية ولمنفعة بني البشر. ولقد ساعدت هذه العمليات الإجرامية علـى زيـادة هائلـة وملموسة في أرباح بعض مراكز نقل الأعضاء البشرية. ولكن قد تم اكتشاف البعض من هذه العصابات الطبيـة المنظمة. ويرجع الفضل الأكبر في اكتشافها إلى ثورة بعض الشبان الأطباء في المملكة المتحدة من ذوي الضمائر الحية، والذين لم ينفع معهم إغراء الذهب الأصفر الرنان وقاموا بتتبع الحالات التي تمـوت فجـأة فـي غـرف العمليات بدون سبب واضح وبدون سبب ظاهر. وتم فعلاً القبض على بعض الأطباء. وتم- أيضا - لفت أنظـار الناس إلى مخاطر استعمال الأسلوب العلمي بدون مراعاة الناموس الأخلاقي. والاجتماعي. وكان لهذا الاكتشاف ضجة كبرى في الولايات المتحدة الأمريكية. ولهذا صدرت تشريعات قانونية كثيرة لتنظيم عملية نقل الأعضـاء البشرية.. ولقد تم فعلاً القبض على بعض من هذه العصابات الطبية. وتنبه الرأي العام في كل مكان إلى أهميـة وضع مراكز نقل الأعضاء تحت الرقابة الشديدة والدقيقة. وهكذا فشلت هذه الطريقة لتوفير الأعضـاء البشـرية المطلوبة. ولهذا قام المركز الذي ترأسه ماجي كالفن بدراسة بدائل أخرى لتوفير المطلوب. وقامت ماجي كـالفن بعمل دراسة وافية مستفيضة. ونجحت في تنظيم العملية الجديدة التي أطلق عليها عمليـة الكـود ١٠٥ لتـوفير الأعضاء المطلوبة، حتى يستمر مركز الأبحاث الدولي في نشاطه المحموم.

المشهد الثالث والعشرون

عملية الكود ١٠٥



قامت ماجي بالاتصال بالمافيا العالمية التي تشرف وتدير عالم الجريمة المنظمة على مستوى العالم. وعقدت مع أقطابها اتفاق جنتلمان، در على المافيا وعلى معهد الأبحاث الدولي البلايين من الدولارات أرباحا صافية. تقوم مافيا الجريمة المنظمة في جميع المدن الأوروبية الكبرى بقتل بعض الرجال والنساء من الشبان والشابات ممن هم في أوائل العشرينات من العمر، بعد وضعهم تحت التحري الطبي الشامل الدقيق. وتحديد تاريخهم المرضي، ويختارون من ذوي اللياقة الصحية الجيدة. ويدفعونهم بطريقة لبقة لعمل تحليلات معملية على وظائف الكبد والكُلى والقلب. ويشجعونهم على عمل رسم كهربي للمخ، ورسم كهربي للقلب. وبذلك يتم اختارهم لدقة الأجسام التي سيأخذون منها الأعضاء البشرية. بدأت حوادث الخطف أو القتل تحدث لأسباب غامضة في جميع أنحاء العالم، وخاصة من أبناء العالم الثالث الفقراء الذين دائما أبدا يرجعون الحوادث المبهمة إلى القضاء والقدر وإرادة المولى العلي القدير. ويحدث الخطف أو القتل بدون أي سبب ظاهر للجريمة. وتقوم العصابة بإخفاء أي أثر للجثة بعد أخذ الأعضاء المطلوبة. وترسل الأعضاء اللازمة على وجه السرعة. بالطائرة إلى مراكز زرع الأعضاء البشرية. وبعد أخذ الأعضاء المطلوبة توضع الجثة في أفران احتراق ذات ضغط عالٍ جدا، حيث تتحول إلى رماد آدمي يُباع كسماد طبيعي إلى المزارع في أمريكا وفي أوروبا، لأن المنتجات الزراعية المزروعة بالسماد الطبيعي مطلوبة جدا وأسعارها مرتفعة بشكل باهظ. وقد يُستخدم السماد كعلاف للمواشي أو كسماد للزهور والخضراوات وأشجار الفاكهة. وصلت أرباح مراكز نقل ١٠٥ نجاحا باهرا. ولم يتمكن البوليس الدولي اكتشاف السر الذي يكمن وراء اختفاء الكثير من الرجال والنساء في أوائل العشرينات، وكلهم في صحة جيدة.. وفي أنحاء مختلفة من العالم وخاصة من أبناء العالم الثالث، وفي الأغلب تنتهي القصة والقضية بالحفظ في سجلات الشرطة لعدم التعرف على الجثة. وقد تُذكر الأسباب لهذا الاختفاء بسبب فقدان الذاكرة أو الهجرة أو الاضطراب العقلي وانفصام الشخصية. وبذلك تحفظ هذه القضايا، أو يلقي بها في سلة المهملات.

* * *

المشهد الرابع والعشرون
مراكز السعادة والحب

أخطرت ماجي بموعد الاجتماع مع حكماء صهيون (حكماء اللودج) الموعد الذي عُقد بعد حوالي عـامين من الاجتماع الأول، مكان انعقاده في سفينة فضاء تدور في مدار القمر في المكتب البيضاوي الفضائي، وذلك ضمانًا للسرية التامة. سعدت ماجي بالثقة الكبيرة التي اكتسبتها، حيث لا يُسمح بالحضور إلا لحكماء اللـودج السبعة فقط. ذهبت إلى ولاية Texas الأمريكية، حيث توجد محطة سرية أنشأتها جمعية بنائي إخوان ماسون للسفر بين الكواكب.

ُأدخلت ماجي إلى محطة إرسال خاصة. ووقفت أمام محطة إرسـال لتحويلهـا إلـى موجـات إليكتـرو مغناطيسية. وهذه آخر صيحة في السفر بين الكواكب - أي بطريقة السفر الإليكتروني- حيث يسافر الإنسان على هيئة الإليكترونات وفي جزء من الثانية استُقبلت ماجي في محطة استقبال خاصة. وجدت ماجي كـالفن نفسها في المكتب البيضاوي القضائي مع حكماء بني صهيون. وعند وصولها ُأعطيت كأسا من شراب خاص يعيد لها توازنها العقلي والجسدي، وكذلك مضاد للتأثيرات الضارة المترتبة عن السفر بين الكواكب والسـفر في سرعة الضوء. وجدت نفسها وجها لوجه مع حكماء بني صهيون الذين يحكمون العالم، في حجرة وردية اللون يوجد بها هيكل نبي ا النبي سليمان - الذي كان يعلم لغة الطيور والنمـل والحيوانـات - شـاركتهم الصلاة في محراب الملك سليمان، وسجدوا جميعا أمام تمثال نبي ا سليمان الحكيم المصنوع مـن الـذهب الخالص.

بعد الانتهاء من طقوس الصلاة قرأت ماجي كالفن التقرير الخاص الذي وضعته عن أحسن الأساليب لتنفيذ M ١٥. حيث صدر قرار الحكماء السبع بتعيينها المشرفة على هذا المشروع الحيوي جـدا للجمعيـة. أمـا تفاصيل المشروع فقد ُأعطيت لها مباشرة من الكمبيوتر الخاص إلى خلايا مخها مباشرة، بدون أي كلمات أو حروف منطوقة أو مكتوبة. أنها عملية نقل الأفكار مباشرةً من عقل الحكماء إلى عقل الكومبيوتر إلى عقـل ماجي كالفن، بواسطة موجات الليزر الخاصة بنقل الأفكار. ووصلت كل المعلومات الخاصة بعمليـة M ١٥ إلى خلايا مخ ماجي كالفن مباشرة.

وافقت ماجي فورا على القيام بهذه المسئولية الخطيرة. وظهر على وجهها علامات الحبـور والسـعادة. انتهى الاجتماع. وقف كل من حكماء صهيون أمام محطة الإرسال الخاص به والتـي لا تعمـل إلا ببصـمة الصوت الخاصة بالعضو، واكتشفت ماجي هذه المرة أنها لم تسافر بجسمها ولكنها تحولـت إلـى الموجـات الإليكترو مغناطيسية، وأنها تحولت في محطة الاستقبال إلى جسم آدمي. ووجدت ماجي نفسها فـي مكتبهـا الفاخر المريح. وتناولت شرابا خاصا يعيد للروح والعقل والجسم اتزانه وإيقاعه. نامت ثلاثة أيـام متتاليـة. السفر الإليكتروني مُرهق جدا. استيقظت في كامل حيويتها ونشاطها. تناولت كوبا كبيرا من القهوة السـوداء بالقشطة والحليب الطازج مع قطعة Croissant ساخنة أخذتها من الفرن الكهربي.

بدأت ماجي في التنفيذ والتنظيم والإعداد لثاني عملية كبرى في حياتها في جمعية بنائي ماسون. الحياة مسرح كبير. وما الحياة إلا موقف تحدٍ. وأخذت تردد شعار حياتها لترفع معنوياتها: (الهروب من مواجهة التحديات هو الموت بعينه. عِش في خطر. عِش في وسط الإعصار. عِش في أعماق العاصفة. هذا هو سر الحياة السعيدة. احذر من السكون. احذر من الخمول والهدوء. وما الحياة إلا قتال الجن والإنس في الفكر والروح. الرقص على حافة الهاوية أعلى مراتب الوجود.)...

ومرت الأيام. بدأت ماجي في تنفيذ عملية ١٥ M. وهي العملية الخاصة بمافيا الدعارة العالمية. التي تربح الأموال الطائلة من التجارة في الرقيق الأبيض. وجوهر الرأسمالية وخاصة في مرحلة الشركات عابرة القارات. هو تحويل كل شيء إلى سلعة تباع وتُشترى. فالنساء في نظر هذه الشركات العالمية ليسوا إلا مجرد اللحم الأبيض. سلع تباع وتشتري بالدولار الأمريكي. أما القيم الروحية فقد توارت خجلاً.

اتصلت ماجي بالأستاذ Master and Jonson. وهو الأستاذ الذي أحدث أكبر ثورة في القرن العشرين المعروفة باسم ثورة الجنس... ذهبت ماجي إلى نيويورك لمقابلته في المؤسسة التي شادها في نيويورك في الولايات المتحدة الأمريكية، وقابلته في مكتبه بعد تحديد موعد المقابلة. أخبرته أنها قامت بدراسة عميقة لكتبه وتجاربه في الحياة الجنسية لدى البشر، وأن هذه أول مرة في التاريخ الإنساني حسب معلوماتها يُدرس الجنس دراسة علمية. أسوة ببافلوف الذي أحدث أكبر ثورة في علم وظائف الأعضاء (الفسيولوجيا) عندما درست الجهاز الهضمي لدى الإنسان، واكتشف رد الفعل المشروط أي The Conditioned reflexes. ويعتبر بافلوف مؤسس علم وظائف الأعضاء أي علم الفسيولوجي. الذي أحدث أكبر ثورة في تاريخ الطب الحديث. والمؤسسة المعروفة في نيويورك تحت اسم (مؤسسة ماستر وجونسون) لدراسة النشاط الجنسي لدى الإنسان، ومؤسسة ماستر وجونسون تقوم على علاج عدم التوافق الجنسي المنتشر حاليا في البلاد الصناعية الغربية وفي أمريكا. وبعد الدراسة العميقة لمؤلفات المستر جونسون وبعد الاستماع إلى محاضراته التي كان يلقيها في معهده على طلبته الراغبين في التخصص في فرع الطب التناسلي والإخصاب. قامت ماجي بتغيير فلسفة مؤسسة الدعارة العالمية، حيث إن مافيا الدعارة العالمية تعتبر من الشركات عابرة القارات، والتي يتجاوز رأسمالها ميزانية الولايات المتحدة العالمية. وقامت ماجي بنقل أفكار المستر ماستر وجونسون إلى الفتيات المومسات التي وقع عليهن اختيارها، ليعملن في بيوت الحب والاسترخاء، التي أقامتها في الكثير من مدن أوربا وأمريكا وفي جنوب شرق آسيا. وكانت ماجي ترسل المومسات الجدد إلى نيويورك لدراسة الجنس في مؤسسة ماستر وجونسون لفترة شهر واحد، حسب اتفاقها الذي عقدته مع المؤسسة. وذلك نظير رسوم التحاق تُدفع بالدولار الأمريكي. وكانت ماجي ترفض إلحاق أية فتاة من فتيات الهوى في مؤسستها بدون الشهادة الصادرة من مؤسسة ماستر وجونسون. وباجتياز هذه الفتاة الامتحان بنجاح وتقوم أفكار المؤسسة على أن الجنس والحب هما فن عظيم خلاق، وأن الدعارة هي أول مهنة إنسانية بل أقدمها، وأنها من أرقى الأنشطة الخلاقة لبني البشر. وما الجنس إلا فن العمل على إسعاد الآخرين.

بدأت ماجي في الاستغناء عن المومسات القدامى اللاتي أكل الدهر عليهن وشرب. ونجحت عبقرية مـاجي في إحداث أكبر تغير في ثقافة وفلسفة أقدم مهنة ظهرت على كوكبنا الأرضي. وقطعت صلة مؤسسـة الحـب والاسترخاء بمراكز الدعارة القديمة. بدأت في إنشاء سلسلة عالمية في كل المدن الكبرى، في جميع أنحاء الكرة الأرضية. وجندت ماجي فتيات وفتيان جامعيين. وتُعتبر المؤسسة التي أنشأتها مؤسسـة عـابرة للقـارات، لا يُعرف مقرها الرئيسي وتتعدى حدود القوميات والأوطان، ولا ترتبط بقومية معينة أو وطن محدد. وهذا هو سر قوتها ومرونتها وحيويتها، بحيث يصعب جدا على أية دولة مقاومتها أو تصفيتها أو إخضاعها لطائلة القـانون. وبدأت ماجي في تغذية المؤسسة عابرة القارات بآلاف الفتيات من ذوي الثقافة العالية. وتقوم المؤسسة بإرسالهم أو إرسالهن إلى مؤسسة ماستر وجونسون في نيويورك. ليتعلموا ويدرسوا بأسلوب علمي تجريبي فـن الحـب والجنس دراسة علمية دقيقة. ونجحت ماجي العبقرية في تحويل المؤسسة من تجارة تدر علـى بنـائي إخـوان الماسون الملايين إلى تجارة تدر البلايين من الدولارات الأمريكية. ونظمت لفتياتها وفتيانها الفحـوص الطبيـة اللازمة، حتى تتجنب العاهرة أو العاهر الإصابة بأي مرض جنسي تناسلي. وفي الاجتماعات الشـهرية التـي كانت ماجي تعقدها مع العاملين من فتيات وفتيان، كانت تركز على توصيتهم بأن ممارسة الحـب تعتبـر فنّـا لإعطاء السعادة للآخرين - السعادة النفسية والسعادة الجسدية - وأن السعادة الجنسية قد تساعد في شفاء الكثير من الأمراض النفسية التي انتشرت في أوقاتنا الحديثة في العالم الصناعي المتحضر. مثـل مـرض الاكتئـاب والهوس وانفصام الشخصية والكثير من الأمراض العضوية الأخرى. وكانت التعليمات الواضحة للعاملين، هي العمل على إسعاد العميل أو إسعاد العميلة. وكانت ماجي بناء على توجيهات المستر ماستر وجونسون تعلمهـم الطرق الجنسية المتنوعة، ومميزات وعيوب كل طريقه، وخاصة بالنسبة إلى شكل وقوام الجسد، وأن أي وضع مباح، والممنوع الوحيد في مراكزها هو استعمال القسوة والعنف. وفي كل حجرة على مستوى العـالم وفـرت كاميرات خفية، تستطيع ماجي من خلالها مراقبة - عن كثب - كل ما يجري في مراكز العلاج الطبيعـي (أي بيوت السعادة والاسترخاء الجسدي والنفسي). ونجحت في تغيير فلسفة الدعارة تغييرا جذريا. وتنص تعليماتهـا الصادرة إلى العاملين والعاملات" على أن هدف المومس الوحيد هو إعطـاء السـعادة للآخـرين، وأن نجـاح المومس في مهمتها لا يقاس إلا بمقدار اشتراكهن الفعلي النشِط بكيانهن كله- أي بالروح والجسد - في تفاعـل كامل مع الزبون، حتى يصل الزبون أو الزبونة إلى ذروة الشبق وقمة الشهوة. والشعار الذي علقته في جميـع غرف مراكزها للعلاج الطبيعي هو: (فن الحب الحقيقي هو المشاركة النشِطة الديناميكية لجسـد وروح وعقـل إنسان مع جسد وعقل إنسان آخر). وأنشأت في كل مراكز السعادة والحب حجرة المرايا أو حجرة الأوهام، لكي ترضي كل أنواع النزوات النفسية والروحية والجسدية. وفي حجرة المرايا التـي ابتـدعتها عبقريـة مـاجي استطاعت تحقيق وتجسيد كل الأحلام والأوهام، التي تتفاعل في أعماق العقل الباطن وفي دروب النفس البشرية للكثير من الرجال والنساء. وساعد هذا على شفاء الكثيرين من أنواع كثيرة لأمراض النفس والـروح. ولكـن طبعا كل حاجة بثمنها. غيرت الأسعار فأصبحت غير ثابتة. وقد تصل الساعة في غُرف المرايا إلـى خمسـة آلاف دولار أمريكي. أما في الحجرات العادية فلا يتجاوز ثمن الساعة الألف دولار ونجحت ماجي فـي نشـر الثورة العلمية الجنسية التي حدثت في القرن العشرين، بفضل أبحاث المستر ماستر وجونسون، في كل مراكـز الحب التي أقامتها على مستوى العالم.

ودائما أبدا لا تمل ماجي من تكرار شعار: "الحب هو المشاركة النشطة في خلق السعادة والبهجة في هـذا الكون. وكانت أوامرها واضحة لكل مديري المراكز، وهي العمل على تحقيق وتجسيد كل ما يحلم به الزبائن من رجال ونساء. وشعارها الوحيد الذي تعلنه دائما: (لا شيء ممنوع إلا العنف. لا شيء شاذ إلا القسوة. كل شيء بثمنه). وبذلك نجحت ماجي كالفن في تحويل فن الدعارة إلى فن راقٍ رفيع خلاق، يقوم على أحدث ما وصل إليه العلم الحديث.

* * *

المشهد الخامس والعشرون

صناعة وتجارة إكسسوارات الجنس

أنشأت ماجي كالفن صناعة دقيقة في الولايات المتحدة وفي أستراليا مراكز صناعية لتصنيع أحدث ما وصل إليه العلم على ضوء توجيهات المستر ماستر وجونسون، وهما أكبر وأعظم أخصائيين فـي دراسـة الجـنس والحب دراسة علمية تجريبية. وأشرف ماستر وجونسون على هذه الصناعة الجديدة نظير نسبة خمسة وعشرين في المائة من صافي المبيعات. وتباع هذه الإكسسوارات الجنسية في كل مراكز العلاج الطبي في جميـع بـلاد العالم المتقدم، وفي أكبر المراكز الصناعية في أوروبا وأمريكا. وأسعارها مرتفعة جـدا وباهظـة التكـاليف. واخترع ماستر وجونسون في مؤسستهما قضيبا صناعيا يعمل ببطارية صغيرة جدا، ويساعد الرجـال الـذين فقدوا القدرة على الانتصاب (مرض العُنة). كذلك يساعد النساء الغير متزوجات على الاستمتاع بالنشاط الجنسي بدون الحاجة إلى رجل، وبذلك أمكن النسوة الاستمتاع بالنشاط الجنسي بدون المشاكل الاجتماعية المترتبة على ممارسة الحب خارج نطاق الشرعية الاجتماعية. وخاصة في العصر الحديث الذي ركز فيه النساء في جميـع بلاد العالم على العمل في كل الأعمال الإنسانية. وركزوا - أيضا - في الحصول على أعلى الدرجات العلمية، وبذلك ابتعدوا عن الحياة التناسلية وارتباطها بكثرة الإنجاب، مما يعوقهن عن الدراسة المستمرة والعمـل فـي المناصب القيادية. وكذلك ابتكر الأستاذ الدكتور ماستر وجونسون فَرجا صناعيا، وأنثى صـناعية لهـا أرداف مغرية وثدي مكتملُ النمو، وتُصرف الأنثى الصناعية على البحارة الذين يعملـون فـي البحريـة الأمريكيـة والأوروبية. وهذه الأنثى الصناعية لها فَرج صناعي وفي إمكانها الغناء أثناء عمليـة الحـب. وهـذه الأنثـى الصناعية تعمل بأشعة الليزر. واستخدمتها الإدارات الأمريكية في الرحلات الطويلة، حتى لا يصـاب البحـارة بأمراض نفسية مثل الاكتئاب النفسي. وبذلك أمكن التغلب على الآثار الجانبية المترتبـة علـى الابتعـاد عـن المجتمع الإنساني لمدة طويلة. وبعض البحارة في البحرية الأمريكية اعترفوا أنهم يفضلون المرأة الصناعية عن ممارسة الحب مع المومسات، نظرا لما يرتبط بهن من أمراض تناسلية؛ مثل الزهري ومرض نقـص المناعـة المكتسب والذي لا علاج له إلى الآن. والمرأة الصناعية هذه ابتكرها ماستر في مؤسساته وباعها لماجي كـالفن لتجربتها في مراكزها الخاصة بالحب والاسترخاء. وثبت لماجي قدرة هذه المرأة الصـناعية علـى التجـاوب الكامل مع رغبات الرجال والنساء. وهذا الروبوت الأنثوي أو الذكري يعمل بأشعة الليـزر، ولا يقـل براعـة ومهارة عن المرأة البغي الحاذقة. وقد زادت أرباح الشركة العملاقة عبارة القارات زيادة هائلة، بفضل عبقريـة ماجي كالفن التخطيطية. كذلك أنتجت ماجي أفلام فيديو لأنواع الحب وممارسته المتنوعة وباعتها فـي جميـع أسواق العالم المتمدن بأسعار مرتفعة جدا، وتغلبت بذلك على الأزمة الخانقة التي حدثت في مراكزهـا بسـبب انتشار مرض الإيدز وصعوبة الوقاية منه. كذلك نجحت ماجي كالفن في فتح قنوات فضائية متخصصـة فـي الاستمتاع الجنسي عن طريق الأقمار الصناعية، وكذلك تفوقت ماجي على نفسها ووهبت السعادة إلى الملايـين المحرومين من أية فرصة لممارسة الحب وبعيدا عن مشاكل الحمل والاغتصـاب الـذي انتشـر فـي العـالم الصناعي المتحضر بشكل ملحوظ، وخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية. و قد ثبتَ من الإحصـائيات التـي أجريت على مجموعات المساجين والبحارة أن نسبة الأمراض التناسلية قد قلت بشكل ملحوظ، وكـذلك نسـبة الأمراض النفسية وأنواع الشذوذ الجنسي بين الذكور والإناث. وخاصة بين الشباب والشابات.

المشهد السادس والعشرون

ميريام في روما

ترغب في مشاهدة أمها وقد بلغت العاشرة

فجأة اتصل بها صديقها القديم الأب الصالح أو الراعي الصالح. وأخبرها بأن ميريام ابنتها ترغب في رؤيتها. ماجي كانت نست أو تناست كل ما يتعلق بميريام، في وسط إعصار النجاح الهائل الذي أحرزته. ولم يكن يُسمح لميريام برؤية ماجي إلا كل خمسة سنوات. ولمدة لا تتجاوز أياما معدودات، لأن الكنيسة الكاثوليكية كانت تدرك - تماما - طبيعة عمل ماجي. وفضلت تجنيب ميريام أية مؤثرات خارجية قد تُلحق الضرر بتطور شخصية ميريام. ولكن ماجي كانت الكنز الثمين النادر للكنيسة. تبرعات ماجي للكنيسة في روما تبلغ الملايين الدولارات. وهكذا تحدد موعد المقابلة مع ابنتها ميريام في فندق كلاريدج في لندن، في الجناح الخاص الذي حجزته ماجي كالفن.

أمرت ماجي كالفن الطيار الذي يقود طائرتها الخاصة بالاستعداد للسفر على لندن في رحلة قد تستغرق أسبوعا كاملاً. ذهبت ماجي إلى كنيسة الأب الصالح. قابلته. جثت على ركبتيها ولثمت الخاتم الألماس الذي يرصع يده اليُسرى. وتوسلت إلى جنابه أن يسمح لميريام بالبقاء معها لمدة عشرة أيام، لأنها لم ترها منذ خمسة سنوات. وأخبرته أن مريام هي الحب الوحيد الباقي لها في الحياة. وافق الأب الطيب واتصل بمدرسة الراهبات في روما وأقنع الأم تيريزا المشرفة على المدرسة. ووافقت مضطرة، ذلك لحرصها الشديد على تجنيب ميريام لأية مؤثرات خارجية قد تكون ضارة، ولعلمها أن ماجي قد تبرعت بعشرة مليون دولار أمريكي لبناء مستشفى لخدمة الراهبات الكاثوليك. شكرها الأب الصالح، وتألق وجهه بالسعادة والبهجة، حيث عزم على قضاء يوم كامل في غرفة المرايا في مركز السعادة الروحية الذي أنشأته ماجي بالقرب من كنيسته. وليس على الروح وحدها يحيا الإنسان. وأقنع الراعي الصالح نفسه بأن هذه نقرة وتلك نقرة. وأن الجسد - أيضا - في حاجة إلى الراحة. وفلسفة الأب الصالح في غاية البساطة: (سعادة الروح قد تؤدي إلى سعادة الجسد. وصحته. وصحة الجسد وسعادته تؤدي - أيضا - إلى بهجة واستقرار الروح. أي أنها عبارة عن تغذية ذاتية متبادلة ارتدادية بين الروح والجسد). واعترف لنفسه بأنه قد وجد السعادة كلها، الروحية والجسدية في غرفة المرايا في مركز السعادة الذي شيده خيال ماجي كالفن العبقري. ولكن من أين له دفع هذا الثمن الغالي..؟؟.. لقد تكاف المئات من الدولارات لقضاء وقت قصير في غرفة المرايا. ولكن ماجي كالفن الذكية التي تُكن له كل احترام وتقدير وحب، وضعت له في حسابه في مركز السعادة في سدني مبالغ كبيرة حتى يتمكن من الذهاب إلى غرفة المرايا في أي وقت يشاء. إذ أنها لم تنس له أنه وقف معها في أسوأ أيام حياتها. وأنه هو الذي أنقذها من الغرق المحقق في معترك الحياة. ولهذا قررت توفير كل أسباب السعادة له، وإرضاء كل نزواته الجنسية الشاذة ونزواته الطبيعية. وكانت تؤمن بأن السعادة الجسدية قد تكون أقصر الطرق لسعادة الروح وانشراح النفس.

ماجي كانت في طريقها إلى لندن. السعادة في قلبها. البهجة في أعماق روحها لأنها ستقابل ابنتها ميريام الحب الوحيد في حياتها. الذكريات تجري في خيالها. تذكرت عش الحب الذي بنته مع فكري الزيني فوق أجنحة طائر النورس الممتدة، وهو يطير فوق السحاب طائر النورس الذي مد أجنحته ونام فوق السحاب. تذكرت حبها الوحيد. تذكرت قلبها الذي دفنته في القبر مع فكري في مقابر الصدقة في ماليزيا. تذكرت رفضها القيام بأية عملية إجهاض للجنين، مع أن الدكتور أخصائي النساء والتوليد قد وافق على إجراء العملية في المستشفى. تذكرت كيف صممت على الاحتفاظ بثمرة حبها الأول والأخير، الذي فاجأ حياتها كالإعصار الجارف الذي زلزل حياتها.

حقًا الحياة قدر. البسمة قدر. الدمعة قدر. وما الحياة إلا الحركة الدائمة المتناقضة دائما، وأبدا في العالم الخارجي ومع نفسها من قطب إلى قطب، ومن نقيض إلى نقيض. والأيام من الزمان حُبالى مثقلاتٌ.. يلدن كل عجيبة...؟ وما الحياة إلا قصة رواها معتوه؟ تذكرت نعش فكري الزيني الذي حمله الرجال فوق أكتافهم، وألقوه في مدافن الصدقة. تذكرت الأناشيد التي كان يرتلها السائرون خلف النعش:

- (ا الدايم. هو الدايم. ولا دايم غير ا .)

وصلت الطائرة إلى مطار هيثرو في لندن. واستيقظت ماجي من أحلام اليقظة الحلوة والمرة.، عقدت العزم على توطيد أواصر صلتها العضوية بميريام. وجدت ميريام في استقبالها في الجناح الذي حجزته. كانت في ملابسها المميزة الخاصة بمدرسة الراهبات في روما. البراءة كلها في وجهها. الجمال كله في وجهها. الحيوية المتدفقة من عينيها. عيناها تشبه - تماما - عيني والدها الدكتور فكري. جسمها فارع الطول. تجاوزت سنها بمراحل، شعرها الناعم الحريري الملمس في ضفيرتين تصل إلى أسفل ظهرها. أخذت ميريام في حضنها بالأعناق والقبلات. طبعت على وجهها آلاف القبلات. ماجي بكت من شدة التأثر ومن الانفعال الشديد في أعماق نفسها. ميريام ابنتها وابنة فكري الزيني في أحضانها. ثمرة حبهما الجارف. إعصار الحب المتدفق الذي اقتلعهما من أقدامهما. تذكرت التحام جسدها وجسده وروحها وروحه في كيان واحد وفي وجود واحد. حقًا الحياة مسرح كبير. ميريام بادلت أمها الحب بالحب. الحب والحنان وكل العواطف الصادقة انبثقت وتدفقت تلقائيا من قلب ماجي ومن قلب ميريام. وسعدت ميريام السعادة كلها بمقابلة أمها. وسعدت ماجي بابنتها التي شبت عن الطوق ونمت وترعرعت مثل شجرة البلوط الفتية في أعلى جبال لبنان. ميريام لا تعلم عن أمها إلا أنها امرأة مشهورة جدا على مستوى العالم. وأنها استرالية الجنسية. وأخبرتها أمها أنها قد حصلت على موافقة الأم تيريزا على البقاء معها في لندن لمدة عشرة أيام كاملة. وصممت ميريام على النوم في غرفة أمها الفاخرة ومعها في سريرها العريض المزدوج. تناولا سويا كل الوجبات. ذهبوا إلى حديقة الحيوانات في لندن التي تعتبر من أشهر حدائق العالم. لاعبت القردة. أعطتهم الكثير من الفول السوداني والبندق. ركبت الفيل. أخذت مع أمها الكثير من الصور. استمتعت ميريام حقًا بمرافقة أمها. في المساء رافقت أمها لمشاهدة مسرحية هاملت لشكسبير. وفي اليوم التالي ذهبوا لمشاهدة المتحف البريطاني. وفي اليوم الثالث أعدت أمها لها مفاجأة مثيرة حيث ذهبوا بطائرتهم الخاصة إلى مصر، أمها قالت لها ضاحكة:

- "مصر أم الدنيا".

شاهدت ميريام الأهرامات وهي إحدى عجائب الدنيا السبع. زاروا معبد الكرنك في الأقصـر. وشـاهدت الصوت والضوء في معبد الكرنك ليلاً في ليلة قمرية. طبعا ميريام لم تكن تعرف أنها مصرية لحما ودما، أبا وأما، وأن والدها مصريا مائة في المائة. وأن أمها الرائعة الجمال الشقراء صعيدية من أسيوط. نجحت ماجي في حرق كل الملفات القديمة، ودمرت كل الجسور التي تربطها بالماضي الحزين، وداعا للماضـي. الأوراق الجديدة تثبت أنها استرالية أبا عن جد استرالية حتى النخاع. وبقوة المال وهو الإله الوحيد الذي يُعبـد فـي عالمنا. وبقوة المال وضعت لها الكنيسة ملفًا جديدا خاصا بها، تاريخ ميلادها في سدني باستراليا. وعرفـت ميريام أن مصر هي فجر الحضارة الإنسانية ومهدها. وذهلت ميريام عندما شاهدت الآثار الفرعونية الخالدة. ذهلت ميريام عندما شاهدت النيل العظيم. أحبت مصر بكل كيانها. أحبت شعب مصر الباسم ضاحك الوجـه خفيف الظل سريع النكتة. وفي الإسكندرية شاهدت أول معهد أبحاث علمية في تاريخ البشرية. كـذلك ثـاني أعجبوه من الأعاجيب السبعة وهي فنار الإسكندرية الذي بناه الإسكندر الأكبر أعظم شخصية فـي التـاريخ القديم. وتفاعلت ميريام مع التاريخ في مصر.

ولم تشعر ماجي بالسعادة، عندما عبرت ميريام عن رغبتها في البقاء ليوم آخر في مصر. وندمت مـاجي أشد الندم على إحضار ميريام إلى مصر، وخاصة عندما أعربت ميريام عن رغبتها في الالتحـاق بمدرسـة الكنيسة الكاثوليكية بالإسكندرية. حقًا أشباح الماضي لا تموت مهما حاولنا القضاء عليها. ولا شك أن أشـباح الماضي تُبعث دائما أبدا من جديد. الماضي لا يموت. بل يستمر في الحاضر وفي المستقبل، الآباء يـأكلون الحصرم والأبناء يدرسون. أشباح الماضي المظلم الكئيب تُبعث دائما أبدا من جديد.

في معبد الكرنك في ليلة قمرية ساحرة، وفي بهو الأعمدة الفرعونية العملاقـة. قالـت ميريـام ببـراءة وسذاجة:

- "ماما. ماما يا ريتني أنا مولودة في مصر."

مصر جذبتها. بتاريخها العريق. جذبتها مصر بمهد الحضارة الإنسانية، بحلاوتها، بالطيبة والحكمة علـى كل الوجود، وبسمائها الصافية من أي غيوم بشمسها المشرقة، بسمرة ماء النيل العذب، ثم بحـلاوة الـروح المصرية.

حزنت ماجي لهذا التطور المفاجئ. أغلقت على نفسها باب غرفتها. أخذت تبكي بكاء مُرا. قلبها الذي مات وجمدته من زمان خافت ماجي من عودة الروح إليه، خافت من عودة الحنان والخضرة إلى روحها. خافت من عودة البراءة والطهارة إلى كيانها، ومن عودة روحها للحياة من جديد. عزمت عزما أكيدا على قطع زيارتها لمصر في اليوم التالي. أصدرت أمرها لقائد طائرتها الخاصة بتجهيز الطائرة لرحلة إلى اليونان. سافروا على بلاد الحضارة الإغريقية.. وشاهدت ميريام الآثار الرائعة للحضارة اليونانية القديمة. أعجبت بمهد العلوم والفنون والفلسفة العقلانية، ولكنها لم تتفاعل معها كما تفاعلت مع الحضارة المصرية القديمة. بالرغم من أن أستاذ التاريخ اليوناني الذي رافقهما وصحِبهما في الفرجة على الأكروبول، أخبرهما بأن الحضارة اليونانية ما هي إلا امتداد بديع وخلاق للحضارة المصرية القديمة. حيث إن غالبية الفلاسفة اليونان قد وضعوا أسس العلوم الطبيعية على الأساس الذي شيده المصريون القدماء. وأن الحضارة اليونانية التي وضعت أسس كل العلوم الطبيعية والفلسفة العقلانية، ما كانت إلا على الأسس التي وضعها المصريون القدماء. أي أن الحضارة الإغريقية ما هي إلا امتداد للحضارة الفرعونية القديمة. ولكن ميريام لم تتمكن أبدا من فهم لماذا غضبت أمها الحبيبة عندما سألتها ميريام: لماذا لا نبقَى في مصر ثلاثة أيام أخرى: يا ريتني يا ماما اتولدت في هذه الأرض الطيبة، وشربت من ماء النيل الخالد!!.

بعد الرحلة إلى بلاد الإغريق عادوا إلى لندن. انتهت أيام السعادة القصيرة. عادت ماجي إلى مؤسسة السعادة والحب. عادت ماجي إلى مراكزها الخلاقة التي تجري فيها أول مرة في تاريخ الإنسانية الأبحاث العلمية على النشاط الجنسي التناسلي والخصوبة لدى الإنسان. وهذه أول مرة في تاريخ بني الإنسان، حيث يدرس الجنس بطريقة علمية موضوعية، وليس من خلال أية وجهة نظر اجتماعية أو أية أساطير أبدعها خيال الإنسان. وعادت ميريام إلى طفولتها السعيدة في مدرسة الراعي الصالح في روما. وحقًا.. صدق المثل الشعبي الذي قال:

- "والليالي من الزمان حُبالى مثقلاتٌ.. يلدن كل عجيبة".

* * *

المشهد السابع والعشرون

تجديد الميثاق بين ماجي والشيطان

منذ عودتها إلى منزلها بسدني في استراليا، وبعد رحلتها مع ابنتها ميريام إلى مصر واليونان، رقدت ماجي طريحة الفراش. أصيبت بنوبة حُمى شديدة وتشنج في جسمها كله، وصداع نصفي في رأسها. فحصها أكبر أخصائيي الحميات في أستراليا. أرسله لها توأم روحها الدكتور برنارد ألبا. لم يتمكن الأطباء من التوصل إلى تشخيص محدد. لم تتحسن حالتها بالرغم من العلاج المكثف والعناية الطبية الفائقة التي أحيطت بها. وبالرغم من الأدوية الكثيرة التي تناولتها، فحالتها حيرت أطباء أستراليا؛ هل هي حالة أنفلونزا مُخية؟ هل هي حالة التهاب سحائي وبائي في المخ.؟ أصيبت به في مصر ولم يظهر عليها إلا بعد وصولها إلى سدني؟. وبالرغم من كل الأطباء الكبار الذين أشرفوا على علاجها، فلم تتحسن حالتها، بل استمرت حالة الحمى والهذيان والغيبوبة. وترك توأمها الروحي الدكتور برنارد ألبا عمله الخاص، وأشرف بنفسه على تنفيذ علاجها. وكان ينام في الحجرة المجاورة. تنفيذًا لأمر حكماء إخوان ماسون. هل أصيبت ماجي بصدمة عصبية شديدة. نتيجة مقابلتها ابنتها ميريام في لندن؟ هل أصيبت ماجي بلعنة الفراعنة أثناء زيارتها الآثار الفرعونية؟. بسبب فيروس مخلق خلقه الفراعنة العظام في معاملهم؟. حيث ثبت أنهم وصلوا لدرجة عالية في مضمار العلوم والفنون، لحماية آثارهم من عبث الغرباء ولصوصهم. الحياة صندوق من الألغاز، صندوق من الألغاز داخل صندوق آخر من الألغاز. هكذا دواليك إلى ما لا نهاية من الألغاز مهما أوتينا من العلم. وما أوتينا من العلم إلا قليلاً. هذه هي حدود الإنسان. وهو كائن محدود بحدود الزمان والمكان الذي يعيش فيه. ينجح كل جيل من الأجيال في فك طلاسم صندوق. ويبتهج الإنسان ويفرح ويتصور أنه أخيرا اهتدى لسر الحياة الخالدة، وأنه توصل للمعرفة الكاملة، وأنه استوعب معنى الوجود الكُلي السرمدي، وأنه أدرك الحقيقة الكاملة، ولكنه يُصاب بخيبة أمل ويدركه الإحباط، ليدرك أنه لا نهاية لأسرار الحياة ولا حدود لألغازها. وأن الإنسان كائن محدود والوجود الكلي لا نهاية له في الزمان أو المكان، وأن الإنسان هو الذي له نهاية في الزمان والمكان. وعندما يقوم فريق العلماء والفنانين بفك طلاسم صندوق ما، فإنهم يكتشفون صندوقًا آخر أكثر منه إلغازا وأعمق منه صعوبة. والحياة والطبيعة لا نهاية لأسرارها وألغازها إلى ما لا نهاية في الزمان والمكان.

﴿ الرحمنُ * علم القُرآن * خَلَقَ الإنْسان * علمهُ البيان * الشمسُ والقَمرُ بِحُسبانٍ * والنجمُ والشجرُ يسجُدان * والسماء رفعها ووضع المِيزان * ألا تَطْغَوا فِي المِيزان * وَأَقيمُوا الوزن بِالقِسطِ ولا تُخْسِرُوا المِيزان * والأرض وضعها لِلأنَامِ * فِيها فَاكِهةٌ والنخْلُ ذَاتُ الأكْمامِ * والحب ذُو العصفِ والريحانُ * فَبِأَي آلاءِ ربكُما تُكَذبان﴾.... ﴿ قُل لو كان البحرُ مِدادا لكِلماتِ ربي لنَفِد البحرُ قبلَ أن تَنفَد كَلِماتُ ربي ولو جِئْنَا بِمِثْلِهِ ﴾ "صدق ا العظيم".

ودار صراع رهيب في قلب ماجي. معركة عنيفة في أعماق روحها. صراع رهيب عنيـف فـي الغابـة الكثيفة. غابة العقل الباطن (العقل اللاواعي) الذي اكتشفه العالم فرويد مؤسس علم النفس الحديث. صراع في أعماق روحها بين قوى الخير وقوى الشر طوال فترة مرضها، كان وجودها كله مسـرحا لهـذا الصـراع العنيف بين ا والشيطان؟ وساعدها على الشفاء، صديقها العجوز القديم، الذي صادقته منذ دُفن فكري الزيني في مقابر الصدقة في ماليزيا.

دق عليها الباب. داف إلى حجرتها بدون استئذان من أحد الزائر الغريب. كل الأبواب مفتوحة لـه. هـل اخترق الحائط؟. أم دخل من الباب؟. طويل القامة. مارد عريض الأكتاف. أشقر الشعر. له عينان واسـعتان تدرك كل شيء عيناه في زرقة مياه البحر الكاريبي. بدلته ردِنجُوت مقلمة سوداء مع خط رمـادي غـامق. رباط العنق حريري فاخر مرسوم عليه النجمة السداسية لبِني صهيون. وعلى وجهه بسمة ساخرة تشد انتباه الناس بالرغم عنهم. سار بخطوات ثابتة وئيدة واثقة ودلف إلى الغرفة بهدوء. جلـس علـى الفـراش بجوارها بدون استئذان. أشعل غليونه الفاخر المصنوع من خشب الأبنوس الثمين. الحجرة كلها أُضيئت بنور وردي خافت يشع من كل مكان؛ من الحائط ومن السقف، لا تستطيع تحديد مصدره. موسيقى رائعة تنبعـث من الوجود كله، من كل الأشياء. ماجي أصابها الفزع والرعب. هل هي في حلم غريب؟ هل هي فـي حلـم عجيب؟ هل ينتابها كابوس مخيف؟ هل جاءت نهايتها؟. هل جاء عزرائيل لتحصيل صك اسـتلام روحهـا. كيف دخل الرجل الغريب غرفتها في قصرها المنيع؟. كيف غافل الحراس؟ كيف اخترق الحائط؟. والأبواب الموصدة، والمحروسة بأرقى وأقوى فِرق أمنٍ في العالم. وفرق الأمن هذه على مستوى فرق الأمـن التـي تحرس الرجل الذي يحكم أمريكا من البيت الأبيض. نظر إليها الرجل الغريب نظرات غريبة وعميقة نفـذت إلى أعماق روحها. نظرات عميقة نفذت إلى وجودها الروحي. اقتحم فكرها، عرفت ماجي اقتراب أجلها:

ماجي : من أنت؟ وصرخت بصوتٍ عالي جدا.. من أنت؟ وقد ارتعش كل جسـدها وانتابتهـا رجفـة شديدة أصابت كل جسدها، فأيقنت النهاية. وقُفل الستار على الفصل الأخير لحياتها القصيرة...

الزائر الغريب: (وقد ازدادت بسمته اتساعا، وتألقت عيناه بسحر جذاب خفي. وتألقت عيناه تألقًا غريبا.) لـم يرد عليها وازداد وجهه اقترابا منها.

ماجي : (وقد ازدادت رعبا وفزعا) لم تتمكن من الصراخ وطلب النجدة.

الزائر الغريب: هل نسيتني يا ماجي؟ ذاكرتك ضعيفة جدا. هل نسيتي الدين الكبير عليكِ؟ عليكِ دين كبيـر. جئت لكي أسترده. هل نسيت أنك قد عقدت معي عقدا وميثاقًا. وأخذت مني العهد فـي مـدافن الصدقة التي دُفن فيها حبيبك فكري الزيني. هل نسيت أنك قد بعت لي روحكِ. وتنازلت لي عن وجودكِ. لكي أهبك وأمنحك كل كنوز العالم كله. وأجعلك أقوى امرأة في العالم. لأجعـل منـك أغنى وأشهر نساء العالم أجمعين. ولقد حققت أنا وعدي. لقد جعلت منكِ أقوى وأغنـى وأشـهر امرأة في التاريخ الحديث. لقد أعطيتك كل شيء. وأطلعها على العقد والميثاق الذي باعت فيـه روحها للشيطان. ووقعت عليه بدمها، وأنه حسب نصوص العقد جاء ليقبض روحها.

ماجي : ماذا تريد؟ ماذا تريد مني؟ لم أتورع عن القيام بأي شر في سبيل تحقيق أغراضك، ولم أتورع عن خدمة أهدافك في كل مكان؟

الزائر الغريب: لقد بعت لي روحكِ لقاء السعادة والشهرة والمجد. وأنا جعلت من الصعلوكة التفاهـة أقـوى وأشهر امرأة في العالم. لقد أغدقت عليكِ كنوز الأرض.

ماجي : ماذا تريد؟ ماذا تريد مني أكثر مما فعلت؟. لقد خدمت كل أهدافك؟ لم أتورع عن القيـام بـأي شر؟ لقد حققت لك أعظم انتصاراتك. لقد نجحت نجاحا ضخما في بناء أكبر مؤسسة علمية لنقل الأعضاء البشرية.. كذلك أسست أكبر شركة عابرة للقارات للدعارة على مستوى العـالم. لقـد نشرت الدعارة في جميع القلوب، وفي جميع الأرواح والضمائر. أعظم علماء الأرض يعملـون تحت إمرتي في مملكتك وباعوا لك ضميرهم، حتى دعارة الضمير والروح حلت محل دعـارة الجسد. ومملكتك - بفضل جهدي - سادت في كل بقعة على وجـه الأرض. دعـارة الـروح والضمائر أصبحت الإيقاع السائد والإيقاع المنتصر في كل مكان. آلاف العلماء أصبحوا يُصلون من محرابك محراب الشيطان. ديانة عبادة إبليس حلت محل عبادة ا . أنا كنت - وما زلـت - من أخلص المريدين لك. ماذا تريد مني أكثر من ذلك؟.

الشيطان : ولكني يا ماجي قرأت في عقلك الباطن الخفي -الذي لا يتمكن من قراءته إلا أنـا - قـرأت الندم. أنا على الاتصال دائم بعقلك الباطن. لأنك بعت روحك لي وأصبحت ملكي أنا لا غير إلى يوم الدين. أنا على اتصال دائم بأعماق روحك. لقد قرأت في أعماقك اللاواعية الندم. والندم يـا ماجي أكبر أعدائي. منذ أن قابلتِ اللعينة ابنتكِ. هذه التي تُدعى ميريام. الندم هو بداية التمـرد والثورة على سلطاني. التمرد والثورة أقوى أعدائي. هذه اللعينة الصغيرة أوحت إليـكِ بـالخير والشفافية وحب الناس. أوحت لك بالخير والبراءة والطهارة. إذ أنها أثارت في روحك العواطف الصادقة والدموع الدافئة النبيلة. الحب يا ماجي أعدى أعـداء وجـودي الجهنمـي. العواطـف الصادقة؛ الندم والدموع الدافئة بداية التمرد في مملكتي. ولقد شعرت بالعصـيان فـي أعمـاق روحك التي أنا بها عليم وخبير. شعرت بإعصار الحب الطاهر والذي هو أعدى أعـدائي فـي أعماق وجودك. وهذا يعني عصيانك أوامري وتمردك على سيادتي. ولهذا جئت لألغي وجودك الدنيوي من على ظهر هذا الكوكب. لكي تحيا روحك في مملكتـي – جهـنم - مـدى الحيـاة الأخرى، والتي تمتد إلى ما لا نهاية. وهذا هو العدل في مملكتي.

ماجي : أنا لم أنكث بالعهد الذي قطعته بينك وبين روحي. لقد بعت لك روحي ولم أندم إطلاقًـا. لقـد وهبتك وجودي عن رغبة كاملة ورضى. أنا من رعاياك إلى الأبد. في مملكتك الخالدة. والـذي حدث هو سحابة صيف سرعان ما اختفت. وداعا نهائيا للبراءة.. وداعا نهائيا للحب الصـادق.. وداعا للشفافية والخير والصفاء. العمر كله سأقضيه أصلي في محرابك. وأتعبـد أتـرهبن فـي معبدك. والشيطان على ما أقول وكيل. ما حدث كان رغما عني وخطأ أعتذر عنه. فقد صُـنعت من النار. من المادة التي صنعت أنت منها.

قام الشيطان من جلسته واحتضنها بقوة وحيوية. قبلها قبلة عميقة. أشعلت النار في جسدها كله. إعصـار الشهوة يسري في كيانها كله. - الروحي والجسدي - خلع ملابسه وخلع عنها ملابسها. أخذته في أحضانها. أخذته بين ذراعيها وأخذها بقوة ونشاط بين ذراعيه. أخذته بين فخذيها واعتصرته بقوة. نار الشهوة يسـري في جسدها كله. اعتصرها بشدة بين فخذيه. أصابتها الرجفة في كل أنحاء جسدها المتـوتر بأقصـى درجـة توتر. التحمت ماجي بالنار ذاتها. انصهرت ماجي والشيطان في بوتقة واحدة. اقتحم الشيطان روحها. اقـتحم جسدها في كل مكان وفي كل موضع. صرخت ماجي من شدة الشهوة التـي زلزلـت جسـدها ووجودهـا. أوصلها إلى ذروة الشبق الجنسي. واستيقظت ماجي كالفن من الحلم العجيب. استيقظت ماجي من الكـابوس المخيف. ولم تجد له أثرا، ولم تجد أحدا غيرها في الحجرة الفاخرة. ولكنها اكتشفت آثار مادة لزجة حمـراء اللون تشبه المادة المنوية على ملاءة الفراش، وعلى فخذيها وعلى ثدييها، وفي فمها ولها طعم الشمبانيا فـي فمها. أيقنت أنها تجربة جديدة عليها تجربة الالتحام بالعالم الآخر كتجربة مثيرة وخطيرة في حياتها بل أكثـر تجارب حياتها خطورة.

شعرت ماجي كالفن بالتحسن بعد الزيارة الشيطانية لها. أحست بالسعادة الحقيقية تسري في كيانهـا كلـه. شفيت من مرضها. برئت من الحمى والصداع النصفي. شعرت بحيوية متدفقة تسري وتنبعث في كيانها كله. عادت لها صحتها وعافيتها. وشفيت - تماما - من مرضها الخطير الذي كاد أن يقضي عليها، وفشل الأطباء في تشخيصه، لأنه مرض أصاب روحها، والأطباء لا يؤمنون بالأمراض الروحية. ونامت نوما عميقًا. ثلاثة أيام كاملة من النوم العميق. حتى اشتد قلق الدكتور برنارد توأمها الروحي عليها. وعندما جاء إلى زيارتهـا وجدها في أحسن حال. تتناول إفطارها بشهية تُحسد عليها، في الشرفة التي تطل على المحيط. وفرح الدكتور برنارد بها ولها. فرح برنارد لشفاء شقيقته الروحية وتوأم روحه، التي ارتبط بها عضويا وبالدم الذي باركـه الرابي الإسرائيلي في هيكل سليمان المقدس. وتذكر برنارد القَسم المقدس الذي أقسـمه أمـام حكمـاء بنـي إسرائيل السبعة، في المعبد الماسوني الذي يدور في الفضاء في مدار القمر.

* * *

المشهد الثامن والعشرون

الزلزال في روما

عادت ميريام إلى مدرسة الراهبات الكاثوليك في روما. سعيدة كل السعادة لقضائها هذه الفترة الجميلة في صحبة أمها ماجي. أخذت تقص على زميلاتها عن رحلتها إلى مصر الفرعونية. وعـن مشـاهدتها للآثـار الفرعونية. وأخبرتهم أن مصر الفرعونية هي أم الدنيا. ومصر هي مهد الحضارة. Egypt id the cradle of civilization وأخذت تقرأ الكثير عن الحضارة الفرعونية، ولم تهمل علومها الدينية. وكانت فعلاً وقولاً الفتاة الكاثوليكية الطاهرة في أنقى صورها.

والأخت تيريزا كانت ترعاها بالعناية والرعاية والحب. وكانت تتعجب جدا لاتساع طاقات ميريام العقليـة وقدراتها الذهنية، وشغفها الشديد بالعلوم الطبيعية. وميريام كانت تحب ا . وتقضي أوقاتًا كثيرة تتعبد إلى ا العلي القدير. ميريام فارعة الطول رائعة الجمال ممشوقة القوام؛ عينان ساحرتان، صوتها به رنـة أو نغمـة موسيقية تشد الناس لها بجاذبية قاهرة نفاذة، تزاول الكثير من الألعاب الرياضية، عـلاوة علـى رياضـتها الروحية. وقد أشفقت عليها الأخت تيريزا خوفًا من تطورها العقلي الهائل بالرغم من صغر سنها. وتقول لها دائما:

- "قدوس. قدوس. ا يحميكِ. ا يرعاكِ".

وحاولت ميريام مراسلة أمها ماجي دون أي جدوى. وأخبرها الأب الصالح الذي كان يشرف عليهـا فـي المدرسة، أن هذه التعليمات مرتبطة بشروط إلحاقها بمدرسة الراهبات الكاثوليك التي وقعتها أمها، في وثيقـة تنازلها عن حضانة ميريام إلى الكنيسة. وأخبرها أن السيدة الفاضلة أمها مشغولة جدا بأعمالها الكثيرة علـى مستوى الكرة الأرضية.. وأنه لا وقت لديها للاتصال بابنتها.

فكرة الرهبنة راودت ميريام وغازلتها. الحياة في خدمة المعذبين في الأرض كانت من تطلعاتها وآمالهـا اللاشعورية. كل أحلامها تدور حول خدمة بني الإنسان. خاصة المساكين في الأرض. (طوبى للمساكين فإنهم سيرثون الأرض وما عليها). ومثلها الأعلى في الحياة كانت القديسة تيريزا التي اكتسـبت شـهرة عالميـة، وحصلت على جائزة نوبل للسلام لخدمتها المرضى والمعذبين في كل مكان من عالمنا الحـديث. والشـيء الوحيد الذي حيرها وأثار في نفسها الكثير من القلق والاضطراب هو غضب أمها الشديد عليها، عندما عبرت عن رغبتها في البقاء مدة أطول في مصر. لماذا غضبت أمها عليها؟ لماذا لا تراسلها والدتها ماجي كـالفن؟. لماذا لا تتصل بها بانتظام.؟ ومرت السنوات ومرت الأيام. وزادت حيرتها. وزاد قلقها ولم تنجح ميريام أبدا في الحصول على الإجابة الصحيحة الشافية.

ولما عبرت ميريام عن هذه الرغبة في رؤية أمها ماجي كالفن مرة ثانية. قام الأب الصـالح بالاتصـال بماجي في استراليا، لتدبير وقت للمقابلة أو أية وسيلة أخرى للاتصال بابنتها. ولكن ماجي اعتذرت لانشغالها في أعمال كثيرة. وتعجب الأب الصالح من عدم رغبتها في الاتصال بفلذة كبدها. واكتفت ماجي بإرسال شيك ضخم يضاف إلى رصيد ابنتها ميريام. وزاد عجب ميريام من هذا التصرف الشاذ من أمها. و(لـيس علـى الخبز وحده يحيا الإنسان). ولكنها لشدة طيبتها لم تسِئ الظن بأمها ماجي. وتصورت أن أمها مشغولة جدا في أعمالها العالمية. وأخذت تقتنع وتقنع نفسها أنه من الأفضل نسيان أو تناسي كل شيء يتعلق بأمها. وفي مقابلة خاصة مع الأب الصالح بناء على طلبه، أخبرها بصراحة بفحوى خطاب ماجي الجاف، والذي لا يعبر عـن أي مشاعر حنان وعطف تجاه ابنتها. وأنه لا وقت لديها لتدبير وقت لهذه المقابلة مع ابنتها ميريام. وأخيـرا قررت ماجي في نفسها الاكتفاء بالارتباط بالأم الروحية لها.. وهي الكنيسة الكاثوليكية. التي ربتها وأشـرفت على تنشئتها والعناية بها منذ الصغر. ومرت الليالي والأيام وضمرت العلاقة البيولوجية التي تربطها بأمهـا الحقيقية. تعمقت واتسعت العلاقة الروحية التي تربطها بالكنيسة الكاثوليكية. إذ أن الأم الحقيقية هي الأم التي تعبت وبذلت الجهد في تنشئة طفلها والعناية به. وليست الأم التي ولدتها. حيث إن صـلة الـدم البيولوجيـة تموت.. أما صلة الروح فتزداد مع الأيام عمقًا. ونصحها الأب الصالح أن تكرس جهدها لتطـوير روحهـا. حتى تزداد عمقًا تلك الروابط الروحية التي تربطها بالأم الحقيقية لها، وهي ا والناس. والأفضـل لهـا أن تنسى وتتناسى، الوعاء المادي الذي جلبها إلى هذا العالم. إلى كوكبنا الأرض. الغمـوض والارتبـاك كـان ظاهرا على وجه الرجل الطيب. وهو يسدي لها هذه النصائح. ويشجعها على نسيان صلة الدم العضوية.

وانتهت المقابلة التي طلبتها منذ شهر لترجوه مساعدتها وتمكينها من رؤية أمها ماجي. وركعـت أمامـه ولثمت يديه وخاتمه الماسي المزين ليده اليُسرى. وأيقنت ميريام في أعمقاها بأنها لن ترى أمها مرة أخـرى ولوقت طويل. وشعرت بوضوح - لأول مرة في حياتها - بأنها تواجه العالم والحياة وحدها. لا أب لهـا ولا أم، لا خال ولا عم. وقال لها الأب الصالح:

- "لا تقنطي من رحمة ا " عندما لاحظ مدى يأسها وقنوطها. وهمس في أذنها:
- "لا تقنطي من رحمة ا . الوحدة قوة. ا الصمد قائم وحده على ذاته ومن ذاته. يسـتمد عظمتـه وقوته من وحدانيته. الوحدانية قوة. قوة ا في وحدانيته".

شعرت ميريام بالمرارة. شعرت بالنفور من كل ما يتعلق بأمها ماجي. فقد تكون ميريام لقيطة من اللقطاء واكتشفتها الكنيسة في أحد حواري روما العتيقة، بسبب علاقة جنسية غير شرعية. وأنها مثل السيد المسيح لا أب لها ولا أم - أيضا -. وأن صلتها بماجي لا تعدو أن تكون له علاقة مادية بحتة تساعد بها ماجي الكنيسة في تربيتها الأطفال اللقطاء. وحاولت طلب مقابلة أخرى مع الأب الصالح، ولكنه كان مشغولاً في مهام كنيسة تتعلق بالألفية الثالثة لميلاد السيد المسيح. وأرسل لها الأخت تيريزا لمقابلتها والاستماع لها. عبـرت ميريـام عن رغبتها في عدم استلام أي نقود من ماجي. وأنها تريد التبرع بكل رصيدها المالي في بنـك الفاتيكـان، الرصيد الذي وضعته لها أمها ماجي. والذي يبلغ ملايين الدولارات الأمريكية. تتبرع به للأعمـال الخيريـة التي تشرف عليها الكنيسة الكاثوليكية. وأنها ترغب رغبة أكيدة في إعداد نفسها لحياة الرهبنة. أسـوة بـالأم تيريزا لتقديم نفسها قربانًا للناس من كل لون، ومن كل دين، ومن كل قومية. وأنها ترغب في العمل ممرضة في إحدى المستشفيات في روما، تقوم بخدمة المرضى، وتساعد في إسعاد البؤساء والمساكين.

عرف الأب الصالح مدى عمق الصراع الرهيب الذي يجري في قلبها. أدرك بنظره الثاقب مـدى القتـال الناشب في روحها. وحدد لها موعدا - بناء على توسلات الأخت تيريزا - لمقابلته. وأخبرها الأب بصراحة بأنها لا تملك الحق في هذا القرار الخطير، بدون أخذ رأي والدتها ماجي. إذ أنها لم تبلغ بعد الثامنة عشر من عمرها. وأنه سيكون لها هذا الحق بعد تسعة شهور، عندما تبلغ السن القانونية. وعندئذ سيكون لهـا حريـة اتخاذ القرار الذي تقتنع به، ويطمئن لها عقلها وقلبها، وتسعد به روحها القلقة. وحاليا عليها تركيز كل طاقاتها لتنتهي من دراستها الثانوية، حتى يكون لها حق الدراسة العليا في كلية الممرضات على نفقة الكنيسـة فـي روما. اطمئن قلب ميريام وهدأت روحها. وركعت وعيونها دامعة أمام الأب الصالح، ولثمت خـاتم القداسـة الماسي الذي يزين به يده اليُسرى.

ذهبت ميريام إلى مخدعها. وأخذت تبكي بكاء مُرا. الألم والحزن في قلبها وفي أعماق روحهـا. انتابتهـا الهواجس والكوابيس والقلق. أصابتها حمى شديدة ألزمتها الفراش. جاءتها العذراء مريم التي فضلها ا على جميع نساء العالمين. جاءت لها في أحلامها على شكل سحابة بيضاء من السماء، تحمل لها ورودا بيضاء في يدها اليمنى. رأت في أحلامها أنها كانت على وشك الموت، إذ اخترقت طائرتها وهـي فـي طريقهـا إلـى أهرامات الجيزة أهرام خوفو وخفرع ومنقرع. واحترق جميع الركاب. أما هي فقد انتشلتها العـذراء مـريم والملائكة أحاطت بها. وأخذتها العذراء مريم في أحضانها وعلى ذراعيها. وفتحت لها صدرها وسلمتها إلـى أربعة ملائكة.. لهم أجنحة في لون السحاب الأزرق المفضض. قاموا بإخراج قلبها واستأصلوا كتلة سـوداء اللون في حجم حبة الزيتون الأسود. وقام الملائكة بإرجاع القلب بعد غسله في وعاء فضي إلى مكانه. أخذت العذراء نفسها تنفخ في فمها نسيم الحياة. واستيقظت من نومها المضطرب القلق بصداع شقي فـي رأسـها، وضمور شديد في حيويتها، والعرق ينساب من جسدها كله. أنهار من العرق. وفتحت عينيها بصعوبة بالغة. وجدت الأم تيريزا جالسة بجوارها وهي تبكي. وواضعة كيس الثلج على رأسها التي تشتعل بالحُمى. وعلـى فمها كيس بلاستيك متصل بأسطوانة أكسوجين. واكتشفت أنها في غرفة العناية المركزة بمستشـفى القـديس بول في أحد أحياء روما. وأخيرا نجحت في فتح عينيها بصعوبة بالغة ورأت الأخت تيريزا يبدو عليها القلق. وفرحت الأخت تيريزا بعودة ميريام إلى وعيها من الغيبوبة التي أصابتها. وعرفت بخبرتها الطويلة بجـوار الموت، بأنها تماثلت للشفاء. وأنها انتصرت على الموت بأعجوبة. نبضها انتظم. وعاد على قوته. صـدرها عاد إلى التنفس الطبيعي. وقلبها عاد إلى الدق بنبضات قوية. وتحسن لونها الشاحب. الحياة والحيوية عادتـا إلى عينيها. ابتسمت لها ميريام ابتسامة حلوة عذبة - ابتسامة النقاء والطهارة والبراءة - ونظرت ميريام إلى ما حولها. وتأكدت أنها في غرفة العناية المركزة في المستشفى. وأدركت أنها كانت علـى وشـك المـوت. وأخبرتها الأم تيريزا أنها كانت في غيبوبة كاملة وأنها قاربت على الموت. وأن الأطباء أعربوا عن يأسـهم المطلق من احتمال أي شفاء. وقامت المستشفى والكنيسة بإعدادها للدفن. وأخطروا والدتها ماجي. أعدوا لهـا الطقوس الخاصة بموت الفتاة العذراء وأعدوا لها مقبرة في حوش الكنيسة. ولكنها بقدرة العلي الكريم القـادر قد عادت إلى الحياة. وأخذت الأم تيريزا تردد:

- "قدوس.. قدوس.. ا قادر على كل شيء. سبحان ا إله الكون العظيم. سبحانه العلـي القـدير.. العليم الخبير.. بالظاهر والباطن."

وأخذت الأم تيريزا الحنون تطعمها بيديها في فمها. كما تطعم الأم رضيعها. وعادت البسمة المشرقة إلـى وجه ميريام. وتدفقت الحيوية في كيانها بفضل العناية الفائقة التي بذلتها الأخت تيريزا. وأخذت ميريام تصلي مع الأم تيريزا صلاة الشكر والعرفان. وزاد من عجب الأم تيريزا أن كبير أطباء المستشفى قد أكد موتها بعد توقف القلب والتنفس. إذ أن نبضها كان قد توقف وسرت البرودة في جسدها وتصلبت عضـلاتها. وفقـدت حدقة العين المنعكس الضوئي. وتم وضعها على جهاز التنفس الصناعي. وأُجري لها تدليك عميق للقلب دون جدوى. واستدعى الأم تيريزا الكاهنُ الخاص بطقوس الموت والدفن. وقامت بإخطار السـيدة مـاجي أمهـا ببرقية عاجلة أرسلها الأب الصالح من مكتب الفاتيكان الرسمي. ولم تحضر ماجي. واكتفت بإعطاء أوامرها ببناء مدفن خاص بها. ولم تكلف نفسها عناء الرد أو الاتصال هاتفيا أو الحضور شخصيا.

* * *

المشهد التاسع والعشرون

المعجـزة

وحدثت المعجزة في العصر العلمي الذي ينكر كل المعجزات. وكان لها دوي الصاعقة فـي المستشـفى الكاثوليكي وفي الكنيسة، بل في العالم كله. حيث تسود الكنيسة الكاثوليكية في جميع أرجاء العـالم. ميريـام عادت إلى الحياة. الأطباء المعالجون لها من أشهر وأعظم أطباء في العالم كله. الأطبـاء المهـرة أصـابهم الذهول والحيرة والدهشة. وقفوا أمام الموت والغيب وقفة الضعف والهوان. وفقدوا الكثيـر مـن الكبريـاء والعجرفة التي تميز بها أطباء العصر الحديث. وأخبرت الأم تيريزا الأب الصالح الذي حضر بنفسه لمشاهدة المعجزة. انتابت الكنيسة الدهشة أولاً، ثم الفرحة ثانيا، لحدوث هذه المعجزة في أواخر القرن العشرين. عصر المعجزات المادية، عصر العلم الحديث الذي لا يؤمن إلا بالطريقة العلمية المادية التجريبية. وما أشد حاجـة الكنيسة بل الأديان في عصرنا الحديث - الذي لا يؤمن بما وراء الطبيعة - ما أشد حاجة المؤسسات الدينية إلى معجزة جديدة حتى تقنع أتباعها ومريديها، بصدق المعتقدات التي تدعو لها كل الأديان. قيام ميريام مـن موتها الأكيد بعد اثني عشر ساعة، أحدث زلزالاً في كل أنحاء العالم. وخاصة عند كل المؤسسات الدينية التي تقوم أساسا على معتقدات ثابتة لا تتغير. وخاصة في كل الكنائس المسيحية الكاثوليكية. وسعد البابـا يوحنـا الثاني كل السعادة. وابتهج قلبه بهذه المعجزة الكبرى التي تحدت كل القيم العلمية الحديثة. واعتبرهـا البابـا انتصارا ضخما للدين، ولكل الأديان ضد العلم التجريبي المادي الحديث. وأحدثت المعجزة الكبرى دويا هائلاً في كل أنحاء المعمورة. وفرح البابا المقدس بهذا الانتصار الكبير للقيم الروحية والتي أثبتت أنه لـيس علـى العلم الحديث وحده يحيا الإنسان. وابتهج قداسته بالهزيمة الساحقة التي لحقت بالفلسـفة العلميـة التجريبيـة المادية. الفلسفة التي تقوم على المنطق العقلي – فقط - وعلى الإيمان بقدرة الإنسان على فهم كـل ظـواهر الكون ونواميسه، وبقدرته على التكحم في القوانين الطبيعية التي تنظم حركته. وأصدر البابا أمره إلى جميـع الكنائس الكاثوليكية في جميع أنحاء العالم بإقامة صلوات الشكر. وإقامة قُداس في جميع الكنائس لتقوية صـلة البشر بالذات الإلهية، ولتعميق صلة الجنس البشري بالخالق سبحانه.

أما الأب الصالح فقد أخذ قرارا بإرسال ميريام إلى أجمل منتجع للكنيسة الكاثوليكية عند تحسن صـحتها. ميريام قابلته في حجرته الخاصة التي لا يدخلها إلا القليلون. وجثت ميريام على ركبتيها أمام الأب المقـدس. ولثمت خاتم الماسي الذي يزين إصبعه. أقام لها قداسا خاصا لتطهير روحها من الشيطان الـرجيم. أخبرتـه بالحلم العجيب الذي حلمته، وهي راقدة بين الحياة والموت، في غرفة العناية المركزة. وأخذت تقـص عليـه تفاصيل حلمها العجيب، والذي ما زال منقوشًا بحروف من نار في مخيلتها؛ كيف أنها كانـت فـي طريقهـا بالطائرة لمشاهدة أهرامات الجيزة. وكيف أن الطائرة احترقت بسبب ماس كهربي. ومات جميع الركاب بمـا فيهم قائد الطائرة والمضيفات الثلاث. أما هي فقد انتشلتها السيدة العذراء مريم. فقد ظهرت لها بين السـحاب في السماء واحتضنتها، وقبلتها ونفخت في فمها من روحها. وكيف أن أربعة ملائكة بأجنحة زرقاء اللون قـد

شققن صدرها وأخرجن قلبها ووضعوه في إناء من الفضة، وانتزعن منه حبة الحقد، وهي حبة سوداء قاتمـة اللون في لون الفحم الأسود، وقام الملائكة بوضع القلب في مكانه وأقفلن الصدر. وحينئذ عم السـماء نـور مشرق. انبعث من كل مكان في الوجود. وظهر لها السيد المسيح مصلوبا على الصليب. وقد ثُبتـت أقدامـه ويداه بالمسامير على الصليب. وعلى رأسه تاج من الشوك. والدم يسيل علـى وجهـه وجسـده. والطيـور الجارحة تنهش من لحمه وتقتات من عينيه. وقصت على الراعي الصالح كيف اختفى الحلم فجـأة. وفتحـت عينيها فوجدت الأم تيريزا بجوارها تصلي شكرا لعودتها إلى الحياة. وكيف أنها اكتشفت أنها راقـدة فـي حجرة العناية المركزة. وأخبرها الراعي الصالح أنه قد حدد لها مقابلة البابا الأعظم بعد سـبعة أيـام، لأنـه الوحيد القادر على تفسير هذا الحلم العجيب، وهو الذي يستطيع فهم وتفسير هذا الحلم المدهش، لأنه السـلطة العليا في الكنيسة، وهو الصلة المتينة بين الجنس البشري وا سبحانه. كذلك أخبرها بقرار البابا بتنظيم رحلة لها لقضاء أسبوعين في المنتجع الكاثوليكي في جزيرة (فيلة) في النيل في أسوان، وهي جزيرة فـي وسـط النيل الخالد. وافقت ميريام فورا على الذهاب. وسرت الحيوية والبهجة في أساريرها وكيانها كلـه. وتألقـت عيناها بنور السعادة والصفاء الروحي.

* * *

المشهد الثلاثون

المقابلة مع بابا الكنيسة الكاثوليكية

ذهبت ميريام إلى الأم تيريزا، وأخبرتها بكل ما دار بينها وبين الأب الصالح. سجدت الأم تيريزا شكرا، لأنها قد رأت بعينيها معجزة الحياة والموت والبعث. حقًا ما أعجب الحياة. حقًا الحياة معجزة خلاق مستمرة دائما أبدا. شعرت الأم الطيبة المقدسة أنها أمام السر الأكبر. نور عجيب يشع من كل أسارير ميريام. شعرت الأم تيريزا أنها أمام اللغز الأكبر. لغز الحياة. اللغز اللانهائي الذي لن يستطيع الإنسان. ولن تستطيع البشرية إدراكه واستيعابه. خرت راكعة أمام معجزة الحياة الكبرى. معجزة الحياة والموت والبعث.

عادت ميريام إلى سابق عهدها. حيوية ونشاط وتألق. العينان تتألقان بالحيوية والنشاط والإقدام. شعرها الجميل استعاد رونقه وجماله. كرست ميريام نفسها للعبادة استعدادا لمقابلة البابا الأعظم. ومرت الأيام حضرت الأم تيريزا لمرافقتها إلى مقابلة البابا. الجسر الذي يصل بني البشر با رب العالمين. الجسر الوحيد بين قلب الإنسان الحائر والوجود كله. الصلة بين العالم الظاهر المادي وعالم الروح الخفي الباطن. أي عالم الغيب.

ذهبت ميريام في الموعد المحدد إلى الهيكل المقدس في كنيسة روما لمقابلة البابا. الأب الروحي للجنس البشري. شاركت ميريام الأم تيريزا صلاتها وتعبدها. انتظارا لوصول جناب البابا. شعروا بنور غريب يغمر كل الأشياء. ويتألق في كل مكان. وينبعث من كل الأشياء. وفجأة شاهدوا البابا. بابا الفاتيكان واقفًا أمامهم ومحاطًا بهالة من النور. انسحبت الأم تيريزا من الحضرة. وتركت ميريام وحدها. سجدت ميريام. ربت البابا برفق على كتفيها. أمرها بالوقوف من الانفعال الشديد الذي اجتاح ميريام. سالت الدموع من عينيها. أصاب ميريام الذهول من هالة النور التي تحيط بالبابا. سجدت للمرة الثانية رغما عنها. أخذت ميريام تقبل قدميه. قبلت طرف ثوبه. قداستُه ربت بيديه الكبيرتين على رأسها وأمرها بصوت خافت جدا يكاد لا يُسمع. أن تقص عليه حلمها بالتفاصيل الدقيقة بدون إغفال أية نقطة تتصور أنها ليس لها أهمية. واستمع لها في صبر وصمت وهدوء. قصت عليه ميريام كل ما حدث لها من أحداث. وقصت عليه كل التفاصيل لحلمها العجيب. وقصت عليه تجربتها الخاصة المثيرة. وشعرت ميريام أنها من خلال البابا قد اجتازت مشارف الوجود المطلق اللانهائي. وأشرفت على الخلود والسرمدية. وتطلعت إلى عالم الغيب.

ميريام لم تشعر إلا وقداسة البابا يجثو على قدميه أمامها. البابا الأعظم يسجد أمامها، أمام الفتاة العذراء اليافعة، أمام القديسة الصغيرة. وقف أمامها. وأخذ تاجا من الشوك وضعه على رأسها الجميل. وأخذ يردد بصوت خافت يكاد لا يسمع:

- "قدوس.. قدوس.. إنك سيكون لك شأن. نعم ا في قلبك. ا في روحك.. سيكون لك شأن".

الموسيقى الخافتة التي انبعثت من كل الأشياء في القصر البابوي بدأت في الاختفاء. والنور الإلهي المتألق الذي انتشر في كل الأرجاء في البهو البابوي. بهو الهيكل والمذبح بدأ في الزوال. وساد الظلام. واختفى البابا المقدس. واختفت معه هالة القداسة. وعاد المكان إلى صمته وعتمته وإظلامه. وعاد المكـان إلـى هدوئـه العادي. واختفت الأناشيد المقدسة وعاد كل شيء إلى وضعه الطبيعي. ودخلت الأم تيريزا بهدوء وسـكينة. وأخذت في صحبتها القديسة الصغيرة. ورافقتها على مدرسة الكاثوليك للفتيات وأخذت ميريام تستعد للرحلـة المقدسة.

* * *

المشهد الواحد والثلاثون

الرحلة إلى أرض الفراعنة

وبعد هذه التجارب العنيفة، هذه التجارب الروحية التي اجتازتها ميريام، والتي ساعدت في نمـو وتطـور روحها تطويرا مذهلاً، ذهبت ميريام - في صحبة الأم تيريزا - في رحلة على نفقة البابا، وأقامت في الفندق الخمسة نجوم المُقام في وسط نهر النيل العظيم. ما أروع مصر. وما أروع تـاريخ مصـر القديمـة. وفـي أسوان، وفي المعابد الفرعونية القديمة، عاشت ميريام مع الفراعنة وبخاصة أنها تعمقت في دراسة الحضارة الفرعونية، وكانت تعلم عن الحضارة المصرية القديمة أكثر من أي طالب مصري في سِنها. ركبت ميريـام آلة الزمن وسارت بها سبعة آلاف عام في الماضي. وشاهدت أروع حضارة إنسانية على ضفاف نهر النيل. أقامها المصريون بعبقريتهم وإبداعهم. عاشت ميريام بعقلها وقلبها مع شعب مصر القديمة. مع أول حضـارة إنسانية عملاقة، مع بداية تحضر الجنس البشري. حقًا مصر أم الدنيا. ولا شك أن الثقافة هي آلة الزمن التي نجوب بها ونسير في الزمن والتاريخ الإنساني. وزارت ميريام كل المعابد في مدينة أسوان ومدينة الأقصر. ومن الأقصر أخذت الباخرة النيلية لمشاهدة الآثار في كوم أمبو وفي الكثير من المدن التي تقع على جـانبي النيل. ومن تعمق وانغماس ميريام في تاريخ قدماء المصريين خُيل للأم تيريزا أن الفراعنة قد تقمصوا روح ميريام. وتصورت أن مصر القديمة قد تجسدت في كيان ميريام. ولا شك أنها كانت رحلة ثقافيـة ضخـمة استوعبتها ميريام بالكامل. وخاصة أنها تعمقت وحصلت على التخصص في تاريخ الفراعنة من جامعة روما. وشجعتها الكنيسة على هذه الهواية الثقافية، بجوار دراستها في الطب والتمـريض. وشـاهدت ميريـام أول ومضات منيرة من تاريخ الحضارات. وعرفت أن أسس كل العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعة والفنـون، قـد وضعت على ضفاف النيل. وكيف أن كل القيم الإيجابية في هذه الحضارة العريقة في القدم - سـواء القـيم المادية أو القيم الروحية - قد انتُقلت إلى الإغريق، وكانت البذرة لمولد الحضارة الإغريقية القديمة في مصر. واكتشفت ميريام أن مولد الضمير الإنساني كان في مصر. أو كما عبر عنه الكاتب المؤرخ "برسـتيد" فـي كتابه فجر الضمير: (إن القانون الأخلاقي الذي هو خاصية الإنسان ويميزه عن سائر الكائنات قـد صـاغه المصريون القدماء، قبل الوصايا التي أنزلها ا على النبي موسى بني إسرائيل. حيث كُتب الناموس الخلقـي القانون الاجتماعي، وذُكر في الكثير من المعابد والبرديات قبل تاريخ وصايا موسـى بثلاثـة آلاف سـنه). وأخذت ميريام تشرح للأم تيريزا كل هذا. إذ أنها كانت تعرف اللغة الهيروغليفية. وشرحت لها - أيضـا - أن الحضارة المصرية الإغريقية القديمة كانت الرافد الأساسي لمولد الحضارة الأوروبية الحديثة في عصـر النهضة الأوروبي. أي عصر "جاليليو وليوناردو دا فنشي"... الذي اقتحم فيه الإنسان المجهول، وصاغ أسس الفلسفة العلمية التجريبية، ووضع أسس القوانين الطبيعية، المُنظمة للطبيعة والكون والمجتمع، والتي قفـزت بالإنسان إلى أعظم تطور حدث له في تاريخه الطويل، بل على أعظم ثورة فكرية علمية أعطـت الإنسـان القدرة على السفر في الفضاء والسيطرة على الكون. والدخول في عصر الفضاء، أي عصر الإبداع. وقالـت ميريام للأم تيريزا وهي تتجول في معبد الكرنك لمشاهدة الصوت والضوء:

- "حقًا وصدقًا مصر أم الدنيا. الحضارة المصرية الإغريقية القديمة موجودة بالكامل، وخاصة القـيم الأخلاقية والقيم الروحية المتغلغلة في كيان الحضارة الغربية الحديثة".

حقًا السكون موت. الحركة حياة. الركود موت. الرقص حياة. وما الوجـود إلا رقصـة الحيـاة الخالـدة السرمدية. ومن لا يقتحم الوجود لا يحيا ولا يعيش. ومن لا يغامر يموت. وتنبع عظمة أمريكا وروعتها من أنها (مغامرة من فقدوا الجذور في أوروبا) ومن لا يغامر لا يعيش ولا يحيا... ولولا مغامرة العقل الكبـرى التي ولدت على ضفاف نهر النيل، لما تجرأ الإنسان على اقتحام أسرار الذرة، وما تجرأ بني البشـر علـى اقتحام الكون ومحاولة السفر في الفضاء الكوني، والتفكير في السفر خارج نطاق المجموعة الشمسـية التـي تتبعها.. واستعادت ميريام كامل صحتها الروحية والعقلية، بفضل جو أسوان والأقصر الجاف الدافئ الجميل. عبرت ميريام للأم تيريزا عن رغبتها في مشاهدة الإسكندرية، لأن بها إحدى عجائب الدنيا السبع - أول فنار في تاريخ العالم - ومتحف الإسكندرية الذي كان أول معهد أبحاث في التاريخ الإنساني. وافقت الأم الطيبـة على الذهاب إلى الإسكندرية بعد أخذ موافقة الأب الصالح في روما، وهو المشرف والمسـئول علـى هـذه الرحلة، التي تقوم بها ميريام في مصر. وفي الإسكندرية أقاموا في فندق فلسطين في المنتزه. الملك فـاروق كان يقطن سراي المنتزه في فصل الصيف.

* * *

المشهد الثاني والثلاثون
مقابلة ميريام والفارس الأسمر

وفي بلاج المنتزه، وعلى الرمال البيضاء الدافئة، كانت ميريام تأخذ حماما شمسيا يوميـا، بعـد قيامهـا بتدريبها اليومي على السباحة. وكانت تجيد السباحة. وعودت نفسها على السباحة حتى صخرة أبو الهـول - كما يطلق عليها - والمسافة بين الصخرة والشاطئ الرملي لا تزيد عن ٢ كيلومتر تقريبا. وفي اليوم الأخير من رحلتها - قبل سفرها إلى روما - أخذت قاربا مطاطيا وأخذت تجدف حتـى وصـلت إلـى الجزيـرة الصخرية الصغيرة (صخرة أبي الهول) لتأخذ حمامها الشمسي المعتاد. ولكنها فوجئت بوجود إنسـان آخـر نائما على الصخرة ومعرضا ظهره للشمس. وقد لف بشكيرا ثقيلاً حول رأسه ليقيه من شدة وحرارة الشمس، حتى يتجنب ضربة الشمس. ولم تتمكن من رؤية وجهه. ولم يكن لديها أي خيار آخر، ورقدت على بعد أمتار منه، بعد أن ربطت الزورق في عمود حديدي مثبت إلى الصخرة. وأخذها النعاس اللذيذ على صوت خريـر وأمواج البحر. واستمتعت بشمس الإسكندرية لمدة طويلة. وعرضت ظهرها كله للشمس لمدة ساعات تقريبا. واستيقظت من نومها اللذيذ على صوت رقيق. يخاطبها.

الشاب الأسمر: صباح الخير. يا جميل. Good Morning Miss (شاب فارع الطول. أسمر اللون. صـدر قوي لعملاق. أكتاف عملاق. عينان في حيوية ولون عيني الصقر).

ميريام : Good morning. أنا ميريام. طالبة في مدرسة التمريض الكاثوليكية في رومـا. (وكانـت تتكلم معه بلغة إنجليزية بطيئة. حتى يتمكن من فهمها. لأنها شعرت طريقة نطقه أنه لا يتقنها).

الشاب المصري: أنا ممدوح إسماعيل فريد. مهندس وطالب في سلاح الطيران المصري.

أنا آسف. لأني لا أتكلم الإنجليزية بطلاقة، ولكني مصمم على إجادتها في أسرع وقت ممكن.

واستمر الحديث بينهما باللغة الإنجليزية. ويعتبر ممدوح أول مصري تقابله في حياتها. وجسد لها الشاب كل ما قرأته عن الفراعنة العظام. جذبها إلى الشاب الأسمر تقاطيع وجهه الأسمر الدقيق، وعضلاته المفتولة القوية، وشارب كثيف الشعر، كما كان يبدو على الشاب سمات الرجولة والفحولة الناضجة.. ولاحظت ميريام أنه إنسان مهذب جدا لم يتسرع في الجلوس بجوارها، بل انتظر دعوتها له للجلوس. وكانت مع ميريام علبـه بلاستيك فيها بعض الساندويتشات المنوعة؛ لحوم باردة وأنواع من الجبن، وقليل من الزيتون الأسود. عزمت عليه بالجلوس ومشاركتها تناول الوجبة الخفيفة التي أعدتها لها الأم تيريزا.

ممدوح إسماعيل فريد: شكرا.. وتناول ساندويتش البسطرمة بالخيار المخلل. وقال:

- " ده يبقى أكلنا عيش وملح معا. وده معناه في الفلكلور المصري. أننا ضروري نتقابل مرة ثانيـة. الدنيا كلها قرية صغيرة. ويمكن مرة ثالثة ورابعة.. ومين يعرف الدنيا كلها عجائب.

واستمر الحديث الشيق الذي دار بينهما لبعض الوقت. البحر يحيط بهما من كل جانب. وفي الأفق البعيـد تتقابل القبة السماوية مع مياه البحر الزرقاء.

ممدوح : أنا من محافظة الجيزة، مركز إمبابة. بعد سنة سأتخرج من كلية الطيران. سأعمل طيارا فـي سلاح الطيران المصري.

ميريام : أنا استرالية مولودة في سدني. وأدرس في مدرسة الممرضات، أو كلية الممرضات الكاثوليـك في روما. لقد نذرت حياتي كلها لخدمة الإنسان في كل مكان. أنا نذرت حياتي للرهبنة في خدمة الناس من كل الألوان، ومن كل القوميات. الرهبنة الحقيقية أو الرهبنة الإيجابيـة هـي خدمـة الإنسانية، خدمة الكادحين، خدمة المساكين. والسيد المسيح قال: "طوبى للمساكين. فإنهم سيرثون الأرض. وما عليها".

ممدوح : أنا مصري مسلم.. كان ممدوح أول مسلم تقابله في حياتها. وكان تصـورها لـدين الإسـلام أن الإسلام دين يعبد فيه المسلم الأصنام والأوثان. أخبرها ممدوح أن الإسلام دين التوحيد. يؤمن بـا الواحد الأحد. لا شريك له في الملك. وأنه خالق الكون والخالق لكل شيء. وأن شعار الإسـلام: لا إله إلا ا محمد رسول ا . وأن ا هو الأول والآخر. وهو الظاهر والباطن. الصمد. وأن الإسلام دين البساطة والفطرة. ولا يوجد مؤسسة دينية في الإسلام، أي لا يوجد به كنيسة أو رجال كنيسة.

ميريام : مش فاهمة. أمال إيه وظيفة رجال الدين، أي المشايخ. إحنا عندنا رجال الدين المسيحي. وهم ينظمون لنا الحياة الأخرى. والبابا هو صلة الناس با رب العالمين. وهو الذي يفسر لنا كلماته التشريعية وكلماته الكونية.

ممدوح : نعم عندنا مشايخ. ولكن لا يوجد في الإسلام مؤسسه دينية لها سلطات على الناس، إن صـلة الإنسان مباشرة بربه ولا يوجد وسيط. لا يوجد وسطاء بين ا والناس. لا يوجد عندنا بابـا أو قسس أو كهنة. بل علاقة مباشرة برب هذا الكون. علاقة مباشرة بـا . أمـا قداسـة الإنسـان وعظمته فتكمن في خدمة الناس من كل لون أو كل قومية أو كل دين. الدين عندنا هـو العمـل الطيب لخدمة الإنسانية المعذبة. كما قال الرسول الكريم: "الدين المعاملـة. الـدين المعاملـة". وكررها ثلاث مرات. أي العمل الطيب النافع للناس وللحياة وللعالم.

ميريام : يعني انتم مش بتعبدوا النبي محمد. قال لي البابا أن تمثال محمد في كل جامع. الكنيسة قالـت لنا أنكم تسجدون لتمثال محمد خمس مرات يوميا. الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشـاء.. هل هذا الكلام صحيح؟ عايزة أعرف الحقيقة؟.

ممدوح : الكلام ده لا يعبر عن الحقيقة. نعم الرسول محمد هو إنسان عادي. هو نبي الإسلام. بلغ أهـل الأرض رسالة السماء. وتقدري تيجي تزوري أي جامع. لا يوجد في الجوامـع أي تمثـال لأي إنسان. النبي محمد إنسان عادي وهو عبد من عبيد الرحمن. يجوز عليه مـا يجـوز علـى أي إنسان عادي. وكان يأكل ويتزوج ويستمتع بأطايب الحياة المباركة. بلغ أهـل الأرض برسـالة السماء. والإنسان في ديننا له صلاحية الاتصال المباشر با رب الكـون. الـزواج والمـوت والميلاد. ويباشر الطقوس فيها أي إنسان له معرفة بالقرآن الكريم. والقرآن هو كتاب الإسـلام. ورجال الدين عندنا ليس لهم صلاحية معينة أو اختصاص لمباشرة هذه الطقوس. طقوس الميلاد والزواج والموت. ويستطيع أي إنسان عادي القيام بهذه الطقوس الهامة في حياة الناس.

واستمر هذا الحديث الهادئ الشيق لمدة ساعات. وكانت صدمة ثقافية مفاجئة لميريام. لاكتشـافها وجـود مفاهيم مختلفة اختلافًا كاملاً عن رؤيتها المسيحية الخاصة عن ا والعالم الآخر. وصممت على الذهاب معه لرؤية المساجد للتحقق من صدق أقواله. وبخاصة أنها انجذبت روحيا لهذا الشاب الأسمر في سـمرة طمـي النيل الخصب - الذي يهب الحياة والخصوبة لوادي النيل - وشعرت في أعماق روحها بقوة شـديدة تشـدها إلى هذا الشاب الذي يختلف عنها. اختلافًا بينًا. أحست بصدق كلامه. وفي أعماق فكرها عزمت على مراجعة الموسوعة البريطانية لمراجعة مدى صدق كلامه عن الدين الإسلامي.

واشتدت ثورة الأمواج حول الجزيرة الصغيرة. وازدادت عنفًا. وعرض عليها ممدوح فكرة العـودة إلـى الشاطئ الرملي بقاربه الخاص، حيث إنه أقدر وأقوى من قاربها المطاطي على تحمل الأمواج الهادرة التـي ازدادت عنفًا وهياجا. وعرضت عليه فكرة السباحة إلى الشاطئ، ولكنه اعترض على هذه الفكرة، وأخبرهـا أنها نوة شديدة من نوات البحر وأنه من الخطورة بمكان السباحة. حيث تتوفر الكثير من الـدوامات القـادرة على ابتلاع الإنسان في لحظات، وحتى لو كان من أمهر السباحين وأقدرهم. وافقت ميريام - بعد الكثير من التردد - على مرافقته في العودة إلى البحر. ولكنها شعرت بمدى صدق قوله، لأن البحر كان في حالة ثورة عنيفة تزداد عنفًا، وتصل الأمواج الهائلة إلى قمة السماء التي اختفت بـالغيوم الكثيـرة الثقيلـة المتراكمـة. واختفت الشمس - تماما - بحيث أصبح من الصعوبة تلمس طريق العودة إلى الشاطئ، لأن الدنيا أظلمت - تماما -.. ولاحظت - أيضا - أن ثورة الأمواج قد مزقت الحبل الذي يربط زورقهـا المطـاطي الصـغير بالصخور. واختفى - تماما - قاربها. وركبت ميريام قاربه الكبير. وأخذ ممدوح يجدف بقوة بالمجداف، بينما أمسكت هي بالمجداف الآخر دون أي جدوى في التقدم. ولاحظت أن القارب لا يتقدم خطوة واحـدة، وأنـه ثابت في مكانه بسبب الأمواج الهائلة التي تحيطه من كل الجوانب. وأن القارب لا يقترب من الشاطئ بتاتًـا بل يزداد بعدا إلى أعماق البحر. وقوة الجزر والمد تجذب القارب إلى أعماق البحر المتجهم. واشتد قلق الأم تيريزا عليهما. واتصلت بالغواص المشرف على البحر؛ فأمر بتجهيز القارب البخاري، والذي سـرعان مـا وصل إليهما في ثوانٍ. وجذب قاربهما إلى شاطئ الأمان. وفرحت الأم الحنون تيريزا بعودتهمـا سـالمين. ودمعت عيناها من شدة الانفعال الذي أصابها. أما ميريام فقد قدمت ممدوح إسماعيل فريد إلى أمها الروحية:

- "المهندس ممدوح إسماعيل. مصري مسلم. هو الذي أنقذني من غرق محقق. لأنني كنـت عازمـة على العودة سباحةً إلى الشاطئ، لأني فقدت قاربي المطاطي الصغير. وأقنعنـي بصـعوبة بالغـة بالعودة معه في قاربه المتين".

صممت الأم تيريزا على دعوة المهندس ممدوح للعشاء معهم. تيمنًا لعودتهم سالمين من هـذه المغـامرة الصغيرة. وبخاصة أنها لاحظت دماثة خلقه وأدبه وحسن تربيته. كما لاحظت بذكاء انفعال ميريام معه. وأنه قد تكون تجربة إيجابية لها أن تتفاعل مع شاب من ثقافة مختلفة عنها كل الاختلاف. وقد يسـاعد هـذا فـي تطوير شخصيتها إلى الأحسن. وقد تكون تجربة مفيدة في نمو شخصيتها، بخاصة أن ميريام قد نذرت حياتها لخدمة الكادحين والفقراء في العالم. وغالبية الفقراء والبؤساء هم من سكان بلاد العالم الثالث. تناول ممـدوح العشاء معهم في الشرفة المطلة على البحر المالح. الأزرق العريض الممتد إلى الآفاق البعيدة، وكانت تصلهم من بعيد أصوات هدير أمواج البحر الهائلة الصاخبة وهم يتناولون عشاءهم. ولاحظت ميريام في شيء مـن الاستغراب أن ممدوح رفض تناول الخمور - من أي نوع – وسألته: - "لماذا لا تتناول القليل مـن البيـرة؟ وهي تعتبر فاتحة للشهية"؟ وأخبرها أن الخمر من أي نوع محرمة تحريما كاملاً في ديننا. القليل من الخمـر قد يضعف العقل. وخاصية الإنسان هي في عقله وقدرته على التحكم في نزواته وعواطفه وشهواته. وأن أي شيء يضعف العقل يعتبر حراما على أي مسلم تناوله. لأن العقل والتفكير هو أسـاس العقيـدة فـي الـدين الإسلامي". وعند الانتهاء من تناولهم العشاء أعرب عن رغبته لها في مراسلتها. وقبلت شـاكره. أعطاهـا عنوانه. أعطته عنوانها. وعبرت عن رغبتها في مشاهدة بعض المساجد في الإسكندرية في رفقـة ممـدوح. وأخذها في زيارة لبعض المساجد الأثرية في مدينة الإسكندرية. وأعجبت بجامع سيدي مرسي أبو العبـاس. ولم تر داخل المساجد أي أثر لعبادة الأصنام. واقتنعت بصدق رواية ممدوح إسماعيل. وصُدمت للمعلومـات الخاطئة التي غذتها بها القُسس وآباء الكنيسة. وأعادها ممدوح إلى الفندق، حيث كانت تنتظرها الأم الطيبـة تيريزا وهي في غاية القلق عليها. وعاد ممدوح فريد إلى منزله بالشاطبي على الكورنيش. وفوجئت ميريـام في اليوم التالي بحضور ممدوح المطار ليودعها، وهم في طريقهم إلى روما، بعد هـذه الرحلـة السـياحية الرائعة..

* * *

المشهد الثالث والثلاثون

ثورة القديسة الحمراء

عادت ميريام إلى دراستها في كلية التمريض للفتيات الكاثوليك. وانكبت على دراستها بكل حماس ونشاط. وبدأ ممدوح فريد في مراسلتها بانتظام. وشعر ممدوح أنه أمام شخصية عالية الثقافة وعلى مستوى أخلاقي رفيع. وشعر أنه يجد سعادة كبيرة في قراءة خطاباتها. وكان يقرأها ويعيد تلاوتها نظرا لما تنطق به من حكمة بالغة وتعمق روحي والاهتمام بكل ما يتعلق بحركة التاريخ الحديث، وتركيزها على حركة الحرافيش والمساكين في كل وطن، وفي كل مكان على وجه المعمورة. فكل حرف في خطاباتها يعبر عن شخصية إنسانية تهتم بكل شئون العالم الحديث، والالتزام بخدمة بني البشر من كل دين ومن كل قومية ومن كل وطن. وانقطعت المراسلات بينهما عندما نجح في امتحان التخرج وأصبح طيارا في سلاح الطيران المصري. ونبهت عليه المخابرات المصرية مشددا بعدم مراسلة أية جهة أجنبية إلا بعد أخذ موافقة المخابرات الحربية مسبقًا قبل كل خطاب. أما ميريام فقد انشغلت في دراستها، وبخاصة أنها أصبحت في السنة النهائية لكلية البنات الكاثوليك، وقاب قوسين أو أدنى من التخرج. وكانت في غاية الشوق لإتمام دراستها الممتعة والتخرج. وكذلك كانت في أشد الشوق للنجاح بتفوق. ونجحت ميريام بتقدير ممتاز. وحصلت على امتياز في جميع المواد وخاصة العلوم الإنسانية. وكانت الأولى على جميع زميلاتها. واحتفلت بها الكلية احتفالاً كبيرا. ورأس الاحتفال سيادة الأب الصالح راعيها والمسئول عن سعادتها الروحية. وقدم لها الأب الصالح صليبا من الذهب الخالص يطلق عليه (صليب التفوق). وأرسلت لها أمها ماجي برقية تهنئة. ووضعت لها مبلغًا ضخما بالدولارات الأمريكية في حسابها الخاص في بنك باركليز فرع روما. وبلغ رصيدها الخاص مبالغ خيالية. وكان هدف ماجي إغراء ابنتها بالبعد عن التصوف والرهبنة، وخاصة عندما نما إلى علمها أن ابنتها تعشق حياة التصوف والرهبانية. واتصلت ماجي بميريام وعبرت لها عن سعادتها لتخرجها بهذا التفوق الهائل في كل المواد. واقترحت عليها قضاء أسبوع كامل في رفقتها في قصرها في لندن، الذي اشترته حديثًا. وافقت ميريام بعد تردد شديد. وفي الواقع يرجع ترددها إلى ذكرياتها الماضية التي رسخت في أعماق قلبها. البرود الشديد والفتور العجيب الذي أبدته أمها نحوها، وخاصة عندما عبرت ميريام عن رغبتها في رؤية أمها، وخاصة بعد مرضها الشديد الذي ألم بها بعد عودتها من زيارتها الأولى لمصر. واعتذرت ماجي بكثرة مشاغلها. وأفهمها الراعي الصالح بدماثته المعهودة وأدبه وحكمته أنهما - الأم والابنة - أصبحا على دربين مختلفين. والأفضل لكل منهما الاحتفاظ بالعلاقة الشرعية أي علاقة الدم التي تصلهما ببعض عن بُعد. إذ أن ا العلي القدير قد صاغ كليهما من معدن مختلف عن الآخر. والراعي الصالح كان قليل الكلام بل نادر الكلام. ولكن كل حرف ينطق به كان له معنًى عميق، وكل كلمة لها مغزى. وقبلت ميريام بنصيحة الأب الصالح، وأخذت بها دون أن تنبس بحرف واحد. ولكنها أصيبت بصدمة روحية عنيفة، لفقدها صلة الدم الوحيدة في حياتها. وسببت لها انهيارا عصبيا كاملاً لفترة محددة. ولكن عناية الأم تيريزا بها ورعايتها لها

أنقذتاها من الانهيار العصبي الكامل ومن الموت المحقق. وساعدتها الأم تيريزا وهي الأم الحقيقيـة لهـا ولا تعرف ميريام غيرها أم ساعدتها في التغلب على الصدمة العصبية الشديدة المهلكـة، والتـي أصـابتها فـي الماضي. وفي أعماقها نسيت ميريام ماجي أمها البيولوجية. بل تناست أمها الحقيقية وأن لها أم في هذه الدنيا. وأقسمت في نفسها بألا تراها مرة أخرى. ولا تذكر اسم ماجي على لسانها أبدا. ولكن عند استلامها الـدعوة لزيارتها والذهاب إليها في لندن، والإقامة معها في قصرها لقضاء شهر كامل في ضيافتها.. لم تتـردد فـي الذهاب. وكانت في شوق كبير لمعرفة المزيد عن حياة أمها. وعندما أرسلت لها مـاجي الملايـين بمناسـبة تخرجها العظيم، لم تتبرع بالمبلغ هذه المرة للأعمال الخيرية التي تقوم بها الكنيسة. واحتفظت بالمبلغ الهائـل في رصيدها في البنك، لأنها تبنت أهدافًا أخرى في الحياة، وأرادت الاستفادة به في تحقيقها. وأدركت بعمـق أن المال قوة. قوة للخير أو قوة للشر. مثل العلم الحديث. قوة للخير أو قوة للشر. وعزمت في أعماقها علـى أن تستخدمه قوة للخير ومنفعة للناس. إذ أنها كانت تعشق الخير للخير ذاته. وعزمت أيضا على أن حياتهـا كلها ستكون قربانًا تقدمه بكل رضا وسعادة للناس أجمعين، ولفائدة البشرية جميعا في كل أشكالها وألوانهـا. ولكن ما هو الخير؟ وما هو الشر؟ وصلت إلى قناعة، بأن الخير هو العمل لصالح الجنس البشري كله؟ ولكن الأمور غير واضحة المعالم. وأفكارها ما زالت مبهمة مشوشة. الصورة لم تتضح بعد.. ولكنها اتخذت قرارا حاسما بالاحتفاظ برصيدها في بنك باركليز والعمل المستمر على زيادته وعدم التفريط فيه، لأن المال قوة. قد تكون للخير أو للشر. ولم تتبلور بعد بؤرة حياتها. لذلك عزمت على الذهاب إلى والدتها. للتمتع بقضاء شهر من الراحة والتأمل في لندن. والاستمتاع بالحياة الثقافية في عاصمة النور والعلم والمال. ولكن فـي أعمـق أعماقها تكمن الرغبة الكامنة والخفية، وهي الرغبة في معرفة من هي ماجي كالِفن. ومعرفة الكثير عن أمها. المرأة الغامضة الشاذة في كل تصرفاتها. من هي ماجي كالفن؟. من هي مارجريت تاتشر الأسترالية؟ لغـز غامض في حياتها؟ وعندما أخذت قرراها بالذهاب إلى زيارة أمها. توجهت لـلأب الصـالح فـي كنيسـته. وأعربت له عن رغبتها في أن ترافق الأم تيريزا ميريام في هذه الزيارة. ولكنه كان له رأي آخر وقال لها:

"أنت الآن قد بلغت الثامنة عشرة. والأحسن أن تذهبي وحدك، لأن والدتك في حاجة لتوثيق الروابط بـكِ بعد هذه الفترة الطويلة من البُعد. ولكن توثيق العلاقة العضوية بأمك، وخاصة بعد هذا الانقطاع الطويـل لا يحتاج إلى تواجد الأم تيريزا. وقد تفضل الأم ماجي الانفراد معكِ. لأول مرة منذ عشرات السنين. ومن حقها كأم أن تنفرد بكِ. لكي تتبينا سويا معالم المستقبل". وشعرت ميريام في أعماق روحها بمشارف عالم جديد كل الجدة وهي مقبلة عليه، وأنها تدخل في تطور هائل في حياتها، وفي كيانها الروحي. وانفعلت بقـوة وأخفـت وجهها في ثوب الأب الصالح الفضفاض، وأخذت تبكي بكاء غزيرا لا حد له ولا تعرف له سببا. ووجد الأب الصالح أن الأمور قد خرجت عن طوعه وإرادته. عندما أخبرته ميريام أنها ستحتفظ بالمبلغ الذي أرسلته أمها لها. ولن تتبرع به للنشاط الكنسي أسوة بالمرة السابقة. واستسلم الراعي الصالح لإرادة ا العلي القدير، وسلم أمره وأمر ميريام للعناية الإلهية التي لا تنام. وركعت ميريام أمام الراعي الصالح الذي تكن له كل الحـب. وقبلت يديه وأطراف ثوبه الكنسي الفاخر. والمعطر بأجود أنواع العطور. حيث كانت تشعر بسـعادة فائقـة واطمئنان روحي وسكينة نفسية، عندما تلامس ملابسه الكنسية الفاخرة والمعطرة بـأجود أنـواع العطـور

والبخور. وأخفت وجهها في ملابسه وشعرت في أعماقها أن هذا الوداع قد يكون الـوداع الأخيـر للعلاقـة الأبوية التي تربطها بالراعي الصالح. والذي كان فعلاً الأب الصالح لها وتعهدها بالرعاية والعناية بكل عطف وعناية وحنان.. كما يتعهد البستاني الماهر الورود والزهور في حديقته الغناء الممتلئة بـالورود والزهـور الرائعة. ميريام كان يدور في أعماقها تساؤل: هل هي على مشارف عالم جديد مقبلة عليـه؟ وقـد شـعرت بمشاعر مبهمة وغامضة تسري في كيانها كله، ولكنها غير واضحة. وكلها تشير إلى بداية مرحلة جديدة كل الجدة في حياتها. وكانت تجتاز مخاضا عنيفًا في وجودها ذاته، لميلاد جديد لها. أما الأب الصالح فقـد أدرك بحنكته وتجاربه الطويلة السابقة أن ميريام قد شبت عن الطوق. وأن تطورا هائلاً يجري في أعماق روحهـا، وأن الأفضل لها تركها وشأنها لتقرر مصيرها، إذ أنه من الأفضل لها تركها وشأنها. وقرر الابتعاد عنها في هذه المرحلة الحرجة جدا في حياتها. وبذلك تكتشف بنفسها دربها. وأخذ يردد الحكمة السائرة: "كل مُيسر لما خلق له. كل ميسر لما خلق له". قدوس.. قدوس. وإنها بلا شك على فجر مولد جديد. وشعر في أعماقه أنهـا على أعتاب اكتشاف البؤرة التي ستتبلور حياتها كلها حولها. واكتشاف دربها الحقيقي الذي تبحث عنه. وبذلك تظهر الوردة من أكمامها والفراشة من شرنقتها. والإنسان مسخر لما خلق لـه. وربـت بيديـه الكبيـرتين الغليظتين على أكتافها. وغالب بصعوبة الدموع التي انبثقت من مآقيه، وسالت بغزارة على خديـه. وأمرهـا بالوقوف..، وتذكر الأب الصالح كيف تسلمها وهي لا يزيد عمرها عن ثلاث سنوات تقريبا، وكيف أشـرف على تطور شخصيتها الغريبة الفذة. وأدرك وشعر بالإعصار الهائل الذي يجتاح وجودها. وقبلها في جبهتهـا عند مفرق الشعر، حيث كان شعرها الجميل الناعم مجدولاً في ضفيرتين طويلتين وأيقن في قرارة نفسـه أن هذه هي لحظة الفراق. لحظة قطع الحبل السري بينه وبين ميريام ابنته الروحيـة. لحظـة انقطـاع الصـلة الروحية التي تربطه بالقديسة الصغيرة. وأخذ يقول لها في أذنها بصوت خافت يكاد أن لا يسمع:

- " سيكون لك شأن. سيكون لك شأن".

وأخذها إلى المحراب ليتعبد إلى ا رب العالمين. وقبلت ميريام الخاتم البابوي الماسي فـي سـبابة يـده اليُسرى. وأسرعت إلى منزلها استعدادا للسفر إلى والدتها في لندن. وأول رحلة لها بدون أن تكون في رعاية الأم تيريزا. وما أغرب ما تأتي به الأيام والليالي. وأخذت تردد المثل الشعبي":

- والأيام من الليالي حُبالى مثقلاتٌ... يلدن كل عجيبة..

* * *

المشهد الرابع والثلاثون

الرحلة إلى لندن القديسة الحمراء

الثائرة في بحثها عن ا

ومن أعماق الخير يولد الشر. ومن أعماق الشر يولد الخير. والشخصية الإنسانية في تطور دائم مستمر، وكل لحظة وكل ثانية تولد الشخصية الإنسانية من جديد. تغييرات صغيرة غير محسوسة تتجمع داخل النفس البشرية، وتشكل ضغوطًا داخلية في العقل الباطن، تدفع النفس البشرية إلى النماء والتطور، وتتفاعل هذه الضغوط الداخلية مع الضغوط الخارجية التي تنشأ بسبب التغييرات التي تحدث في بيئة الإنسان الاجتماعية وفي بيئته البيولوجية. وهكذا الإنسان في تغير دائم لا نهاية له ولا حدود. وليس خروج الإنسان من الرحم هو الميلاد الوحيد للإنسان. بل الإنسان في حالة بعث متجدد. وشخصيته في حالة مخاض دائم وتطور دائم. ومن النقيض إلى النقيض، ومن حالة إلى حالة. فقانون التطور والانتقال يسري على جميع الكائنات، ويسري في تطور السدم ومولد النجوم الجديدة وموت النجوم القديمة. الحركة الدائمة هي قانون الوجود الأساسي. الوجود كله في حركة مستمرة من قطب إلى قطب. حركة متناقضة دائمة من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار. والشخصية الإنسانية تُبعث من جديد وتولد من جديد في كل لحظة. وفي كل ثانية. والوجود كله ليس إلا حركة المتناقضات. التناقض الكامن في الأشياء هو سبب حركتها الدائمة. والمطلق الوحيد في الكون هو الحركة الدائمة.. وجوهر هذه الحركة التناقضات الكامنة في قلب الأشياء، والكامنة في علاقات الأشياء بالأشياء وبالوجود كله الذي نعرفه وندركه. الإنسان والطبيعة والكون في حركة دائمة وبعث وتجدد دائم تلقائي وذاتي. الوجود رقصة خالدة. رقصة دائمة مستمرة. رقصة التناقضات التي تعم فتشمل كل شيء. والراقصة الساحرة ترتدي ثوبا جديدا في كل لحظة. وفي كل ثانية. والتناقض في الأشياء هو مبعث الحركة الديناميكية، الكامنة في الأشياء كلها: ﴿ **قُل لو كان الْبحرُ مِدادا لكِلِماتِ ربي لنَفِد الْبحرُ قبلَ أَن تنفَد كلِماتُ ربي ولو جِئْنَا بِمثْلِهِ مددا** ﴾.

وكانت الشهور الثلاثة التي قضتها ميريام مع والدتها، وبعد الانقطاع الطويل لمدة لا تقل عن العشرة أعوام. وهذا الاتصال العائلي أعاد الشمل والروابط العائلية الدافئة. وهذه الفترة القصيرة كانت من أكثر أيام ميريام خصوبة وازدهارا. وتعتبر فترة حاسمة في نمو شخصيتها المتفجرة. والحق أقول إنها لم تكن تعيش مع والدتها إلا بجسمها فقط. وليس عقلها وروحها عاشت هذه الفترة الممتعة من حياتها. في المتحف البريطاني. عاشت مع برناردشو ومع هارولد لاسكي ومع هـ. ج. ويلز. وعشقت الكاتب المسرحي المشهور هنيريك إيبسن. بل درست آدم سميث وفولتير وبرخت. والحياة الثقافية في لندن كانت في أوج ازدهارها. إذ أحدثت لها صحوة فكرية وثورة نفسية كبرى، قذفت بروحها إلى آفاق جديدة كل الجدة. وإلى مجالات أرحب وأوسع بكثير من المجالات القديمة التي كانت تعيش فيها، والتي فرضتها عليها الكنيسة في روما. ويوميا بعد الانتهاء من زيارتها ودراستها في المتحف البريطاني. تذهب لمشاهدة المسرحيات الهامة

التي تعرضها مسارح لندن. شاهدت مسرحية سيدتي الجميلة My fair lady ثلاث مرات، وكان لها تـأثير كبير على أفكارها. كذلك شاهدت widowers houses. أما مسرحية الماغورا باربـارا Major Barbara فقد كان لها تأثير خطير على مجرى حياتها. وأشعلت هذه المسرحيات الثلاث ثورة هائلة في أعماق روحها. ومن الشرارة يندلع اللهيب. الثورة على الأنماط الفكرية القديمة. الثورة على الأشـكال الزائلـة المنقرضـة. واكتشفت ميريام أن المؤسسات الدينية تحت أي اسم؛ مسيحية أو يهودية أو هندوسية أو إسلامية أو بوذيـة، كلها ليست إلا مؤسسات راكدة محافظة متطرفة ومتعصبة، لأنها مبنية على الأصول المتطرفة وعلى الإيمان بالحقيقة المطلقة. وهذا هو السبب في الحروب الدينية في العالم الحديث والقديم. لأنها تحـافظ علـى القـديم الزائل الذي تعفن. واكتشفت ميريام أن جوهر الأديان كلها واحد. وهو خدمة ومنفعة بني البشر في كل زمان، وفي كل مكان - بالرغم من تعدد ألوانها – وأن الإله الحقيقي يكمن في قلوب الناس أجمعين، وأن خدمة بني البشر هو الطريق الوحيد للوصول إلى ا . إذ أن ا كامن في روح كل إنسان. بل كما يقول بوذا: "ا كامن في كل الكائنات" ولكن المؤسسة الدينية تحت أي شكل أو لون ليست إلا حجر عثرة في سبيل تقـدم وسـعادة الإنسان. والأصولية الدينية تمنع اتصال قلب الإنسان بمصدر الوجود الشامل الكلي، وتمنع الإنسان من رؤية ا في أجمل صوره التي تعبر عن قداسة وعظمة الذات الإلهية، حيث إن إدراك الإنسـان محـدود ونسـبي جدا؟. نعم الإنسان في محاولة لإدراك المطلق، ولكنه لا يدرك إلا جانب واحد أو زاوية واحدة مـن الحقيقـة المطلقة، لأنه محدود بعدد خلايا عقله الذي يدرك به الأشـياء، ومحـدود - أيضـا - بالزمـان التـاريخي والحضاري والجغرافي الذي ولد فيه. ولا يستطيع الإنسان مهما أوتي من عبقرية إدراك المطلق كمطلق. هو يحاول إدراك المطلق، ولكن إدراكه نسبي لا يتعدى المرحلة التاريخية التي يعيشها. وهذا هـو السـر فـي الصراع بين العقائد المختلفة. والسر في الحروب الطائفية المنتشرة في أوقاتنا المعاصرة. ولو اقتنع الإنسـان أن إدراكه نسبي وأنه لا يمكن لإنسان إدراك الحقيقة المطلقة، لأن الحقيقة لا نهائية في كل أبعادهـا، وفكـر الإنسان نهائي محدود. الحقيقة لا أول لها ولا نهاية ولا آخر. ولكن الإنسان محدود جدا محدود بعدد خلايـا مخه الذي يستخدمه والعصر التاريخي الذي ولد فيه. أدركت ميريام بأن إدراك ومفهوم الإنسان عن الأشـياء والحقيقة إدراك نسبي مؤقت زائل ومرحلي. إنسان العصور القديمة الأولى يدرك الأشـياء بشـكل يختلـف اختلافًا كاملاً عن إنسان العصر الحديث. وكذلك إدراك ومفاهيم إنسان العصر الحديث ستختلف اختلافًا بينًـا عن إدراك ومفاهيم إنسان المستقبل. أي إنسان عصر الفضاء.

وأخذت ميريام في قراءة كل ما وجدته في مكتبة المتحف البريطاني عن الإسلام والتصوف الإسلامي. واكتشفت أن الفكر الإسلامي وخاصة فلسفة ابن رشد وابن سينا تعتبران من الروافد الأساسية للحضارة الغربية. واقتنعت أن وحدة الوجود Monism التي دعا إليها المتصوفة المسلمون أقرب الفلسفات إلى روحها وإلى قلبها. وفلسفة وحدة الوجود الروحي التي عبر عنها الحلاج - وهو من أشهر المتصوفة المسلمين في العصور الوسطى- أي فلسفة الوحدة والتنوع تعتبر أقرب المفاهيم إلى الصورة الحقيقية للوجود الكلي. وتأثرت ميريام تأثرا كبيرا بآراء الفلاسفة المسلمين وخاصة الحلاج الذي صُلب على الخازوق، لدعوته إلى فلسفة وحدة الوجود الروحي وتنوع الكائنات. الواحد في الكل والكل في الواحد. ومكتبة المتحف البريطاني كانت مكتبة ثرية جدا وحافلة بأروع ما أنتجه العقل البشري من روائع. وأخذت ميريام تغذي روحها من أشهى ثمرات الروح الإنسانية. وأدركت أن فكر الكنيسة الكاثوليكية لا يمكن أن يستوعب الحقيقة الكاملة. وأن الإنسان في سعيه الدائم عن الحق عليه استيعاب كل ثمرات الفكر الإنساني المتنوعة، في كل ألوانها المختلفة. واكتشفت - أيضا - أثناء تطورها الفكري الهائل أن الحقيقة غير ثابتة، ولا يمكن التعبير عنها بمفاهيم ثابتة جامدة، وأنها في حركة دائمة متناقضة، وأنه لا يمكن لمذهب فلسفي واحد استيعابها وإدراكها، لأن الحقيقة لا نهائية في كل أبعادها. وعقل الإنسان نهائي وله حدود. الإنسان محدود بعدد خلايا عقله التي يدرك به الأشياء. والحقيقة غير ثابتة وفي حركة دائمة. الحقيقة لا أول لها ولا آخر. أما الإنسان فله أول وله نهاية. ولا يوجد ثبات في هذا الكون أو ركود. في هذا الكون الديناميكي. وأن الكائنات كلها والأشياء جميعها ما هي إلا كلمات ا   الكونية. وكلمات ا   مستمدة وجودها وبقائها من ا   عز وجل. وأن الأشياء كلها في حالة حركة وجريان وتدفق. ولا ثابت إلا الحركة. وعقل الإنسان محدود في إدراكه الوجود المحيط به. وأنه محدود بعدد خلايا عقله التي تبلغ حوالي الخمسة بلايين خلية مخية (خمسة مليار خلية مخية). وبحدود العصر الحضاري الذي ولد ونشأ وترعرع فيه. واكتشفت ميريام أن التأمل والفكر والمعرفة الصادقة. أقرب الوسائل لمعرفة جانب بسيط جدا من الوجود الكلي الشامل. وحاولت ميريام أن تعيش لحظات مع الحقيقة الكلية. ولو لثوانٍ. ولكنها أدركت بوضوح أن هذا مستحيل على بني البشر، وأن المتصوفة والرهبان والنساك فشلوا في إدراك الوجود الكلي بالرغم من جهودهم المضنية المميتة. وأن المفاهيم الإنسانية كلها زائلة وسطحية ومؤقتة جدا. وحاولت عن طريق التصوف الإسلامي والرهبنة معرفة ا   معرفة يقينية - دون جدوى- وحاولت عن طريق التأمل والصلاة والعبادة والصوم والزهد واجتناب الشهوات الحسية. الاقتراب من معرفة الطاقة الخلاقة في هذا الكون دون أي جدوى. وأدركت ميريام أن الإنسان لو أضيف لعقله البلايين من الخلايا المُخية علاوة على بلايين الخلايا التي يملكها لأدرك الحقيقة بشكل مختلف - تماما - عن إدراكه الحالي. وفي صورة أخرى - تماما - وأن المفاهيم الإنسانية كلها زائلة ومؤقتة. لأن الحقيقة ذاتها في تغير دائم مستمر. وفي حركة متناقضة ذاتية. وأن الجهاز العقلي للفكر الإنساني محدود بعدد الخلايا المخية التي يملكها عقل الإنسان.

والذي ساعد في تطوير ميريام الروحي، هو انشغال أمها ماجي في أعمالها المتعددة على مستوى الكـرة الأرضية. فتفرغت ميريام لدراسة أروع ما أنتجته الحضارة الأوربية من روائع الفكـر والفـن والفلسـفة. وجاءت المفاجأة الكبرى لميريام أو الثورة الثقافية التي هزت أعماق ميريام الروحي والعقلي، عندما قـرأت للفلاسفة الماديين أمثال كارل ماركس وأنجاز وفورباخ. وأدركت ميريام أن الفكر والنشاط العقلي هو نتيجـة نشاط خلايا المخ المادية. وأنه لا وجود للروح مستقلة عن النشاط الحيوي للعقـل. وأن الوجـود الروحـي للإنسان ما هو إلا نتيجة لنشاط خلايا المخ المادي. والروح ما هي إلا نتيجة نشاط الجهاز العصبي المركزي أي المخ المادي والنخاع. واقتنعت ميريام - تماما - بأن العواطف الإنسانية ليست إلا نتيجة نشاط خلايا المخ المادية، في منطقة محددة تعرف في علم التشريح بالثالاماس. أي Thalamas واقتنعـت بالفلسـفة العلميـة التجريبية، أي بفلسفة الوحدة والتنوع، أي وحدة الوجود المادي وتنوع أشكاله الزائلة The unity and the multiformity of the universe واندفعت ميريام بكل حيوية ونشاط في استيعاب كل ما يتعلـق بفلسـفة التصوف الإسلامي. وأعجبها في التصوف الإسلامي، أنه يقوم أساسا على اقتحام الحياة، وليس على الهروب منها ومن مشكلاتها. وليس في الدين الإسلامي أية رهبنه أو اعتزال الحياة والبعد عنها وعن مشكلاتها، بـل إن ممارسة الحياة بهدف منفعة البشر - من كل لون - هو جوهر العبادات. وكادت ميريام أن تفقد توازنهـا العقلي لتعمقها الشديد في محاولة إدراك ومعرفة والاقتراب من الكل والشامل، أي الوجود المطلق. وانزعجت أمها جدا عليها، لمحاولتها التعمق في دراسة مطلقات لا يجوز في رأيها الانكباب على دراستها والإلمام بها. قالت ذلك لابنتها وهي تحاول بكل طاقتها إخراجها من هذه الدائرة المغلقة من التفكير. واستعانت بطريقة غير مباشرة ببعض الأطباء في الأمراض العقلية. وبعضهم من أشهر الأطباء النفسيين في أوربا. وقـام بعضـهم بفحص ميريام وإجراء البحوث الطبية اللازمة، وفحص عقلها بالرنين المغناطيسي، وإجراء رسـم كهربـي لعقلها. ولكن الجميع أعطى تقريرا دقيقًا عن حالتها العقلية، والجميع قد أبدوا رأيهم في أنها علـى مسـتوى عقلي ممتاز، وأن توازنها العقلي والعاطفي في أعلى مستوى إنساني. وأنها قمة في النضج العاطفي والعقلي.

وعاشت ميريام لحظات تحاول الاقتراب من الحقيقة المطلقة ومن الوجود الكلي الشامل. وأخذت تهمس في نفسها بصوت لا يسمعه أحد:

- "ما في جبتي إلا ا .. ما في جبتي إلا ا " وهي كلمات أشهر المتصوفة المسـلمين فـي القـرون الوسطى. واكتشفت أن الشبق الجنسي الحقيقي ليس إلا التحام وجودها المحـدود بـالوجود الكلـي الشامل، أي ذوبانها في عشق الذات الإلهية المقدسة.

وابتعدت ميريام عن وجودها الواقعي. وعاشت على المستوى الشاعري للوجود. وسـبحت فـي الخيـال والأحلام وفي أرقى مراتب الوجود. حاولت الارتفاع بخيالها عن المستوى المادي للوجود. واشتد قلق ماجي عليها. وشعرت أن ابنتها تبتعد عنها في عالم صنعته من أوهامها ومن خيالها. ولكن أشهر أطباء الأمـراض العقلية والنفسية في أوروبا وأمريكا أشادوا – بوضوح - بطاقاتها الذهنية الخلاقة وبقواها العقليـة المبدعـة. وأن الذي يحدث لها ما هو إلا تطور روحي طبيعي استعدادا لدخولها مرحلة جديدة مـن حياتهـا. وأنهـا لا تحتاج لأي علاج طبي معين. وأنه من الأفضل لشخصيتها تركها لشأنها ولنموهـا الـذاتي. وأن أي تـدخل خارجي قد يسيء إليها إساءة بالغة، ويلحق بكيانها ضررا بليغًا.

أما ميريام فعاشت في عالم آخر. ابتعدت بمسافات كبيرة عن أمها. وحدثت فجوة ثقافية ضخمة بين الأم والابنة. وكانت تقوم في الفجر تسير في حدائق لندن الواسعة تتعبد إلى ا العلي القدير مباشرة، بدون الأخذ بالطقوس والأساليب الكاثوليكية. وابتعدت تدريجيا عن كل المعتقدات المسيحية الكلاسيكية. وحلقت كطائر النورس في أعلى سماوات وجودها الروحي. وشعرت أن ا في قلب كل شيء. في روح كل الأشياء؛ المادية والروحية. وأن الكائنات كلها ما هي إلا كلمات ا الكونية. ومحاولة القديسين والفلاسفة والحكماء للاتصال بمصدر الوجود، قد نجحوا في التعبير عنها في كلمات ا التشريعية: (ا كائن في روح كل إنسان. وفي قلب كل شجرة. ا في الغابات والمراعي والمحيطات. الواحد في الكل والكل في الواحد. ا سبحانه في المحيطات والجبال والصحاري. في الفضاء اللانهائي. ومن المجرات الكونية التي تبعد عنا بلايين البلايين من السنوات الضوئية). وكانت تسير في حدائق لندن تناجي رب السماء والأرض، وتغني أروع الأناشيد الدينية عشقًا في الذات الإلهية وتعبدا في ا الصمد الواحد الأحد العلي القدير، خالق كل شيء بديع السماوات والأرض.

وحاولت أمها اصطحابها معها إلى الحفلات التي كانت ماجي تقيمها في لندن لخاصةِ الخاصة من كبار رجال المال والسياسة والفنون المتنوعة. وكانت تحرص ماجي على دعوة أشهر رجال العلم في العالم، لأنها كانت في سعيها الدائم للسيطرة على العالم المتحضر، لكي تنجح في تنفيذ كل مآربها ومطامعها في الحياة، التي كانت لا حدود لها. وقابلت ميريام الكثيرين من صفوة الصفوة من العلماء والفنانين ورجال الحكم والأعلام، أي هؤلاء الذين يخططون لتغيير مسار الحضارة الإنسانية، تحقيقًا مصالحهم الذاتية والخاصة. ومن هؤلاء قابلت ميريام "كرشنا مينون". وهو جراح مشهور على مستوى العالم، ويعمل في مستشفى Hammer Smith ويرأس قسم جراحة القلب والصدر. وطلبها Mr Krishina Minion إلى مرافقته في رقصة تانجو على أنغام موسيقى الدانوب الأزرق، ونصحها أثناء حديثه معها بالذهاب إلى الهند، والاحتكاك بالفكر الهندوسي. فقد تجد في فلسفة الديانة البوذية والهندوسية الكثير من الإجابات لما يدور في عقلها وقلبها من تساؤلات كثيرة، ومن أوهام عديدة لا أساس لها من الصحة، ومن الواقع العلمي التجريبي الحديث الذي قذف بالعالم الغربي إلى عصر الفضاء. أي إلى عصر الإبداع. أما في قرارة نفسه فقد كانت قناعته بأن خيال الإنسان العبقري المبدع هو خالق الأسطورة ومبدعها. والأسطورة ما هي إلا تفسير للكون على ضوء المعرفة المتاحة للإنسان في عصر ما. وقد تكون ثقافتنا الحالية ليست إلا مجرد أساطير بالنسبة لإنسان المستقبل. إنسان عصر الفضاء الذي سيرحل بين الكواكب والمجرات الكونية. وقال لها ضاحكًا أثناء رقصته معها:

- "تعرفي يا آنسة ميريام أنت عاملة زي إيه؟ أنت عاملة زي الزنجية في بحثها عن ا ؟ الرواية التي ألفها الكاتب العظيم فولتير؟. وتعتبر هذه الرواية أعظم ما ألفه فولتير، فيلسوف عصر التنوير. وفلسفة التنوير هي العامل الحاسم الذي أدى إلى سيطرة أوروبا على العالم كله، وإلى استخدام الأسلوب العلمي الذي قذف بالإنسان إلى عصر الفضاء والذرة والسفر عبر المجرات الكونية، بل السفر عبر الزمان، الذي يعتبر البُعد الرابع الذي اكتشفه العالم ألبرت آينشتين وعبر عن العلاقة بين المكان والزمان (البعد الزماني) في نظريته العامة والخاصة للنسبية General and special theory of relativity.

واستمر كرشنا في حديثه الشيق الممتع أثناء رقصته معها وعلى أصوات التانجو الهادئ:

"أنا بالرغم من أنني مولود في الهند وتخرجت من جامعة كالكتا، وما زلت أحمل الجنسية الهندية فلا أؤمن بشيء اسمه ا . الإنسان يا ميريام هو خالق فكرة ا . وخالق الأسطورة، لأنه في حاجة إلى تفسير شامل كلي للحياة والكون. وحاليا لا أؤمن إلا بالفلسفة العلمية الطبيعية. وبقدرة العقل البشري على فهم هذا الكون الرائع وإدراكه. والإله الوحيد الذي يؤمن به العالم هو إله القوانين الطبيعية بدون منازع. أؤمن بقدرة العقل البشري على التحكم في الطبيعية والحياة والسيطرة عليهما، وعلى طاقة العقل، على إدراك واستيعاب كل الظواهر المنظمة للحياة والطبيعة. وأخبرها بصراحة صدمتْها صدمة عنيفة وكرر قوله ثلاث مرات، عندما شاهد شدة انفعالها وغضبها:

- "نعم يا ميريام الإله الوحيد الذي يؤمن به العلم الحديث هو إله القوانين الطبيعية، بدون استثناء وبدون منازع. وقال لها بصراحة:

" الأديان جميعها ما هي إلا نظريات علمية لتفسير حركة الكون والحياة والتاريخ الإنساني. خلقها عقل الإنسان البدائي، لإعطاء مغزى لحركة المجتمع البشري. فكل قبيلة كان لها إله خاص بها تتعبد له خوفًا منه، ولطلب مساعدته في جلب الأمطار، وتجنب المخاطر ومعرفة ما بعد الموت، وكان يُقدم لها القرابين من ذبائح بشرية لاسترضائها وتجنب غضبها. فليست الأساطير التي خلقها الخيال الجمعي للناس إلا محاولة للسيطرة على الطبيعة التي يعتمد عليها بقاؤه وحياته، وليتمكن من التحكم في الطبيعة في مجالاتها المتنوعة. والإنسان الهمجي في بداية التاريخ الإنساني منذ آلاف السنين حاول رشوة الآلهة، بالقيام بالطقوس وتقديم القرابين من ذبائح حيوانية، أو قرابين نباتية كما في الديانة المسيحية. وفي العصور البربرية الأولى كانت تُقدم القرابين الإنسانية. أما الطقوس والعبادات فليست إلا وسائل لاستمالة رضا الآلهة. وكان لكل قبيلة إله خاص بها يساندها عند الضرورة، ويقف معها ضد أعدائها، ويرسل عليهم العواصف والصواعق، ويمنحهم الأرض التي يحيون عليها. ونشأت الأديان كلها من الخرافة والأسطورة. "وبعد الانتهاء من رقصة التانجو، توجها إلى ركن بعيد في صالة الاحتفال ليستكملا الحديث الشيق الذي أثارته ميريام بتساؤلاتها الكثيرة، والتي كانت تدور في ذهنها منذ مدة طويلة. واستمر حديث الدكتور الجراح، وكأنه يلقي عليها محاضرة في مدرج الكلية:

"أما العلم فقد نشأ من السحر. إذ أن السحر هو محاولة الإنسان البدائي السيطرة والتحكم في الطبيعة. ولا شك أن الأساطير الجمعية لعبت دورا هاما في تاريخ تطور الإنسان الحضاري، وما زالت تلعب دورا هاما جدا في حياتنا جميعا. والإنسان في أشد الحاجة إلى الأسطورة الجماعية (LLECTIVE MYTH). لكي يستطيع تنظيم حركة المجتمع الإنساني، ولكي يعيش عليها ويحافظ على تراثه الثقافي. الأسطورة ضرورة اجتماعية لاستمرار حركة وتطور المجتمع. ولينظم بها حياته ويرثها عن آبائه ويورثها لأحفاده. وهكذا يضمن استمرارية المجتمع الإنساني وتطوره".

وتوقف الدكتور كرشنا عن الحديث ليستجمع أفكاره وليرشف من عصير البرتقال الذي أحضره له الجرسون. وسألته ميريام: هل تنصح بأي كتاب لكي أزداد علما بنشأة الخرافة والأساطير. وبعد قليل من التفكير تكلم بهدوء وبصوت خافت يكاد لا يسمع:

"نعم أستطيع مساعدتك. أحسن كتاب في دراسة الأساطير هو كتاب الغصن الذهبي، الذي ألفه العالم الكبير مؤسس علم الإنسانيات أي علم (Anthropology) وهو أول وأهم دراسة في علم نشأة وظهور الأساطير والأديان والخرافات. وهو العالم "جيمس فريزر James Frazer" مؤلف كتاب The Golden Bough. وأزمة العصر الحديث إنه لم يحلم بالأسطورة الملائمة له ويستريح لها عقله، والتي بدونها يختفي المجتمع الإنساني. حيث إن الأسطورة هي لُحمة المجتمع البشري ونسيجه. حيث إن الأسطورة هي التي تربط الفرد بالمجتمع الإنساني. وبدون الأسطورة لا يوجد مجتمع إنساني. ولا يتصور وجود إنسان فرد خارج المجتمع أي خارج الأسطورة. إذ أن الإنسان الذي يحيا خارج الأسطورة فهو - في واقع الحال - يعيش خارج المجتمع، أي أنه ليس إنسانًا. لأن الإنسان هو حيوان اجتماعي. والمجتمع والعيش فيه هو الذي يكون لغتنا الجميلة وعقلنا المبدع الخلاق. وبدأت رقصة جديدة. وطلبها للرقص معه للمرة الثالثة، وأخذا يرقصان معا في شرفه القاعة المشرفة على نهر التايمز. واستمر الدكتور في حديثه ليشبع نهم ميريام من المعرفة:

"الحقيقة يا ميريام أنت أول ممرضة كاثوليكية أقابلها في حياتي كطبيب، ولها شغف كبير بالفلسفة والثقافة المتنوعة. أغلب من قابلتهم من الكاثوليك أو الأرثوذكس ليس لديهم أية رغبة في معرفة أية معلومات خارج نطاق العقيدة الكاثوليكية أو المسيحية. تعرفي يا ميريام الثقافة - وبخاصة التعمق في مجالات الثقافة المتنوعة - هي آلة الزمن الذي بها نجوب التاريخ البشري كله، نسافر في الزمان والمكان ونحن جالسون نحتسي القهوة السوداء في حديقتنا. والذي لا شك فيه هو أن وجود الإنسان الفرد في المجتمع هو العامل الحاسم في تطوير حجم مخ الإنسان. وفي خلق لغة التفاهم التي نتخاطب بها. بعد أن كان التفاهم يتم بين الناس بالإشارات الصوتية المبهمة، وكذلك نشأة اللغة فقد ساعد في تطور التركيب التشريحي لمخ الإنسان والنمو المميز لقشرة الدماغ. والتي تحتوي على ما لا يقل عن بلايين الخلايا المخية. وقشرة الدماغ هي العضو التشريحي للعقل الإنساني وأنشطته المختلفة. وكذلك قشرة الدماغ هي موضع نشاط خيال الإنسان الرائع البديع، الذي خلق الإله والأرباب، وحلق في السماوات العُلى. وللأسف عبدها الإنسان. وسجد لها وصلى في محرابها خوفًا منها ورعبا وهلعا، لكي يأمن شرها. وقدم لها القرابين البشرية والأضحيات لكي يضمنها في صفه ضد أعدائه وأعداء قبيلته". واستمر الطبيب الهندي في حديثه الخافت. وهما يرقصان رقصة من الرقصات الحديثة. والتي تقوم على تحريك كل جزء من الجسم على إيقاع الموسيقى السريع والعنيف. والتي تشبه موسيقى الزار المنتشرة في الشرق لتحضير العفاريت من العالم السفلي. واستمتعت ميريام بحديثه الذي جاب لها حالة عميقة من الصفاء العقلي والسعادة الروحية العميقة. والهدوء النفسي والسكينة، لأنها ارتاحت في هذه الأفكار الجديدة عليها، وسعد بها قلبها. وسرت النشوة الدافئة في روحها. وأيقنت أنها في سعيها للبحث عن ا . وأنها على الدرب الصحيح، لأنها اجتازت فترة من القلق والأفكار المبهمة، والتصورات الغامضة. وساد الشك فترة في قلبها في التعاليم الكنسية التي تلقنتها من الكنيسة، والتي فُرضت عليها منذ طفولتها المبكرة. ولكنها كتمت هذه الأفكار في نفسها. إذ أنها تعلمت الحكمة من العقاب الصارم الذي تعرضت له صديقتها مادلين، عندما عبرت عن بعض هذه الشكوك التي ساورتها في العقائد التي تلقتها من الكنيسة. وطردت مادلين شر طردة من رحمة الكنيسة. ولهذا فرحت ميريام بهذا الحديث الذي أنار قلبها لحقائق كثيرة، كانت في شوق كبير لمعرفتها.

المشهد الخامس والثلاثون
رحلة التصوف والرهبنة والعبادة
في محراب الحياة المقدسة

وشعرت ميريام أنها جزء من الكل. وعن طريق التعبد والتأمل والصوم والصلاة تصورت ميريام أنها على اتصال بمصدر الوجود الكلي. وعلى صلة بالذات الإلهية، وأنها في طريقها لأن تكون ربانية إلهية تقول للشيء كن فيكون، لأنها تشبعت بفلسفة التصوف الإسلامي، خاصة فلسفة وحدة الوجود. وقرأت للغزالي وابن رشد والحلاج وابن الفارض. وفي فجر كل يوم قبل طلوع الشمس صارت تسير في شوارع وحدائق لندن، وتتجول وحدها في الحقول الخضراء التي تحيط بلندن - قبل بزوغ والناس نيام- تناجي الأشجار والسحاب، وتخاطب النجوم وتكلم العصافير، وتخاطب الحمام. وشعرت – بعمق - بقداسة الوجود الحي. وصارت ترى في الكائنات كلها كلمات ا الكونية، وتحاول مشاركة الوجود الكلي في رقصته الخالدة، وتحاول فهم سر الوجود. وشاركت الكائنات جميعها في سيمفونية الخلود والخلق. وتطورت شخصية ميريام تطورا هائلاً مذهلاً. واندلعت ثورة روحية كبرى في روحها. وانبثق إعصار ضخم في كيانها كله.. الحب والجنس الذي لم تتذوقه مع كيان محدود أو مع جسم رجل معين. تذوقته. ميريام في رغبتها في الالتحام بالكون كله. وهي العذراء البتول التي لم يمسسها بشر. وتذوقت العذراء البتول الشبق الروحي، بالالتحام بالوجود الكلي الشامل، وبدلاً من شوقها للانصهار مع رجل تحبه ويحبها تشوقت إلى الالتحام مع الكون كله، مع ا سبحانه كما يقول المتصوفة والزهاد. تشوقت للالتحام بالطبيعة الخالقة المقدسة، وآمنت بوحدة الوجود الروحي الذي دعا إليه كبار فلاسفة التصوف الإسلامي. الفلسفة التي دعا إليها فلاسفة الإسلام في القرون الوسطى. قرون النور والازدهار الحضاري في تاريخ الحضارة الإسلامية. بينما كانت أوربا غارقة في ظلام دامس، وفي بربرية وهمجية لا حد لهما. واكتشفت في الإسلام وضوح الفكر وبساطة العقيدة. لا يوجد به كهنة أو رجال دين أو مؤسسة دينية. أحبت الإسلام منذ زيارتها لمصر. وأحبت عقيدته التي تقوم على العقل. كما قال كاتب المسرح الأشهر جورج برناردشو: "روعة الإسلام تكمن في أنه الدين الوحيد بين الأديان السماوية، الذي حرر الإنسان من سلطان رجال الدين. ومن سلطان المؤسسة الدينية، وخاصيته الكبرى - بل ميزته العظمى - أن علاقة الفرد با علاقة مباشرة. حيث لا يوجد وسيط أو بابا أو كاردينال. كما أنه الدين الوحيد الذي يقوم الإيمان فيه على العقل، بل الدين الوحيد من بين جميع الأديان والذي في إمكانه التعايش مع العصر العلمي. حيث لا يوجد به أية خرافات أو خزعبلات أو معجزات. كما أنه الدين البراجماتي الذي يصلح لكل الناس. وفي قلبها تمردت ميريام على أمها الحقيقية أي الكنيسة الكاثوليكية التي ربتها وتعهدتها بالرعاية والعناية منذ الطفولة المبكرة. وجرت تساؤلات كثيرة في أعماق روحها: هل حقًا ماجي الأسترالية أمها البيولوجية؟ هل تبنتها ماجي من اللقطاء في شوارع روما العتيقة؟ أو تبنتها من ملاجئ اللقطاء؟ آلاف اللقطاء في شوارع عواصم العالم الصناعي؟ ومن هي ماجي الأسترالية؟ ومن هي ماجي المرأة الفولاذية؟ امرأة محاطة

بالغموض والإبهام. هل حقًا ماجي أمها؟ أو تربطها بها أية صلة عضوية؟ إذا كانت هناك أية صلة عضـوية تربطهما. فلماذا هذا النفور المتبادل؟ بل العلاقة بينهما تقوم على الحقد النشِط المتبادل؟ نعم مـاجي أغـدقت عليها الأموال الوفيرة. وأغدقت على الكنيسة الملايين. ولكن ميريام لم تشعر أبدا بأي حب حقيقي بينهما. ولم تحس أي حنان صادق متبادل بينهما. حقًا إن دخول غِنى ملكوت السماوات أعسر من دخول الجمل في ثقـب الإبرة. حقًا لا يمكن شراء الروح. حقًا لا يمكن شراء العواطف الصادقة بالمال والـذهب. كنـوز الأرض لا تشتري الحب. كنوز الأرض لا تشتري العواطف الصادقة.

وتذكرت مريام قول السيد المسيح: "ماذا يربح الإنسان لو كسب العالم كله وخسر نفسه" هذه الآية الكريمة أيقظت في نفسها الرغبة القوية لتطوير روحها إلى الأفضل، ولتطوير نفسها إلـى الأنبـل والأرقـى. وإرادة التطور الخلاق كامنة في كل الأشياء. فكل الأشياء تتحرك لاشعوريا لتطوير نفسها إلى الأرقـى والأسـمى. واكتشفت ميريام بعد الكثير من المعاناة، اكتشفت بعد الكثير من التصوف والرهبنـة والتهجـد أن الطريـق الوحيد للوصول إلى ا خالق كل شيء، هو خدمة المساكين والناس من كل الدروب والأديـان والقوميـات. وأنه لا فضل لأحد على أحد إلا بالعمل الصالح والتقوى. نعم الطريق الوحيد إلى الفردوس وملكوت السماء، هو خدمة البؤساء من الناس. بل خدمة كل الكائنات. ومنفعة كل مظاهر الحياة الخالدة المقدسة. وكل مظـاهر الحياة المقدسة في كل صورها الزائلة ما هي إلا كلمات ا الكونية. و"طوبى للمساكين فإنهم سيرثون الأرض وما عليها". وكل هذه التصورات والأفكار كانت تجري في خيالها وتتلاطم وتتجاذب وتتنافر في محيط العقل الباطن اللانهائي، تجري جريان الأمواج الهادرة الثائرة في البحار العميقة. (أما الزبد فيذهب جفاء، وأما مـا ينفع الناس فيمكث في الأرض). وعادت ميريام إلى جناحها في الفندق الفاخر في لندن المطـل علـى بحـر التايمز. فوجدت خطابا مسجلاً في انتظارها. الخطاب صادر من كلية الممرضات للفتيات الكاثوليك. فتحـت الخطاب المسجل، وهي جالسة على مكتبها الأنيق الصغير. وقرأته. مفاجأة كبرى في انتظارهـا. أخبرتهـا عميدة المعهد. أن هناك وباء خطيرا في كلكتا. وباء الكوليرا يحصد الأرواح بالملايين، وأن الكلية اقترحـت اسمها للذهاب هناك لخدمة المرضى، حيث يوجد نقص شديد في الممرضات هناك. وأعربت العميـدة عـن قناعتها أن ميريام سترحب بكل صدق لهذا الاختيار، لأنها تعرف حب ميريام للتطوع لخدمة بني البشر مـن كل لون. وأن البشر كلهم أولاد آدم وحواء. وأضافت العميدة أن ذهابها إلى كلكتا في الهند سيعمق خبرتها في مجال التمريض، وخاصة في مجال تخصصها الذي تحبه. وقد يساعد على تعميق تطورها الروحي النفسـي. ووافقت ميريام فورا وبدون أي تردد، حتى أنها لم تحاول الانتظار لأخذ رأي أمها. اتصلت ميريام بالعميـدة في روما. وأعربت عن رغبتها في خدمة المرضى في الهند. معربة عن سعادتها الكاملة للتطوع فـي هـذه المهمة التطوعية، والتي كانت تنتظرها وهي على أحر من الجمر. وقدمت جزيل الشكر للعميدة. وقالت لهـا العميدة في الهاتف:

"العمل في خدمة البشر في أي مكان في العالم، وخاصة بين الشعوب ذوي ثقافات مختلفة عن ثقافتنا المسيحية مفيد جدا في تنمية وتعميق شخصية الممرضة. لأن الاحتكاك بالثقافات المختلفة والأديان الأخرى يؤدي إلى زيادة النفس البشرية غِنًى وثراء، ومفيد جدا لزيادة تطور الإنسان العقلي. وأرسلت ميريام موافقتها الخطية بدون استشارة أمها ماجي، أو الرجوع إليها. إذ أن ميريام قد تجاوزت السن القانونية التي تلتزم فيها بأخذ موافقة أمها. وغضبت أمها غضبة كبرى على ابنتها، وحاولت إقناعها بالعدول عن هذه الرحلة. دون أي جدوى. وصممت ميريام على الاستعداد للسفر. وبهذا أعلنت تمردها السافر على أمها ماجي. وقطعت بذلك الرابطة العضوية بأمها ماجي. وكانت من أكبر صدمات الحياة التي قابلتها ماجي في حياتها. لأنها أيقنت أن العلاقة بينها وبين ميريام قد تمزقت ربما إلى الأبد. وأن كل مخططها لكي ترث ميريام إمبراطوريتها الشاسعة قد تبخر.

* * *

المشهد السادس والثلاثون
القديسة الحمراء في كلكتا في الهند
تحارب ضد وباء الكوليرا

سافرت القديسة الصغيرة إلى روما. قابلت الأب الصالح. الذي أخذها في حضنه وأخذ يبكـي مـن شـدة الانفعال. قابلتها الأم تيريزا. صممت على مرافقتها إلى الهند. لتشارك في محاربة وباء الكوليرا الذي يحصد حياة الملايين. سافرت ميريام مع الفريق الطبي المرسل من الكنيسة الكاثوليكية، لمساعدة حكومة الهنـد فـي مقاومة هذا الوباء الخطير. وصلت ميريام إلى كلكتا. الوباء يحصد الملايين. قرى كاملاً مات كل من فيهـا. الشيوخ والنساء والأطفال. مدينة صغيرة اختفت فيها كل مظاهر الحياة. يبتدئ المرض بقيء شديد وإسـهال وينتهي بالموت بسبب الفشل الكلوي نتيجة الجفاف. اشتركت ميريام بكل همة وحماس ونشاط فـي مقاومـة الوباء. وكانت الصعوبة تكمن في تحديد الحالات التي ماتت فعلاً، من الحالات التي ما زالـت فـي الرمـق الأخير، والمحتاجة إلى العلاج العاجل. والحالات التي على وشك الموت وما زال بها رمق من الحياة، كانت ميريام تركب لها المحاليل والجلوكوز لتعيد لها التوازن المائي الضروري لاستمرار الحياة. ثم تقوم بإرسالها إلى المستشفى المركزي في كلكتا لاستكمال بقية العلاج. وكانت نسبة الوفاة مرتفعة جدا. قد تصل إلى حوالي الثمانين في المائة. اشتركت ميريام في إنقاذ حياة الألوف من السكان. وكانت تعمل في الصـف الأول فـي الفرق الطبية. غير مبالية بأي عدوى تنتقل إليها. وكانت ميريام تعمل ليلاً ونهارا. وتحمـل معهـا حقيبتهـا واكتسبت شهرة كبيرة لمهارتها في تركيب الكانيولا في الوريد. Canula intra venous وهـي مـن أهـم الخطوات في إنقاذ المريض من موت محقق. لأن سبب الوفاة الرئيسي في هذه الحالات هو الجفـاف الـذي يؤدي إلى الفشل الكلوي، نتيجة الإسهال والقيء المستمرين وفقد السوائل. وكانت الصدمة النفسية الشديدة التي وقعت على ميريام بسبب الفقر الشديد الذي يعانيه السكان. لم تر فقرا كهذا الفقر من قبل. النـاس يعيشـون كالذباب ويموتون كالذباب. آلاف الناس لا بيوت لهم. يعيشون في الطرقات وفوق الأرصـفة. أسـر كاملـة تعيش وتحيا وتموت على أرصفة الشوارع. وتذكرت روما وشوارعها النظيفة العريضة، ومنازلها الفـاخرة وقصورها الجميلة المحاطة بالحدائق الواسعة. أما في كالكتا بالهند فالفقر في أسوأ حالاته. القذارة فـي كـل مكان. الذباب يتغذى على جثث الموتى التي تُركت بدون دفن، لأن الجميع ماتوا ولم يبقَ إلا بعض المرضى في حالة ضعف شديد. لا يستطيعون القيام بأي عمل. وانتصر الموت على الحياة في كلكتا. حاربت ميريـام الموت في كل مكان. قرى كاملة لا يوجد بها أي أثر للحياة. لا إنسان ولا حيوان. لا فار أو قط. اختفت كـل مظاهر الحياة. الصمت يخيم على الأشياء كلها. الجفاف يقتل الحياة. (وخلقنا من الماء كل شيء). هل نظرية مالتوس صحيحة. النظرية القائلة بوجود علاقة بين الكثافة السكانية والأمراض والحروب، إذا زاد عدد الناس عن إمكانيات الغذاء والحياة تدخلت الطبيعة بأسلوبها، وانتشرت الحروب والأوبئة والمجاعات لتعيد التـوازن بين الكثافة السكانية وبين إمكانيات الأرض لإنتاج الغذاء؟. كل هذه الأفكار كانت تجري في خيـال ميريـام.

واستمرت ميريام في مكافحة الوباء. كانت تعمل ٢٤ ساعة يوميا. رأت الحياة في أقذر صورها ورأت الموت في أسوأ حالاته. الحياة والموت. الموت والحياة متقاربان جدا. لا يفصل بينهما فاصل أو حدود. الحياة لغز داخل لغز. كيف تستطيع ميريام على ضوء الفلسفة الدينية، تفسير هذا القدر الهائل من العذاب والبؤس والألم واليأس؟. كيف تفسر هذا التناقض المريع والفجوة الكبيرة بين الأثرياء والفقراء في العالم؟ وخاصة في الهند. ري الفقر يقتل كرامة الإنسان وقداسته. ويدمر كل ما فيه من إنسانية. حقًا كاد الفقر أن يكون كفرا.

في قرية صغيرة في زيف كلكتا. دخلت ميريام بيتًا لا يوجد به أحد ولا يبدو فيه أي بصيص حياة. الكل في عداد الموتى. حوالي عشرين جثة، وبعد فحصها بدقة، قررت إرسالها في عربات البلدية إلى المحرقة للحرق وتحويلها إلى رماد. وقد نصحها العمال الذين يعملون معها بعدم الدخول خوفًا على حياتها. لا يبدو أي بصيص أمل. ولكن القديسة الحمراء صممت على الدخول وفحص كل جثة بدقة قبل إرسالها إلى المحرقة. وحاولت إنقاذ هؤلاء الذين أوشكوا على الموت. إذ أنها اكتشفت حالات عديدة أُرسلت إلى المحرقة، وقبل إحراقها اكتُشف أن بها رمقٌ من الحياة وتمكنت من إنقاذها. دخلت ميريام المنزل. اكتشفت امرأة في عمر الثلاثين عاما على وشك الموت. وبالرغم من توقف نفَسِها فما زال قلبها ينبض نبضات ضعيفة غير محسوسة إلا بصعوبة. فصممت وعقدت العزم على توقيع الكشف الطبي الدقيق على الجميع، حتى الذين يبدو عليهم علامات الموت الأكيدة. ومنهم فتاة لا تتعدى الثالثة عشر. قرر العمال الطبيون أخذها للمحرقة، إذ توقف نفَسُها وقلبها عن الخفقان. وكان معها بطارية في حجم الإصبع. اكتشفت عندما قربت البطارية لحدقة العين وجود رد الفعل المنعكس القرني. ومعناه أن الفتاة الشابة ما زال فيها آثار الحياة. النبض ضعيف جدا لا يُحس إلا بصعوبة. والتنفس توقف. ركبت لها كانيولا في الوريد Intra venous canula وأعطتها المحاليل اللازمة للحياة. ووضعت في المحاليل المضادات الحيوية اللازمة مع الأدوية المنشطة للقلب والتنفس. أرسلت إشارة بجهاز اللاسلكي على المركز الطبي التابع لها لإرسال طائرة هليوكوبتر لنقلها إلى وحدة العناية في المستشفى المركزي. أنقذت ميريام الفتاة من موت محقق. وفي اليوم التالي أصيبت ميريام بنوبة كوليرا حادة. وقاربت بسرعة على الموت. نُقلت بسرعة إلى المستشفى المركزي. وهي بين الحياة والموت. وكان قائد الطيارة الطيار ممدوح إسماعيل فريد. وقد أُرسل من القاهرة ضمن الفريق المصري لمساعدة الهند في مقاومة الكوليرا التي انتشرت في مقاطعات كثيرة. واكتشف ممدوح إسماعيل أن من بين المرضى الذي ساعد في إنقاذهم فتاة بيضاء من أصل أوروبي. وكانت في حالة احتضار. واكتشف أن هذه الفتاة تشبه الفتاة التي قابلها في سيدي بشر. وزار معها جامع سيدي مرسي أبو العباس. وتأكدت له صدق ظنونه عندما راجع صورتها التي أهدتها له في الإسكندرية، عندما ذهب إلى المطار ليودعها في سفرها إلى روما. وعادت إليه الذكريات البعيدة والتي يحتفظ بها العقل الباطن في أعماق تلافيفه. تذكر كيف أنقذها من موت محقق في بلاج سيدي بشر. عندما اصطحبها معه في قاربه البخاري إلى بر الأمان. وتذكر المراسلات الرائعة التي أرسلتها له من مدرسة الممرضات الكاثوليك من روما. وراجع مقر البعثة الكاثوليكية في كلكتا وعرف أن اسمها ميريام، وأنها تعمل في مدرسة الممرضات الكاثوليك في روما. وذهب إلى المستشفى ليستطلع الأمر. وتيقن أنها ميريام عندما قابل الأم تيريزا. بجوار سريرها وهي تصلي لها صلاة الوداع الأخير. وتعرفت عليه الأم تيريزا بصعوبة. وعرفت أنه قائد الطائرة التي أحضرها إلى قسم العناية الفائقة في المستشفى المركزي كالكتكا.

القدر يلعب دورا هائلاً في حياتنا. كل شيء بقدر. البسمة قدر. الدمعة قدر. السعادة قدر. الحـزن قـدر. كيف يقابلها للمرة الثانية وهو الذي نسي اسمها؟. وقرأ في ملفها (الاسم: ميريام راهبة كاثوليكية خريجة كلية البنات للممرضات الكاثوليك. وعضو البعثة الإيطالية لمساعدة الهند في مكافحة الوباء) كانت حالتهـا سـيئة جدا. فاقدة الوعي بما حولها - تماما - وكانت على أبواب النهاية. استدعى لها رئيس الفريق المصري، وهو طيب مشهور في الأمراض الباطنية ومدير مستشفى الحميات بالعباسية بالقاهرة. وكانت تربطـه بالـدكتور صادق كُحيل صداقة عميقة. وتطوع في الفريق الطبي المصري لمساعدة الشعب الهندي العظـيم. وأشـرف الدكتور الأستاذ صادق على عالجها بنفسه. أشرفت ميريام فعلاً على الموت المحقق. وضع ممدوح نفسه في أوقات فراغه للعناية وتمريض صديقته الإيطالية. والقيام بتغذيتها بنفسه. وتنظيفها من البراز والقـيء يوميـا بعد الانتهاء من عمله، في إحضار المرضى الجدد من القرى النائية إلى المدينة. كان الطيار ممدوح إسماعيل فريد يذهب إلى العنبر الذب تقيم به ميريام للإشراف بنفسه على إعطائها المحاليل اللازمة لحياتها. ويركـب لها كانيولا وريدية لإعطائها المحاليل. وقد علمه صديقه الدكتور صادق، أثناء اشتراكهم سويا فـي محاربـة أوبئة أخرى في السعودية والسودان. ميريام كانت غائبة عن الوعي - تماما - ولا تدرك ما يـدور حولهـا. وكان يشرف على تنفيذ كل أوامر الأطباء، وخاصة ما يقرره الدكتور صادق. ويغير لها ملابسها وينظفها من القاذورات المتجمعة حول جسدها. ويشرف بنفسه على استمرار إعطاء المحاليل لها بالوريد، والذي كان يعلم أنه العلاج الأساسي في مثل هذه الحالات. استمر ممدوح في تمريضها بالرغم من تدهور حالتها العامة. ولم ييأس. إذا توقف جهاز التنفس، يسرع لاستدعاء الدكتور صادق. صارعت ميريام ضد الموت بشجاعة نادرة. وبحيوية هائلة. وقاومت غزو الموت بصلابة تُحسد عليها. وكثيرا ما كان يتوقف القلـب أو التـنفس فيقـوم ممدوح بعمل تنفس صناعي لها وتدليك يدوي للقلب. حتى يعود القلب إلى الخفقان. وخاصة فـي منتصـف الليل، كان يسرع لإحضار الدكتور صادق بنفسه. وبفضل هذا المجهود الهائل، تحسنت حالتها. بدأت تعـود إلى وعيها وتدرك ما يدور حولها. تحسنت حالة النبض. اختفى الاضطراب وعدم الانتظام في التنفس وفـي دقات القلب. وبفضل مثابرة ممدوح على تمريضها بدأت تتغلب على الموت، الذي كاد أن يفتك بها، ونبضات القلب عادت إليها الانتظام، وأصبحت محسوسة، وتحسنت حالة الجفاف، وبدأت الكلية تعـود إلـى حالتهـا الطبيعية. وعادت الانعكاسات العصبية على الجهاز العصبي. وعاد إلى العمل المـنعكس العصـبي الغيـر إرادي. وبدأت ميريام تتحكم في السيطرة على التبرز والتبول. توقف الإسهال والقيء. تحسنت حالة الهـزال الشديد الذي أصابها. الطيار ممدوح كان بعد الانتهاء من عمله في نقل المرضى إلى المستشـفى المركـزي، يقوم بنفسه يوميا بتغيير ملابسها وإحضار ملابس جديدة وجافة لها، وإعطائها حمام كحولي، لينظفها من أيـة فضلات أو بقايا للبراز أوالقيء وذلك للعجز الشديد في عدد الممرضات المـدربات، والكثـرة الهائلـة مـن المرضى.. وتحسنت حالة ميريام تحسنًا ملحوظًا. بفضل المجهود الكبير الذي بذله الطيار ممدوح إسـماعيل فريد. وشعر ممدوح بالسعادة كلها عندما فتحت عينيها ورأته. وتصورت أنه ممرض يعمل في المستشـفى. ولم تتذكره في البداية. ولم تتعرف عليه إلا بعد سبعة أيام من عودة الوعي إليها. وعادت إليها ذاكرتها بـبطء شديد. ولما عاد إليها وعيها الكامل وأدركت ما يدور حولها، أخبرنها الممرضات أن هذا الممرض طيار من مصر، وأنه عضو البعثة الطبية المصرية. وأنه طيار متطوع لخدمة المرضى. وقصصن عليها أنه من سلاح

الطيران المصري. وأنه لولا رعايته لها وعنايته بها لأصبحت في عداد الموتى. وأنه قام بعمل رائع في إنقاذ آلاف المرضى. وأنه هو الذي أحضرها إلى المستشفى من القرية النائية. وأخبرنها أن الحكومة الهندية قد منحته أعلى وسام للشرف والشجاعة والذي يُمنح في مثل هذه الحالات. وأن الضابط الطيار قد اهتم بها اهتماما كبيرا، وخاصة عندما أشرفت على الموت المحقق. وبدأت الذاكرة تعود إلى ميريام تدريجيا وتذكرت الإسكندرية. بلاج المنتزه وسيدي بشر. قصر الملك فاروق. وبدأت تتذكر رحلتها إلى مصر. إلى أسوان ومعبد فيله في وسط النيل العظيم، والشاب في سلاح الطيران المصري الذي أنقذها من الإعصار الهائل حول الصخرة في المنتزه. وكيف أنها ركبت قاربه البخاري لتتمكن من العودة إلى الشاطئ. وتناولهما الغداء معا. وزيارتها مسجد سيدي مُرسي أبو العباس معه. وتذكرت أحاديثه الرائعة عن ديانة الإسلام. وأن مقابلتها له قد شكلت العامل الحاسم في تحررها من التعصب لعقيدة أصولية واحدة. وأنه عن طريق الحوار معه استطاعت الإيمان بكل العقائد والأديان. الوحدة والتنوع. الحقيقة لها ملايين الأشكال والمظاهر. وأن هذا الشاب قد أثر في حياتها تأثيرا حاسما، وساعدها في تطورها العقلي الهائل الذي حدث لها في رحلتها إلى الحياة الثقافية في لندن. تذكرت اسمه بالكامل ممدوح إسماعيل فريد. الشاب الذي تعرف عليها في الصخرة في شاطئ المنتزه. الحقيقة كلها عادت إليها. قواها العقلية لم تتأثر بالمرض الشديد الذي ألم بها. الشاب الأسمر الدمث الأخلاق الذي شاركها الطعام الذي قدمته له الأخت تيريزا.!! الدنيا مسرح كبير. ما أعجب تصاريف الحياة. ما أعجب تصاريف الأيام!! الشاب الذي توقف عن مراسلتها فجأة بدون إبداء أي سبب. ولسبب لا يعلمه إلا ا . حقًا القدر أعظم مؤلف مسرحي. أروع من ألف ليلة وليلة ومن مسرحيات وليم شكسبير. تعجبت ميريام لمعجزة القدر. القدر العجيب الذي يؤلف مسرحية وينسخ مسرحية. القدر الذي يبني حضارة ثم يدمرها في لحظات. القدر الذي ينشئ مجرة كونية ثم يدمرها. والليالي من الزمان حُبالى. مثقلاتٌ يلدن كل عجيبة. ما أعجب الحياة وما أروعها. الحياة الخلاقة الخالقة التي تعبر عن نفسها في ملايين الملايين من الصور الزائلة والأشكال المرحلية. والحياة معجزة خلق مستمرة. وأيقنت ميريام أن الخيال أروع ملكات العقل. إذ أن الخيال هو جناحا العقل الذي يحلق بهما العقل في أرجاء الزمان والمكان. والعقل هو الذي خلق العلم والفن والأساطير. وبدون خيال يموت العقل وتموت روح الإنسان المبدع الخلاق. والعقل بدون خيال هو نسر بدون جناحين. نسر لا يستطيع التحليق فوق أعالي الأشجار وفوق أعالي الجبال، وفوق المحيطات وفي السماوات!. وكل هذه الأفكار كانت تجري في خيالها المبدع جري الأمواج في البحار العالية، وتتلاطم في أعماق عقلها الباطن تلاطم الأمواج الهائلة في المحيطات الثائرة الهادرة.

وعند حضور ممدوح للسؤال عنها، تعرفت عليه وفرحت به وابتسمت له. وأخذت تبكي بانفعال شديد. وتقبل يديه وترى فيه الإنسانية الفاضلة مجسدة في كائن إنساني. وسعد بها ممدوح السعادة كلها. وفرح ممدوح بعودتها إلى الحياة الفرح كله. وابتهج قلبه بمعجزة الحياة المتجددة. وانتصار الحياة على الموت. وشكر ا العلي القدير على معجزة الحياة. وأيقن ممدوح أن عصر المعجزات لم ينتهِ. والحياة تولد دائما أبدا من جديد. والحياة تُبعث من الموت والفناء. النور يولد من الظلام. وفرح ممدوح بها كما لم يفرح بأي شيء آخر في حياته العريضة كلها. وسالت الدموع من عينيه أنهارا وبللت خديه وملابسه.

ممدوح : الحمد   على سلامتك. أهلاً بك يا ميريام. لقد سبق أن قابلتك في مصر. في الإسكندرية عند الصخرة في المنتزه. وتناولت الغداء معكِ. شكرا لك يا رب العالمين.

لم تستطع ميريام الكلام. وأخذت تبكي وتضحك. الصدمة كانت شديدة عليها. الفرحة باللقاء بعـد الغيبـة الطويلة. وحاولت القيام من الفراش لأخذه في أحضانها. ولكن لم تتمكن من الوقوف على قـدميها. فـاقترب ممدوح منها حتى تتمكن من احتضانه. وقد أصيبت ميريام بحالة هستيرية من البكاء والضـحك، عـادة مـا تصيب المرضى الذين ينتصرون على الموت ويبدءون حياة جديدة. وأخيرا تمالكت ميريام أعصابها، وتكلمت بصوت خافت يكاد لا يُسمع.

ميريام : أنا سعيدة إني شفتك. انت ليه توقفت عن الكتابة إلي..؟ مقابلتي لك في الإسكندرية كان لهـا أثـر كبير جدا على مجرى حياتي. وكذلك مراسلاتك أفادتني جدا. كان لك فضل في تطـوير قـدراتي العقلية والروحية. وعرفت عن طريقك أن جوهر الأديان واحد، وتعلمت منك احترام وتقديس كـل الأديان. لأنها كلها محاولات الإنسان لفهم هذا العالم الذي نعيش فيه. محاولات البشر إدراك الوجود الكلي. محاولات الجنس البشري فهم وتقديس ا   سبحانه. وعلمتني ضرورة احتـرام كـل العقائـد والمذاهب. فهي محاولة صادقة جادة لمعرفة علاقة البشر بهذا الكون الكبير اللانهائي الرائع. أعتبر مقابلتك لي في الإسكندرية الميلاد الحقيقي لوجودي. إذ أن الميلاد الحقيقي للإنسان هو مولد ضميره ووجدانه. فقد اتسع ضميري ووعيي ليشمل الإنسانية كلها. وليس دين واحد معين. وتطور التزامي نحو مجموعة معينة من بني البشر إلى التزامي نحو الإنسانية جمعاء، ونحو الحيـاة المقدسـة فـي صورها المتنوعة وأشكالها الكثيرة. بل نحو الكون اللانهائي في أبعاده وأشكاله. (وشعرت ميريـام بإعياء شديد من شدة انفعالها، فاستلقت على الفراش لتريح جسمها المتعب).

استُدعي ممدوح لإسعاف بعض المرضى في القرى النائية وإحضارهم إلى المستشفى المركـزي. وتعجـب ممدوح من روعة تجدد الحياة من جديد. وكيف أن نبتة الحياة قد قوي عودها واشتد قوامها. وعادت الخضـرة على العود اليابس الجاف. بريق الحياة عاد إلى عينيها الجميلتين. فرح بها ممدوح فرحة لا تقـل عـن فرحتـه بانتصار مصر على العدوان الثلاثي. فرحة لا تقل عن فرحته بعودة القنال إلى مصر. شعر أن ميريام تعبر عن أجمل ما في الحياة من معاني نبيلة. وأيقن أنه يعشق هذه الفتاة. ولكنه يعشق روحها. حبه لها تسامى عن الحب الجسدي. ولا يفكر فيها جسديا. هذه الفتاة الرائعة الجمال قد انتصرت على كل الشهوات الحسية. وتجبرك على النظر إلى روحها والاستمتاع بجمال وجودها العقلي الذي وسع البشرية كلها. ميريام التي رفضت شهوة الجنس القاهر لرجلٍ. أحبت الجنس البشري كله. وأعطت حياتها كلها إلى الجنس البشري وخدمة بني الإنسان في كـل مكان، ومن كل لون ومن كل قومية ومن كل دين. لا فرق عندها بين مسيحي ومسـلم أو يهـودي أو بـوذي. الجميع في محرابها سواسية. الجميع سواء أمام عرش الرحمن. تذكر الأخت تيريزا. وبعد الانتهاء من عملـه، ذهب إلى مقر البعثة الإيطالية لرؤيتها. وصُدم عندما علم بوفاتها بسبب الإصابة بحالة كوليرا حـادة، وتوفيـت بالرغم من كل العلاجات التي أخذتها. وتوفيت في نيودلهي حيث ذهبت لإنقاذ بعض المرضى، فأصيبت بنوبـة كوليرا حادة قضت عليها ودُفنت حسب التقاليد الهندوسية. وأُحرقت جثتها مع آلاف الجثث الأخرى.

عاد ممدوح إلى المستشفى بعد الانتهاء من إنقاذ المرضى. ذهب إلى غرفتها. وجدها في نوم عميق وتبدو عليها علامات الصحة والعافية. جلس بجوار الفرش بهدوء حتى لا يزعجها. أحضرت الممرضـة صـينية الغداء. تناولها ممدوح وأعرب لها عن رغبته في إطعام ميريام بنفسه. ورجاها التفرغ للمرضـى الآخـرين، وأنه يسعده إطعامها بنفسه، لأنها أغلى شيء لديه في الحياة. وهي في حالة ضعف شديد لا يسمح لها بتنـاول الطعام بمفردها وأشرف بنفسه على إطعامها. وكان يحضر بنفسه لإطعامها بيديه وعـادت إليهـا صـحتها وعافيتها بسرعة معقولة. واستطاعت التغلب على حالة الوهن والضعف. ودخلت في دور النقاهة. وتماثلـت للشفاء. وعادت إليها رغبتها في الحياة وتجرأ ممدوح وأطلعها على موت الأم تيريزا. فاكتشف أنها على علم بوفاتها. وقالت له:

"الأخت تيريزا قدمت حياتها قربانًا لإنقاذ الألوف من أبناء الهند. ذهبت إلى نيودلهي بالرغم من معارضة اللجنة المسئولة عن مكافحة الوباء. إذ أنها تبلغ السبعين عاما. تعرف يا ممدوح كام واحد مـات فـي الهنـد وبنجلاديش. ضحايا الوباء بلغوا حاليا العشرة ملايين. الموت في سبيل البشرية حياة. وبهـذا يفقـد المـوت الرعب الذي يثيره في قلوب الناس. أعظم ما تعلمته منها أن السعادة الحقيقة هي العطاء والبذل. وكانت دائما أبدا تردد قول السيد المسيح: "ماذا يربح الإنسان لو كسب العالم كله وخسر نفسه. ماذا يربح الإنسان لو ربح العالم كله وفقد ذاته. الكنز الوحيد الذي يولد به الإنسان هو نفسه. ولكن أغلب الناس لا تدرك هذه الحقـائق. ولهذا يعيش الغالبية من البشر في تعاسة وبؤس وخوف من كل ظالم. والسعادة الوحيدة في هذا الكون الرائع هي السعادة الروحية".

عادت ميريام بسرعة إلى الصحة، بفضل مقاومتها الشديدة للمرض، وبفضل تفاني ممدوح في خـدمتها - أيضا - النضارة عادت إلى وجنتيها. رونق الحياة عاد إلى عينيها. تماثلت - تماما - إلى الشفاء الكامل بدون أية مضاعفات جانبية. وصممت على العودة إلى عملها الشاق. وكانت تقابل ممدوح أحيانًا لقاء عابرا. وذلـك نظرا لانهماكها في إنقاذ الموتى وانهماكه في إحضار المرضى إلى المستشفى المركزي. ولكنها شعرت نحوه بشعور عميق، وأنها مرتبطة به برابطة مقدسة. رابطة روحية خالصة وصله عاطفية شديدة. بالرغم من أنـه من أبناء دين آخر ومن ثقافة مختلفة. أدركت أن صلتها الروحية بممدوح صلة عقدها ا وأرادهـا المـولى سبحانه، وأنها رابطة مقدسة لا يفكها إلا الموت. وشعرت في أعماقها أنهما سويا على درب واحد اختاره لهما العلي القدير. وأدركت بصدق أنها وممدوح سيشتركان سويا للصراع ضد أعداء البشرية. كما اشتركا سـويا في محاربة وباء الكوليرا. وأن هذه هي إرادة ا العلي القدير. وأن ممدوح وميريام سيكونان جنودا مجنـدة في حزب الحياة. وسيبذلان حياتهما بكل سخاء لإنقاذ الكوكب الأرضي.

* * *

المشهد السابع والثلاثون
جبهة الدفاع عن العقل والحياة في العالم أجمع

ارتبط ممدوح وميريام سويا بحركات التحرير في جميع أنحاء العالم، وفي تشكيل جبهة من أحزاب الألوية الحمراء وأحزاب الخضر، للدفاع عن البيئة والحياة في العالم أجمع.

واشتركا سويا في مقاومة الوباء. واشتراكهما في العمل سويا في خدمة بني البشر والناس جميعا. وثقَ العلاقة المبنية على الصداقة الدافئة والحب الصوفي الروحي بينهما. وتوقفت الزيادة المستمرة في عدد الموتى، وتوقف استمرار انتشار الوباء الذي حصد ما لا يقل عن خمسة عشر مليونًا من البشر. وزادت الصلة الروحية التي ربطت بين قلبين وبين روحين عمقًا وجمالاً وروعة. وكانت ميريام دائما تردد قول الكاتب الأيرلندي الأشهر جورج برناردشو: (أروع علاقات بشرية في هذا الكون الفسيح وأقدسها هي العلاقة بين الأنثى والذكر ولكن على المستوى الروحي فقط. وتوجد إمكانية للعلاقة الروحية والصداقة البريئة المنزهة عن الشهوات الحسية والجنس البيولوجي. فالحب الجنسي سرعان ما يزول. والشهوة الجنسية مؤقتة جدا وعادة ما تتحول بفعل الزمن إلى كراهية وحقد ورغبة في التملك والامتلاك. أما الحب الروحي المبني على التفاهم العقلي والتجاوب العقلي فهو مستمر ودائم، لأنه مرتبط بالحب الكوني الذي يربط الفرد بالكون كله. الواحد في الكل والكل في الواحد. الحب الروحي يؤدي إلى ميلاد إنسان المستقبل. إنسان عصر الفضاء أي إنسان الإبداع والخلق. أما الحب الجنسي الجسدي فهو لا يؤدي إلا إلى زيادة الأنانية الفردية، ولا يؤدي إلا إلى ميلاد الإنسان البيولوجي، إنسان النازية والصهيونية والتطرف الديني. إذ أنه قائم على غريزة التملك والفردية المقيتة والأحاسيس البيولوجية المؤقتة والحقد على الآخر. وميلاد حضارة المستقبل يكمن في سيادة الحب الروحي، أي في سيادة العقل وحب الآخر. وليس تاريخ التقدم البشري. ولا هدف للأديان البشرية وفلسفتها وثقافاتها وعلومها وفنونها إلا التطور من الإنسان القرد، أي الإنسان البيولوجي، إلى الإنسان الروحي الاجتماعي، أي من الحب الجسدي الشهواني المؤقت إلى الحب الصوفي الروحي الدائم. الذي يشمل الحياة كلها والوجود الكلي بملايين صورِهِ وبلايين أشكاله المؤقتة). وتأثر ممدوح بكلمات جورج برناردشو تأثرا كبيرا بحيث انكب على دراسة كل ما كتب، وأعجبته المسرحية الطويلة لبرناردشو التي مُثلت في مسارح لندن لمدة أربع سنوات وتعتبر أطول مسرحياته "العودة إلى موتوشيلح" وهي أطول مسرحيات "شو" ومثلت في لندن وأخذت من الوقت تسع ساعات تقريبا. ومتوشيلح هو نبي من أنبياء بني إسرائيل عاش ما يقرب من التسعمائة وخمسة وسبعين عاما. ومعنى المسرحية أن قصة الإنسان ليست إلا قصة التطور من القرد كثيف الشعر إلى ا . من الفرد البيولوجي الأناني الشهواني الذي لا يهمه إلا التملك والمزيد من التملك إلى الإنسان الروحي الاجتماعي، الذي يسعى إلى منفعة الكل، والذي يحب الآخر. الواحد في الكل والكل في الواحد.

شعرت ميريام في أعماقها بمولد مشاعر نقية في قلبها، وبمولد عاطفة روحها صـادقة تجـاه ممـدوح. وأدركت أنها حققت أجمل عاطفة في حياتها وهي الحب الروحي البعيد البعد كله عن الشهوات الجنسية. وأنها حققت أروع ما في حياتها وهو تجسيد الحلم الذي كانت تحلم به دائما أبدا، وهو العلاقة الروحية بين الـذكر والأنثى، بعيدا عن الإخصاب وعبادة الجسد والشهوات الحسية. أي حققت حلم حياتها وهـو تجسـيد الحـب الروحي بينها وبين ممدوح إسماعيل فريد. وكانت ترغب في رؤيته ليلاً ونهارا. وممدوح كان يزورها فـي أحلامها العميقة، تحيط به هالة من القداسة والطهارة. شعرت نحوه بقوة جذب أقوى من إرادتها. ولكنها قـوة جذب صافية لا علاقة لها بالجسد وأحاسيسه. قوة جذب شدتها إلى الشاب الأسمر بأقوى من إرادتها. بل أقوى من الحياة ذاتها. وشعرت بعمق بأنه لا فكاك لها منه ولا فكاك له منها.

وانتصرت الحملة التي قادتها ميريام وممدوح على وباء الكوليرا الذي حصد أرواح الملايين. وقبل سفرها إلى روما أقامت الحكومة الهندية وهيئة الأمم المتحدة حفلاً كبيرا لميريام وممـدوح، تعبيـرا عـن شـكرها للمجهود العظيم الرائع الذي بذلته فرقة الكنيسة الكاثوليكية للممرضات، وكذلك الفريـق الطبـي المصـري. وحضر الحفل كل رؤساء الدول الكبرى والدول الصغرى ومندوبين من جميع كنائس العالم. وقدمت الحكومة الهندية لهم أكبر وسام في الهند، وهو وسام المهاتما غاندي. وقدمت هيئة الأمم للفريقين أعظم وسام في هيئة الأمم. ومنحت ميريام وممدوح جائزة نوبل للسلام. وحضر الحفل البابا يوحنا الثالـث نيابـة عـن الكنيسـة الكاثوليكية. ومنح بركاته لميريام ولممدوح. كذلك منحهما لقب القديسة والقديس. أطلق على ميريـام "قديسـة القرن العشرين". وأطلق على ممدوح لقب "قديس العالم الثالث" وكان ممدوح أول مسلم فـي التـاريخ يُمـنح القداسة من جناب بابا الكنيسة الكاثوليكية. وهكذا بدأ البابا الفلسفة الجديدة التي يدعو إليها، وهي الثقافة القائمة على احترام وحب الآخر. وكان يرى قداسته أن أخطر ما يهدد البشرية هو الحقد على الآخر وعدم احتـرام رأيه. وإن الإنسان لا يمكنه إدراك إلا الحقيقة الجزئية أي النسبية. لأنه من المستحيل إدراك الحقيقة الكاملـة. وكل إدراكنا للحقيقة المطلقة هو نسبي. "نعم نحن نحاول إدراك الحقيقة الكاملة ولكن هيهات. هيهات. فإننا لا نستطيع إدراك الحقيقة الكاملة. إذ أن الإنسان محدود جدا. محدود بعصره الذي ولد فيه. محدود بعدد خلايـا مخه المادية التي تدرك الأشياء. محدود بالمستوى الحضاري الذي نشأ وتربى فيه. وضرب لهـم مـثلاً؛ (إن أساطير إنسان العصور الهمجية الأولى كانت متلائمة مع مستواه الحضاري التكنولوجي. ولا يستطيع إدراك ا كما يدركه إنسان العصر الحديث). والحروب الحديثة ما هي إلا الحرب بين المطلقات. والأديان جميعهـا ما هي إلا محاولة العقل الجمعي للبشرية، إدراك الحقيقة المطلقة في الزمن التاريخي، إذا تعلمنا احترام الآخر وحبه لعاشت الإنسانية في سلام. ولهذا إذا عمت وانتشرت النظم الديمقراطية التي تقوم على قداسة الإنسـان وحقه في التعبير عن رأيه بالطرق السلمية مهما اختلفنا عنه، لاختفت الحروب من على ظهر أمنا الأرض.. وإن الإنسانية في خطر، وخاصة إذا استخدمت القنابل الذرية في إقناع الآخرين بالحقيقة المطلقة كما نـؤمن بها. وأضاف البابا قائلاً:

"عارفين حكاية الفيل والعميان. خمسة عميان نجحوا في اصطياد فيل في الغابة التي يقطنون فيها. الأول قال بتأكيد الواثق من نفسه: لقد أمسكنا بخرطوم طويل لكي نستعمله في ري الحديقة. وقال الثاني: لقد أمسكنا بشجرة بلوط ثمينة نستطيع بيعها في سوق الخميس. وقال الثالث بلهجة الواثق من نفسه: لقد أمسكنا بمروحة هائلة ستساعدنا في التغلب على مشكلة الحر. وقال الرابع: لقد تمكنا من الإمساك بقطعة من الصلب تساعدنا في بناء الكوخ إلى أن ننوي بنائه، وقال الخامس: أمسكنا بقطعة عاج كبيرة لبيعها في السوق". هذه هي العلاقة بين إمكانيات الإنسان على الإدراك وبين الحقيقة المطلقة. وأغلب الحروب الدينية والطائفية نشأت من اقتناع الإنسان بأنه يملك الحقيقة الكاملة ويمكنه إدراك الحقيقة بشكل مطلق. ولا يتأتى إنقاذ البشرية في عصرنا الحديث إلا إذا اقتنعنا أن إدراك الحقيقة لا يمكن أن يكون لبني البشر إلا بشكل نسبي مرحلي وجزئي. إذ أن الحقيقة لانهائية في كل أبعادها. ونحن البشر محدودين جدا. وصدق القرآن الكريم ﴿ **وما أوتيتُم من العِلم إلا قليلاً** ﴾ وصدق إسحاق نيوتن الذي اكتشف القوانين الخاصة بالجاذبية والذي قال قبل موته: "في البداية كنت أتصور أنني عرفت كل شيء وأدركت الحقائق كلها. وفي النهاية أيقنت - تماما - أنني لست إلا طفل صغير ألعب في حبة رمل واحدة من بلايين البلايين من الخلايا. فالكرة الأرضية التي نشأت الحياة عليها جزء صغير جدا من المجموعة الشمسية التي نتبعها. ومجموعتنا الشمسية لا تشكل إلا حبة رمل تافهة في محيط لانهائي من المجموعات الشمسية، بل من بلايين البلايين من المجرات الكونية.

وأمسكت ميريام بالميكروفون بعد الحبر الأعظم - كما يطلقون عليه - بابا الكنيسة الكاثوليكية. ووجهت الكلام للحاضرين:

"أشكركم على هذا الشرف العظيم الذي منحتموه لي. ولزملائي في فريق الكنيسة الكاثوليكية. كما أشكركم على الشرف الذي منحتموه للفريق المصري. وخاصة للدكتور صادق كحيل والطيار ممدوح إسماعيل فريد. وأشكر قداسة بابا روما الذي ضرب المثل في حبه واحترامه للآخر. فمنح قداسته أرفع الأوسمة في الكنيسة الكاثوليكية للطيار المسلم ممدوح إسماعيل فريد. وهو أول مسلم يمنح وسام وشرف القداسة في تاريخ الكنيسة عموما. وهذا هو الدليل الحي على أن البشرية على مخاض جديد. لمولد نظام عالمي جديد. نعم نحن على أبواب عصر الفضاء والسفر بين الكواكب. عصر الإبداع وانتصار حب الآخرين في النفس البشرية. والذي كان أول من دعا إليها السيد المسيح تقدس في السماء اسمه. والذي قال: "من ضربك على خدك الأيسر فأدر له خدك الأيمن". والمخاطر التي تواجه الإنسانية في العصر الحديث مرعبة، إذ أن التفاهم فيها سيكون بالأسلحة الذرية والهيدروجينية. وقد أوشكت الشركات متعدية الجنسيات ومتعدية القوميات على تدمير كوكبنا الأرضي البديع. حتى العلم الحديث استُغل لتدمير البشرية جمعاء. الإنسان في خطر. دافع الربح الأقصى قضى على آمال البشرية العريضة في غد أفضل. دُمرت البيئة بشكل كامل بفضل جشع الشركات العالمية متعدية ومتعددة الجنسيات والقوميات، التي استغلت أرقى ما وصل إليه العلم الحديث في تحقيق الربح الأقصى، فهذه الشركات العملاقة هي المستفيد الوحيد - في الحقيقة - من انتشار الأسلحة والحروب في كل مكان. وهي التي نشرت الدعارة على مستوى عالمي. وبدافع الربح الأقصى نمت هذه الشركات تجارة المخدرات في العالم. وهذه الشركات التي تحتكر صناعة الأسلحة الحديثة تثير الصراعات في كل مكان من

العالم. وتجبر دول العالم الثالث على شراء الأسلحة الثمينة من أجل أقصى ربح ممكن. وهذه الشركات حولت المرأة من الأم الخالدة إلى الأنثى البيولوجية، لعرضها في الفاترينات في عواصم الدول الكبرى في برلين ولندن ونيويورك وغيرها. وحولت الجنس من ضرورة اجتماعية تقوم على الحب الروحي والاجتماعي إلى الحب الجسدي. وأخطر ما يوجه العالم الحديث هو تحول الجنس من ضرورة اجتماعية لتكوين العائلة الإنسانية إلى ضرورة بيولوجية لا تعبأ إلا بالشهوات الحسية. وكاد الإنسان الحديث أن يغرق في شهواته وأحاسيسه الجسدية وإفرازاته البهيمية. والشركات العملاقة متعدية الجنسيات والقومية هي الرابح الوحيد من تجارة الأسلحة. وهناك بلاد في العالم الثالث لا تجد بسهولة رغيف الخبز أو المسكن اللائق لأبنائها. وتُجبر بواسطة أمريكا والغرب على شراء أسلحة حديثه بأسعار خيالية. هل تعرفون أن سبعين في المائة من ميزانية العالم الثالث تُصرف على أسلحة متقدمة لا تستطيع حتى فهمها أو استعمالها. ومن أجل دافع الربح الأقصى أثارت هذه الشركات العملاقة فيروس التطرف الديني في العالم أجمع. وليس من الأسرار أن المخابرات الأمريكية هي التي غذت الأصولية الدينية في جميع أنحاء العالم الحديث. هل من المعقول أن فوائد ديون العالم للشركات في الغرب تتجاوز دخلها السنوي في أحوال كثيرة. ودخل الشركات الغربية من تجارة المخدرات أي السموم البيضاء يأتي في المرتبة الثانية بعد تجارة السلاح. نعم أنا أتهم العالم الغربي بأنه يدعي النظام الديمقراطية كذبا. بل هو الذي ساعد أقصى أنظمة ديكتاتورية ليضمن وصول الأرباح الهائلة إلى خزائنه. أنا أتهم العالم الغربي أنه وراء إحياء الأساطير القديمة مثل الصهيونية والتطرف المسيحي والتطرف الإسلامي، لتدمير شعوب كاملة مثل؛ الصهيونية والتطرف المسيحي والتطرف الإسلامي، ولتدمير شعوب كاملة مثل تدمير الأمة العربية. هل تعلمون أن دولة إسرائيل تملك ترسانة أسلحة ذرية في إمكانها تدمير كل الدول العربية المتخلفة جمعاء إلى العالم كله.

إخواني.. "العالم في خطر. الفجوة أصبحت هائلة بين الدول الغنية والفقيرة. الأغنياء يزدادون غنًى والفقراء يزدادون فقرا. كما صرح بذلك مدير البنك الفيدرالي الأمريكي في حديثه إلى مجلة النيويورك تايمز، إذ أعلن بصراحة أن الفجوة أصبحت هائلة بين الدول الرأسمالية إلى الشركات متعدية الجنسيات والدول الفقيرة. وقد تشكل هذه الفجوة الهائلة الشرارة التي قد تدمر النظام الرأسمالي، وتدمر معه الحضارة الحديثة. وحاليا تتقهقر البشرية إلى عصور الظلام والهمجية. وتنتهي أعظم حضارة إنسانية شاركت في صنعها كل الشعوب وكل القوميات وكل الأديان. وأي قراءة بسيطة في التاريخ المعاصر تثبت صدق كل كلمة أقولها، ولذا أعلن من فوق هذا المنبر تشكيل جبهة للدفاع عن الحياة المقدسة في كل مظاهرها من الأحزاب الآتية:

١- حزب لاهوت التحرير الذي قاد الكفاح ضد هذه الشركات عابرة القارات ومتعددة القوميات.

٢- الألوية الحمراء في جنوب شرق آسيا.

٣- حزب الخضر في أوربا، الذين يدافعون عن البيئة والحياة في كل صورها وفي كل أشكالها.

٤- حركات التحرير المستنيرة التي لا تدعو إلى التعصب أوإلى كره الآخر، بل التي تدعو إلى السماحة واحترام الآخر، وإلى حب الآخر واحترام رأيه في حقه في التعبير عنها وممارسة أي دين يقتنع به.

٥- الأحزاب المستنيرة في جميع أنحاء العالم التي تقف بحزم ضد التعصب الديني والطائفي والقومي. والتي تدعو إلى العلمانية والعقلانية واحترام الرأي الآخر.

٦- العلماء من كل أنحاء العالم الذين انحازوا بشجاعة إلى الشعوب في صراعها ضد الشركات متعدية الجنسيات والقوميات. والذين شكلوا جبهةً للدفاع عن الحياة والديمقراطية والحب.

٧- الأحزاب السياسية في كل بلاد العالم التي تقوم على الفلسفة المستنيرة والتسامح بين كل الشعوب وكل الأديان. واحترام حقوق الأقليات.

"إخواني الكرام.. العالم في خطر. الحضارة الإنسانية على أبواب الدمار الأكيد بفعل الإنسان ذاته التخريبي. العلم أصبح السلاح الأساسي في هزيمة الشعوب في كل مكان. على الشعوب المقهورة أن تتحد في صراعها المصيري ضد هذه الشركات، التي كادت أن تدمر حضارتنا الرائعة الجميلة التي شيدتها شعوب العالم قاطبةً. وعلينا أن نستغل العلم الحديث في معركتنا المصيرية ضد الرأسمالية المرعبة والعولمة الأمريكية، التي تسعى إلى القضاء على كل الأقطاب والمراكز. بحيث لا يبقى إلا الغول الأمريكي ليبتلع كل مساكين العالم. يا مساكين العالم اتحدوا. فقد أوشكت أمريكا على تدمير حضارتكم الجميلة التي ساهمت كل شعوب العالم في بنائها عبر آلاف السنين. يا مستنيري العالم اتحدوا معي ومع الشرفاء في كل مكان ضد المؤسسات الأمريكية أي البنك الدولي وصندوق النقد ومؤسسة الجات، وكلها مؤسسات أمريكية لا تسعى إلا إلى تدمير العالم كله، وإلى خلق العولمة الأمريكية بقيادة مركز أحادي واحد هو الغول الأمريكي، الذي يغذي كل الحركات الأصولية في جميع أنحاء العالم. الغول الأمريكي الذي ساند كل حركات الديكتاتورية والتطرف الديني بألوانه المختلفة من إسلامية ومسيحية وصهيونية. الغول الأمريكي كثيف الشعر الذي يكسب البلايين من تجارة السلاح لجميع أنحاء العالم، والذي يربح البلايين من مافيا المخدرات والسموم البيضاء ويدعي في الوقت نفسه أنه يحاربها. الغوريلا الأمريكية التي أنشأت البنك الدولي وصندوق النقد والجات (العولمة الأمريكية). أي النازية الجديدة.

إخواني المستنيرين في جميع أنحاء العالم... اتحدوا في هذه المعركة المصيرية ضد أعداء الحياة. نحن على أبواب مرحلة جديدة في حياة كوكبنا البديع. ولنستخدم العلم في سبيل ميلاد العالم الجديد - عالمنا الجديد - العالم المستنير الذي يؤمن بفلسفة الاستنارة التي ولدت في عصر النهضة الأوروبي، عالم يقوم على الحب وحرية الإنسان وقداسته، مهما كان الجديد القائم على قيم التسامح والحب، والذي يقوم على قيم الحرية لكل الناس وعلى الديمقراطية لكل الشعوب. وعلى هزيمة كل الأقزام الطغاة الذين أقامتهم أمريكا حكاما للعالم الثالث. وعلينا تجسيد قول السيد المسيح: "ماذا يربح الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه... ماذا يكسب الإنسان لو كسب العالم كله وخسر ذاته".

الذي بات مهددا. ومن يعش يرى.

المشهد الثامن والثلاثون

"المشروع Y النازية الجديدة. العولمة بقيادة مركز واحد للهيمنة الأمريكية على العـالم، والقضـاء علـى العالم الثالث اقتصاديا وسياسيا. إحياء الأصولية الدينية بكل ألوانها".

ومرت الأيام. ومرت الليالي. غضبت ماجي على ابنتها ميريام. لرفضها الاشتراك معهـا فـي أعمالهـا الكثيرة. التي درت عليها البلايين. وشمل غضبها الكنيسة الكاثوليكية. وعجبت ماجي كل العجب لتطوع ابنتها لمكافحة وباء الكوليرا في أقذر بلاد العالم الثالث. وتذكرت ماجي أيامها الأولى في أستراليا. وكيف تضورت جوعا. واشتد عجبها لتصاريف الأقدار، وكيف أنها وهي من أغنى أثرياء العالم. وتعجبت كيف أنها أنجبـت هذه الابنة العاق المتمردة على كل المؤسسات. وكيف تذهب ابنتها لتموت في خدمة الإنسانية. وفـي خدمـة الجياع والفقراء والصعاليك التي تتمنى ماجي القضاء عليهم. واشتد نقدها للكنيسة الكاثوليكية. ونـدمت أشـد الندم أنها عهدت للكنيسة في روما بتربية ميريام منذ الصغر. ميريام حاليا شخصية أخرى مختلفة - تماما - عن أمها البيولوجية. ميريام تعشق الشهوات الروحية، وتنفر من الذهب الأصفر الرنان وتحب الثقافة. نـدمت ميريام على أسلوبها في تربية ابنتها الوحيدة. ثمرة الحب الوحيد في حياتها. وخاصة عندما رفضت ميريـام البقاء في لندن والإشراف على شاليهات الحب. التي أنشأتها ماجي في جميع بلاد العالم. أخبرتها بصراحة أنه كان من الأفضل أن تكون تنشئتها في بيت من بيوت الدعارة التابع لماجي. وإن الفتيـات اللاتـي تمارسـن الدعارة في بيت من بيوت السعادة والبهجة أقرب لماجي، وأكثر حنانًا عليها من ابنتها البيولوجيـة ميريـام. وعبرت بصراحة أنها نادمة على تنشئة ميريام في أحضان الكنيسة. وأنها لو كانت ربتها في بيوت السـعادة لكانت حاليا ابنتها الحقيقية. وأن صلتها الوثيقة بالفتيات اللاتي يمارسن العمل في بيوتها صلة وثيقة مقدسـة، كصلة الأم الحقيقية ببناتها الحقيقيين. وأنهن يقُمن بأعمال تجلب الملايين إلـى خزائنهـا، وتجلـب السـعادة الروحية والجسدية للكثير من الناس من كل الطبقات. صممت ماجي على قطع أي معونة لميريـام. وقامـت فعلاً بقطع الصلة بين حساباتها في جميع فروع العالم، والتي كانت تقوم بتغذية حساب ميريام في بنك "رومـا ـ أمريكا". واكتشفت ماجي أن ميريام سحبت الملايين للصرف على فقراء العالم. كذلك قامت بوقف أي منح جديدة للبابا والكنيسة الكاثوليكية. عندما أيقنت أن أسلوب الكنيسة الخاطئ قد جعل من ميريام قديسة حمـراء متمردة عليها، وعلى المؤسسات التي شيدتها بعرق جبينها. وهكذا زادت الفجوة اتسـاعا بـين الأم وابنتهـا. وزادت الجفوة عمقًا وعمقًا. بحيث توقفت الأم عن مراسلة ابنتها. وتبين لماجي الفولاذية أن التمـرد عليهـا وعلى سلطتها ونفور ميريام منها بدأ عندما أطلعتها على الملف الخاص بنشاط العلاج الطبيعي والحب، الذي در الملايين بل البلايين على خزائن ماجي في بنوك العالم. إذ اكتشفت ميريام أن هذا المشروع لا يزيـد ولا ينقص عن أنه مشروع دعارة على مستوى عالمي. وبخاصة أنها أخبرتها أنها قرأت في مجلة Newsweek ومجلة Times أن بيوتها للعلاج الطبيعي ما هي إلا مواخير للجنس والخطيئة تحت مسمى كـاذب. وكانـت أكبر صدمة لميريام عندما قرأت هذه المقالات. واقتنعت الابنة أن أمها تشرف على وتدير مؤسسات للدعارة العالمية أي العولمة الجديدة. ولقد كان هذا الاكتشاف هو الذي دفع ميريام إلى الثورة والتمرد، وإلى احتضانها الفقراء في جميع أنحاء العالم.

حزنت ماجي للخسارة الكبيرة التي مُنيت بها. ولكن فات أوان الإصلاح. لأن ميريـام تجـاوزت السـن القانونية. وأصبحت ميريام حرة نفسها وتملك إرادتها الكاملة. وما فائدة البكاء على اللبن المسكوب. وكانـت ماجي في مكتبها السري في سدني، الذي تؤمنه الأجهزة الدقيقة لحراستها ضد أي تنصت عليهـا. اسـتلمت رسالة عاجلة لحضور اجتماع الحكماء السبع الذين يتحكمون في مصير العالم الحديث. سيُعقد الاجتماع فـي المكتب البيضاوي خارج نطاق الجاذبية الأرضية. في مدار القمر. ونُبه عليها بالاستعداد الطبي للسفر بطريقة الليزر والرنين المغناطيسي. فرحت ماجي بهذه المفاجأة لأنها أصيبت باكتئاب شديد لنفور ابنتها منها. تناست كل شيء يتعلق بميرام، واتصلت بتوأمها الروحي الدكتور برنارد ألبا جراح القلب المشهور، وعهـدت إليـه بالإشراف على مراكز العلاج الطبيعي والحب، علاوة على إشرافه على بنك نقل الأعضاء البشرية العالمي.

استعدت ماجي للسفر بواسطة الأشعة الإليكترو مغناطيسية. وأخذت العقار اللازم المضاد للآثار الجانبيـة للسفر خارج نطاق الجاذبية، بواسطة الأشعة الإليكترو مغناطيسية. واشتد عجبُها من شدة حـرص الحكمـاء السبعة على السرية المطلقة. أليس السفر بواسطة سفن الفضاء أيسر وأسهل عليها، وأضـمن علـى سـلامة جسمها وفسيولوجيته الطبيعية. إذ أنها عانت معاناة حقيقية من الآثار الجانبية للسفر بواسطة الأشعة الإليكترو مغناطيسية في المرات السابقة. ولكن الصلة بينها وبين الحكماء السبع لم تكن لتسمح بمناقشة هذا الموضـوع الخطير بصراحة. ولكنها عزمت على مناقشته بصراحة في المرات القادمة. ولماذا لا تسافر بسفن الفضـاء، وقد تكون آثارها الجانبية أقل خطورة ولا تقل - بتاتًا - عن الآثار الجانبية للسفر عبـر الأشـعة الإليكتـرو مغناطيسية، وأخذت ماجي العقاقير الخاصة بهذه الوسيلة المخيفة للسفر. وذهبت إلى مراعي كاليفورنيا فـي منطقة كثيفة الأشجار والأحراش وسط الغابات الكثيفة، إذ يوجد مبنًى صغير عليه لافتة صغيرة مكتوب عليها (مركز مقاومة الحشرات والآفات الزراعية). ودخلت قاعة المبنى الكيميائي البيولوجي لمقاومـة الحشـرات. حيث الآفات الزراعية تصيب الأشجار بأمراض كثيرة متنوعة. وقفت ماجي في محطة الإرسال بعد وضـع الكارت الإليكترو مغناطيسي الخاص بها الذي به بصمة صوتها وبصمة رائحتها، وخاصـة رائحـة الإبـط الأيسر المميزة لكل إنسان منذ بدء الخليقة، وكذلك بصمة الإشعاعات الصادرة من نشاط عقلها. فكـل عقـل بشري له بصمة خاصة به منذ بدء الخليقة، وتظهر في أشعة الرنين المغناطيسي.

لم ينتابها ما انتابها المرة الأولى من الرغبة في الغثيان والقيء، لقد ساعدتها العقاقير - التي نُصحت بتناولها قبل السفر في المرور بهذه التجربة - على التغلب على الآثار الجانبية. ولكنها شعرت بصداع نصفي شديد. إلا أنها تمكنت من السيطرة عليه والتحكم فيه بصعوبة بالغة. وجلست في مكانها المعتاد الذي أُمرت بالجلوس فيه. وفي ثوانٍ قليلة توافد الحكماء السبع العمالقة الذين يحكمون العالم كله. ويتحكمون فـي مصـيره. نُقـل إليهـا . إلى خلايا مخها بدون أي كلام أو إشارات معينة. كل هذا Yالمشروع السري جدا الذي يطلق عليه المشروع يعتبر أخطر مشروع تقوم بتنفيذه هيئة إخـوان ماسـون لتحقيـق Yإمعانًا في السرية التامة. وهذا المشروع مصالح الشركات العملاقة متعدية الجنسيات والقوميات والأديان. ونُقل إلى خلايا مخها المشروع الخطيـر فـي ثوانٍ. بواسطة جهاز يعمل بأشعة الليزر. يُطلق عليه "جهاز تجسيد الأفكار الإنسانية" وهو صورة مطورة مـن جهاز كشف الأكاذيب الذي تستخدمه وكالة المخابرات الأمريكية في كشف النشاط المعادي للولايـات المتحـدة . أي المخابرات المركزية الأمريكية.Central intelligence services (CIA)الأمريكية المعروفة بـ

وهو جهاز نقل الأفكار من المخ على مخ الشخص المخاطَب. ويعتبر أحدث طرق الاتصال في عالمنا المعاصر. والمشروع Y يعتبر أخطر مشروع تقوم به هيئة الحكماء السبع. ولهذا أحيط بسرية كبيرة. ونُقل المشروع في ثوانٍ إلى خلايا مخ ماجي.. في ثوانٍ قليلة. وأصبح المشروع الضخم الذي قد يبلغ المائة صفحة إذا كتب على الكومبيوتر، مطبوعا في فكرها أي في عقلها. ظهرت علامات السعادة الحقيقية على أسارير وجهها. كان كيانها في أشد الحاجة إلى مغامرة كبرى جديدة. وخاصة بعد المقابلة العاصفة بينها وبين ميريام بعد اكتشاف ميريام أن أمها تدير أكبر شبكة دعارة في عالمنا الحديث. كما جاء في مقالات التايمز والنيويورك الأسبوعية. لقد وصلت إلى حالة القنوط والاكتئاب التي لم ينقذها منها إلا هذا التحدي الجديد لكيانها القوى، الذي لا يعيش إلا على التحديات، وشعارها دائما "الحياة موقف تحدٍ للمخاطر والأهوال. ما لم يُتمن يزيدني قوة". وعادت إليها الحيوية والنشاط. وتناست - تماما - هزيمتها مع ابنتها الوحيدة. وما الحياة إلا موقف تحدٍ في سبيل الحياة. والذي صنع عظمة أمريكا هو مغامرة الجائعين المطرودين من الاضطهاد الديني، الذي ساد في أوروبا ودفع الملايين من الكادحين والجائعين وأصحاب الفكر الحر إلى الهجرة إلى العالم الجديد. أولئك الذين هربوا بجلدهم من التعصب الديني والمذهبي والعقائدي والقومي، الذي انتشر في أوروبا في القرن الخامس عشر. وأدركت ماجي بفكرها الثاقب أن الذي صنع الولايات المتحدة هو روح التحدي للأنماط الفكرية السائدة في المجتمع، فحدث التقدم الحضاري الهائل في كل ميادين الفكر والثقافة والعلم والفن. وأخذت تكرر في نفسها وتردد لإقناع نفسها بأنها على صواب في الإقدام على كل هذه التحديات قول فيلسوف الألمان الشهير فريدريخ نيتشه: "الحياة وقفة تحدٍ. عِش في خطر. احذر من السكون والسكينة والطمأنينة. احذر من الركود. عِش في خطر. ابنوا مدنكم على حافة الهاوية. ابنوا عُشكم في قمم الجبال. الحياة وقفة عز وشموخ. حذار من الطمأنينة والثبات".

وبعد أداء الطقوس الخاصة بالصلاة لرب الملك سليمان في لحظات. اختفى جميع الحاضرين في المكتب البيضاوي الذي يدور في مدار كوكب القمر. عادت ماجي إلى مكتبها الأنيق في سدني أستراليا. وفي عقلها جميع تفاصيل المشروع Y المشروع الخطير الذي سيغير مستقبل العالم. ويلٌ للضعفاء ويلٌ للمساكين. ويلٌ لشعوب العالم الثالث. ويلٌ للمساكين فإنهم لن يرثوا شيئًا إلا فقاقيع الصابون. وتذكرت الكلمة التي كان الدكتور فكري الزيني - حُبها الأول والأخير - ولا يمل من تكرارها: "أما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض". أما ماجي الأسترالية فقد سعدت بالمشروع وعادت السعادة إلى روحها والبهجة إلى قلبها. وزارها صديقها القديم الشيطان ليتأكد من ولائها له. إذ أن هذا المشروع سيجعل منه ملكًا على كوكب الأرض. وجامعها الشيطان، وأوصلها على حافة الشهوة وقمتها، واجتاحت وجودها الروحي عاصفةٌ من الشهوة الشيطانية. ونجح إبليس في إيصالها إلى أروع مراحل الحب. أي إلى مرحلة الاسترخاء الكامل التي كثيرا ما تحدث بعد الوصول إلى قمة الشبق بعد جماع الشيطان معها. ونامت نوما عميقًا ولم تستيقظ من نومها العميق إلا بعد ثمانية وأربعين ساعة. أخذت حماما دافئًا في حمامها الوردي المعطر بأحسن الروائح العطرية. وطلبت أخصائي علاج طبيعي وهو من أمهر من لديها في بيوت الحب والاسترخاء التي تملكها، وأجرى لها تدليكاً ومساجا لكل عضلات جسدها المرهق بعد معاناة بالأشعة التي تعمل بالرنين المغناطيسي. ونامت نوما عميقًا هادئًا بدون أحلام يوما آخر. وقامت ماجي من نومها العميق على استعداد كامل، لمواجهة أعنف وأقوى تحديات قابلتها في حياتها المثيرة والعنيفة.

استدعت ماجي توأمها الروحي الدكتور برنارد ألبا، لتطلعه على المشروع الجديد. تنفيذًا لأوامر المكتـب البيضاوي وتوجيهاته حيث إن الدكتور الشهير سيلعب دورا هاما في زياراتها لمصر. وتناولت طعام العشـاء الفاخر في شقتها الخاصة، والتي تحاط دائما بالسرية التامة، وبأجهزة حديثه مانعة للتصنت. وأثنـاء تناولـه طعام العشاء الفاخر الذي أعدته له، دار بينهما الحديث التالي:

ماجي : أهلاً وسهلاً. أنا اشتقت أشوفك. تصدق أنا جاية من السفرية دي في غاية الإرهاق والإعيـاء. أنا نمت حوالي ثلاثة أيام للعودة إلى حالتي الطبيعية!.

برنارد : الحمد على سلامتك. أنا فضلت عدم إزعاجك حتى ترتاحي راحة تامة.

ماجي : اللي تعبني قوي هو السفر عبر المجال الإليكترو مغناطيسي. كان عندي شعور قـوي للقـيء والغثيان. ولكني تغلبت على هذه الأعراض. بس أُصبت بالصداع النصفي ولم أُشف منه إلا بعد فترة طويلة من النوم العميق. إيه رأيك في أنني أفضل السفر بالسـفن الفضـائية. لأن آثارهـا الجانبية أقل خطورة. ولا ضرر منها إطلاقًا على الجهاز العصبي المركزي. وأعتقد أنها لا تقل عن السفر بالمجال الإليكترو مغناطيسي الرنان في المحافظة على السرية التامة. إيه رأيـك يـا برنارد؟

برنارد ألبا : لا أوافق على هذا الكلام. طريقة السفر عبر موجات الرنين المغناطيسي الإليكتروني لا ضرر منها إطلاقًا على الجهاز العصبي المركزي. وخاصة إذا تناولـت العقـاقير الخاصـة للسـفر بالموجات الإليكترو مغناطيسية الرنانة حيث يتحول الوجود المادي للإنسان إلى موجات خاصـة غير مرئية، وتتجسد هذه الموجات في محطة الاستقبال في المكتبة البيضاوية في مدار القمـر. ولا شك أنها أضمن طريقة للوقاية ضد التجسس والتنصت - أيضا - عـلاوة علـى أن سـفن الفضاء قد تصطدم بأي نيزك، أو أي كوكب سيار آخر، أو بمركبة فضاء أخرى، وقـد تكـون سفينة الفضاء من سفن الأعداء الراغبين في التصنت والتجسس علينا. وأعتقد جازما أن السـفر بواسطة الرنين الإليكترو مغناطيسي أكثر أمنًا من الناحية الصـحية مـن أي طريقـة أخـرى. ولحماية المكتب البيضاوي من أي محاولة تجسس أو التصنت. ولمنع اكتشاف المكتـب. وأنـت أدري بخطورة الوضع.

صمتت ماجي قليلاً لتمعن التفكير فيما قال. وظلت في فترة صمت. عرضت عليه فنجان شـاي وقطعـة جاتوه بالشوكولاتة، وأخذت ترتب أفكارها وأفضل أسلوب لتلخيص المشروع الخطير الذي قـرر الحكمـاء السبع البدء في تنفيذه. وصمتت برهة لعرض المشروع عليه والذي سيشترك معها فيه.

ماجي : المشروع الخطير الجديد يطلق عليه الكود Y وأهدافه الآتي:

١- يوجد خوف كبير من كساد عالمي مرعب قد يهدد أسس النظام العالمي الجديد، الذي وضع الحكام السبعة أسسه. ولذا يجب السعي لتنشيط الصراعات الدينية والعرقية والقومية في كل مكان. لضمان ازدهار تجارة الأسلحة. إذ أن تجارة السلاح تدر أرباحا كبيرة على الشركات متعددة ومتعدية القوميات المعروفة Multi national companes وتشكل أرباحها ستين في المائة من التجارة العالمية.

٢- نشر فيروس التطرف الديني في العالم أجمع، وخاصة في الشرق الأوسط وفي آسيا واليابان.

٣- تنمية تجارة المخدرات والسموم البيضاء، لأنها تشكل نسبة لا بأس بها من أرباح التجارة العالمية.

٤- توجيه المنظمات العالمية (صندوق النقد - البنك الدولي - اتفاقية الجات لزيادة مديونية العالم الثالث) لضمان استغلالها بالكامل.

٥- العولمة الاقتصادية مقدمة للعولمة السياسية. ويوجد نوعان من العولمة، مع العلم أن العولمة حقيقة واقعية لا مفر منها. النوع الأول من العولمة متعدد المراكز والأقطاب.. والنوع الثاني أحادي المركز وله قطب واحد، ليهيمن ويتحكم ويسود على بقية دول العالم. والاستراتيجية هي استخدام كل المؤسسات العالمية في سبيل ميلاد عالم أمريكي واحد، أي الهيمنة الأمريكية على العالم سياسيا واقتصاديا وعسكريا، وكله في خدمة المصالح الأمريكية، أي استعباد واستغلال شعوب العالم أجمع لتحقيق المصالح الأمريكية.. لن يُسمح بعولمة متعددة المراكز والأقطاب. الاستراتيجية التي سنسعى وننفذها هي السعي للعولمة الأمريكية للعالم أجمع. لن يُسمح لأوربا أو إنجلترا أو اليابان أو الصين بوجود مستقل عن الهيمنة الأمريكية. وبدأت هذه السياسة في التنفيذ عندما بدأت الغوريلا الأمريكية في القضاء على وجود يوغوسلافيا السياسي والاقتصادي. عالم واحد تحت قيادة واحدة وهي الهيمنة الأمريكية على الكرة الأرضية. ومن يقاوم هذه الهيمنة الأمريكية لن يُسمح له حتى بمجرد التعايش السلمي. عالم واحد تحت سيادة وسيطرة مركز واحد، هو أمريكا الصهيونية فقط. أي هيمنة النازية الجديدة. أي سيادة فلسفة رُعاة البقر الأمريكيين، الذين قضوا على عشرة مليون هندي أحمر. هؤلاء الذين عاشوا في العالم الجديد قبل غزو الجنس الأبيض، وتعرضوا إلى التطهير العرقي والإبادة العراقية المنظمة الواعية. وهذه الخطة والاستراتيجية تمارسها حاليا دولة إسرائيل أو النازية الجديدة، التي تقوم على سيادة مذهب القوة والعنف والتطهير العرقي، والاستيلاء على أرض الغير بحجة أساطير واهية لا أساس لها من الصحة أو الصدق... وتتكرر هذه العملية في العصر الحديث في عملية التطهير العرقي، الذي تمارسه دولة إسرائيل والصهيونية في القضاء على العرب سكان فلسطين منذ آلاف السنين. منطق الغوريلا كثيفة الشعر نفسه يمارس حاليا تحت مسميات جديدة؛ الحضارة والديمقراطية والحرية، أي نفس فلسفة العنف والقوة والاستيلاء على أراضي الغير تحت مسميات جديدة. أي زيادة فجوة النفاق الذي تمارسه أجهزة الإعلام الرهيبة التي تقنع الناس في كل مكان، بما يتلاءم مع مصالح الشركات العملاقة عابرة القارات.

٦- أخطر من يهدد سيادة الصهيونية الأمريكية هو الأحزاب والجمعيات، والمفكرون الذين يسعون لنشر مبادئ التنوير والحرية والعقلانية. العالم الرأسمالي الآن في مرحلة حاسمة من تاريخه. أما الانتصار الكامل وخضوع كل العالم للهيمنة الأمريكية (أي النازية الجديدة أي سيادة قطب واحد، وهو منطق الرأسمالية الأمريكية، وتحقيق أهدافها للهيمنة الأمريكية على العالم). أو الهزيمة الكاملة ونهاية النظام الرأسمالي. لذا تسعى أجهزة الإعلام في العالم الغربي على نشر الثقافة التي تخدم مصالح النازية الجديدة، أي ثقافة وفلسفة اللاعقلانية والتعصب الديني والخرافات في كل مكان. لأن استخدام الناس لعقولهم في فهم ما يجري، سيؤدي حتما إلى كشف المستور والخفي والخلفية الحقيقية لما يحدث في عالمنا الحديث، لذا اتسعت فجوة النفاق بين ما يحدث في عالمنا الحديث، وبين الأقوال والثقافة التي تروجها أجهزة الإعلام التي تملكها الشركات الأمريكية العملاقة، في سعيها الدائم لتحقيق أقصى ربح لمصالح هذه الشركات عابرة القارات. لذا تقوم أجهزة الإعلام العالمية بتحويل كل الأديان إلى مجرد أساطير وطقوس وخرافات، حتى تغرق الشعوب في بحر من اللاعقلانية والطقوس والأساطير، إذ أن الدين بهذا المفهوم ليس إلا أفيون الشعوب. فيجب استخدامه حتى لا تستيقظ الأمم وتنهض من كبوتها. أما الدين الحقيقي المنبثق من قلوب الناس الصادقين، والقائم على الإيمان با والتوحيد، والذي يدعو إلى أن الإنسان هو خليفة ا في الأرض، يجب محاربته، محاربة الدين الحق الذي يقوم على عبادة ا الواحد، وعلى مبادئ حرية الإنسان وقداسته، وحقه الذي لا ينازع في التعبير عن رأيه، وحقه في تكوين النقابات والأحزاب، وحقه في عبادة الواحد الأحد. يجب علينا محاربة هذه الأديان الحقيقية التي تقوم على سيادة العقل البشري الذي كرم به ا بني آدم. والتي تقوم على الحب والتسامح والتعايش السلمي مع الآخر. هذه هي الأديان الحقة هي عدونا الرئيسي في معركة المصير.. لذا يجب علينا تبني مفهوم الدين المبني على الأسطورة والخرافة واللاعقلانية، إذ أنه أقوى أسلحتنا في القضاء على حركات التحرير، التي تقوم بنشر ثقافة الاستنارة والحرية والعقلانية في جميع أنحاء العالم في عصرنا الحديث.

٧- الاستخدام الواسع للإعلام بكل ألوانه لنشر فلسفة المادية الحسية والشهوات الجسدية والدعارة بكل أنواعها، والعنف بدون هدف، وأفكار وثقافة النازية الجديدة (أي الصهيونية الأمريكية) التي تقوم على العنصرية المتطرفة، واحتلال أراضي الغير بالقوة، والقضاء على العرب وطردهم من أراضيهم، وتكريس مقولة الصهيونية في حق بني إسرائيل في القدس وفلسطين، وتكريس القول بأن "ا رب موسى قد منح بني إسرائيل هذه الأرض المقدسة. لأنهم شعب ا المختار".

* * *

المشهد التاسع والثلاثون
رحلة ماجي المرأة الفولاذية
إلى أرض الفراعنة العظام

استدعت ماجي طبيب القلب برنارد ألبا وطلبت منه مرافقتها إلى القاهرة في مصر. وأنها ستسافر بجـواز سفر على أنها زوجته. وأن عليه إجراء بعض عمليات القلب في القاهرة كستارٍ للنشاط الخطير الذي كُلفت به من قبل اللودج (إخوان ماسون) Lodge الجمعية التي ربطت بينهما برباط الدم. الرابطـة المقدسـة التـي وحدتهم في ميثاق واحد، لا فكاك منه إلا بالموت.

أطاعها الدكتور برنارد فورا لأنه قد تعود على طاعتها لأنه ثبتت له عبقريتها في إدارة أي مشروع تقـوم به. وقد أثبتت عبقريتها وقدرتها على الابتكار في كل المشاريع التي نفذتها وأنها - أيضا - قد ساعدت فـي النجاح الهائل لجمعية إخوان ماسون أو أصدقاء ماسون (اللودج)، وكان برنارد ينتمي انتماء كـاملاً لجمعيـة ماسون. حيث كان يؤمن إيمانًا أعمى بأن مجلس الحكماء السبع أي قيادة اللودج، هو الحاكم الحقيقي لعالمنـا في العصر الحديث، وأن إخوان ماسون تحكُم العالم قولاً وفعلاً. ولذا قام برنارد بالاتصال بتلاميذه وأصدقائه العديدين من الجراحين المصريين. وأبدى استعداده للقيام بإجراء بعض العمليات الخاصة بنقـل القلـب فـي مستشفى القوات المسلحة المصرية في المعادي. ولقد أجرى فيها سابقًا بعض عمليات القلب منذ بضعة سنين. وقام بالاتصال بالسيد وزير الصحة في مصر، وأبدى له رغبته في زيارة مصر، وإجراء بعـض العمليـات للمرضى المصريين مجانًا. وسارع الوزير في دعوته حرصا منه على تمكين الأطباء الشباب من التـدريب على العمليات الصعبة المعقدة. واتصل به سيادة رئيس الحكومة، وشكره على التطـوع للحضـور لإجـراء بعض العمليات في القاهرة. وأذاعت هيئة الإذاعة والتليفزيون المصرية هذا النبأ المثير. وأعلنت أن جـراح القلب الدكتور برنارد يحضر ليقيم في القاهرة، وسترافقه السيدة حرمه مارجريت الأسـترالية مـن سـدني. وتعتبر من أشهر نساء العالم، ولا تقل شهرة وأهمية عن زوجها. والسيدة مارجريت تعتبر من أغنى أثريـاء العصر الحديث. وتقوم بالإنفاق على آلاف الجمعيات الخيرية في جميع أنحاء العالم. وأنها تبرعت بمبلغ مائة مليون جنيه استرالي لإنشاء قسم لجراحة القلب في كلية الطب جامعة القاهرة. وتبرعـت - أيضـا - بمائـة وخمسين جنيه إسترليني لإنشاء معهد تأهيل المحاربين القدماء في مدينة نصر.

أما ماجي العبقرية الماهرة فكانت قد وطدت صلات وثيقة بالكثير من قيادات مصر المحروسة. الكثير من كبار ضباط المخابرات العسكرية كانوا من زبائنها. والكثير من كبار ضباط القوات المسلحة المصرية كـانوا من زبائنها، في الشاليهات المتخصصة اسما في العلاج الطبيعي المنتشرة في أمريكا وإنجلترا وفرنسا. إذ أن هذه الموتيلات اكتسبت شهرة خاصة في العلاج الطبيعي. وكذلك كانت تُرضي كل رغبات زبائنها الجنسـية، وكل أنواع الشذوذ الجنسي. وكان أمرها واضحا لمديري هذه المراكز - مراكز العلاج الطبيعي والسعادة - إذ أن فلسفتها تقوم أساسا على العمل على إرضاء كل نزوات زبائنها، وإشباع شـهواتهم الشـاذة العجيبـة.

ونجحت في تصوير كل هذه الأوضاع الشاذة في شرائط فيديو. وكانت في كل حجرة كاميرا خفية، تصـور كل ما خفي من حماقات الإنسان الذي يحرص الحرص كله على عدم الإعلان عنها. وطبعا احتفظـت بهـذه الأشرطة حتى يكون عملاؤها في قبضتها. إذا لم يلبوا رغباتها في معرفة بعض الأسرار بطريقة ذكية ولبقة.

ورحلت ماجي إلى مصر بدون إخطار ميريام. لأنها فقدت أي أمل في إنقاذ ابنتها من مـرض التصـوف والرهبنة، وفضلت إحاطة هذا المشروع بالسرية الكاملة لخطورته. كما أنها قد عقدت العزم على قطـع أيـة صلة عضوية أو عاطفية تربطها بميريام. هكذا نصحها صديقها وعشيقها الوحيد مستر إبليس، إذ أن تواجـد ميريام معها يثير في قلب ماجي مشاعر الخير والطهارة والندم. والندم من أعـدى أعـداء رعايـا مملكـة الشيطان، الذين باعوا أرواحهم له. ولكن ميريام عرفت برحلة الأم من الجرائد والمجلات العالمية. كمـا أن محطة CNN. العالمية قد أذاعت النبأ، وذكرت أن الأستاذ برنارد ألبا جراح القلب المشهور قد سـافر إلـى مصر لمساعدة المصريين في إنشاء قسم خاص بجراحة القلب في القاهرة والإسكندرية. وترافقه السيدة ماجي الأسترالية زوجته وهي من أغنى أغنياء العالم الحديث. وأن السيدة ماجي تملك بعـض الشـركات عـابرة القارات. وأنها تبرعت بملايين الجنيهات لإنشاء معهد تأهيل للمحاربين القدماء. ولذلك منحها المشير أعلـى وسام في القوات المسلحة، وهو لا يُمنح إلا لمن أدى أعظم الخدمات الممتازة للقـوات المسـلحة المصـرية. وهكذا ركزت ماجي نشاطها التجسسي الماهر الخلاق في مقرها في الفيلا الفاخرة التي منحها لهـا المشـير. وهو الفيلا التي كان يملكها الملك فاروق. وتقع مباشرة على النيل.

بدأت ماجي في تنفيذ مخططها التجسسي الشيطاني المعروف بالرمز الكـودي العمليـة Y التـي كُلفـت بالإشراف عليها، بدأت في الاتصال الذكي بالكثير من قادة الجيش المصري، ومن قادة المخابرات العسكرية، وبالكثير من قادة المخابرات العامة، وكانوا من زبائنها في لندن، أشعرتهم بطريقة غير مباشرة بأن أسرارهم في الحفظ والصون. وكانوا هؤلاء على اتصال بالمشير نفسه. وبطريقة لبقة استطاعت إنشاء شبكة في أغلب المدن الكبرى في مصر، من شاليهات وعيادات العلاج الطبيعي والصحة النفسية، في القاهرة والإسـكندرية. وأغلب زبائنها كانوا من كبار قيادات مصر المحروسة. وشعر هؤلاء بـأنهم لا يسـتطيعون منهـا فكاكـًا. واستطاعت ماجي الاتصال والارتباط الوثيق بالمراكز العليا السياسية والعلمية والأدبية، التي تحكـم مصـر والعالم العربي. واستطاعت ماجي بعبقريتها التنظيمية تنظيم شبكة من هذه المراكز للعلاج الطبيعي والسعادة، والسيطرة التامة على كل الأنشطة المتنوعة. وتمكنت عن طريق هذه الشبكة الذكية تغيير مسار هذه المنطقة، لخدمة الشركات العملاقة عابرة القارات، بل ساعدت فعلاً على تحقيق كل أهداف ومصالح النازية الجديـدة. ومهدت ماجي لأعظم كارثة تصيب هذه المنطقة بعد الحملات الصليبية. وخضعت المنطقة كلها بما فيها دول الخليج والسعودية ومصر وسوريا لسيطرة الشركات العملاقة العالمية، التي تسيطر على مقدرات العالم فـي العصر الحديث. وذهبت كل أموال الخليج أو غالبيتها إلى شراء أسلحة من أمريكا والغرب. هذه الأسلحة لـم يحارب بها العرب. وبذلك وجدت أمريكا حلاً جذريا لمشكلة الكساد التي هددتها في السبعينيات. والذي هـدد إمكانية استمرار وجود العالم الرأسمالي. وعاد الازدهار والنشاط إلى الحياة السياسية والاقتصادية في الغرب. وساعدت ماجي الأسترالية في إشعال فتيل الحرب بين إيران والعراق. والأموال الهائلة لهذه المنطقة استولت

عليها الشركات عابرة القارات. وبذلك سيطرت النجمة السداسية نجمة الصهيونية أي شعار النازية الجديـدة على مقدرات هذه المنطقة الهامة جدا من العالم. وفلسفتها التي تقوم على التمييز العنصري، وفكرة شعب ا المختار، الذي منحها إله بني إسرائيل أرض الميعاد إلى يعقوب - كما تدعى الفلسفة الصهيونية- التي لـيس لها أي أساس علمي، والاستيلاء على أراضي الغير بالقوة، وأن العنف والجنس هما سبيل الجـنس الأسـمى للسيادة والسيطرة، وهي نفس الأفكار التي دعا إليها فيلسوف النازية نيتشة، والتي أدت إلى الحرب العالميـة الثالثة، والعمل على القضاء على شعب بني إسرائيل. وأدت إلى الحرب العالمية الثانية، وقتل ما لا يقل عـن سبعين مليون من البشر. ولعبت ماجي وبرنارد دورا رئيسيا في فشل بلاد هذه المنطقة من العالم فشلاً كاملاً. حيث انهارت الحياة الثقافية لهذه المنطقة، ودُمرت كل الأنظمة القومية التي بذلت الجهد الكبيـر وبصـعوبة بالغة، في سبيل ميلاد جديد لبلدان منطقة الشرق الأوسط، وتم فعلاً القضاء علـى كـل النزعـات القوميـة التحررية التي حاربت الاستعمار، وسعت إلى ميلاد جديد لشعوب العالم العربي. وحل محل الثقافات المحلية ثقافة الاستهلاك السفيه، والإسراف الشديد المغالى فيه، الذي لا يتناسب مع الفقر الشديد، الذي تعـاني منـه شعوب العالم الثالث. وسادت فلسفة الماك بيرجر والكانتاكي شـيكن، والكوكـاولا ودوجـلاس ماكدونالـد. وانتشرت محلات الماكدونالد والماك بيرجر في كل مركز بل حتى في القرى النائية في كل المحافظات فـي هذه المنطقة الحيوية من العالم.

* * *

المشهد الأربعون

عملية زهرة الحب الصافي

ولعبت ماجي الأسترالية وزوجها الدكتور برنارد ألبا دورا كبيرا في هزيمة العالم الثالث أمام قوى الشركات عابرة القارات ومتعدية الجنسيات. وانحسرت موجة التقدم والازدهار الثقافي الذي ارتبط بالحركات التحررية التي انتشرت في العالم الثالث. وتحققت الهزيمة العسكرية الكاملة لشعوب آسيا وأفريقيا وشملت مصر والعالم العربي. أمام جحافل الصهيونية أو النازية الجديدة Zionism. وسادت نجمة الصهيونية السداسية في جميع أنحاء العالم، وهي البديل للصليب المعقوف النازي الذي تسبب في أكبر مذبحة في تاريخ الإنسان. وسيطر حكماء بني صهيون السبعة على جميع مجالات النشاط السياسي والثقافي والإعلامي في أنحاء القرية العالمية الصغيرة. وساعدهم في تحقيق أغراضهم من تحويل العولمة من عالم جديد متعدد المراكز Multi centiric globalism إلى عولمة أحادية لها مركز ثقل واحد ولها قطب واحد أي عولمة أمريكية مائة في المائة. ونجحت أمريكا في أضعاف أوروبا وجنوب شرق آسيا. بل حولتهم وخاصة بعد الحرب اليوغسلافية إلى مجرد أذناب لا حول لها ولا قيمة. العالم كله تابع لها ولا يسعى إلا إلى تحقيق مصالحها. إنجلترا وفرنسا وألمانيا وروسيا مجرد كواكب تدور في مدارات شمس واحدة وهي أمريكا. حتى هيئة الأمم المتحدة التي كانت أمل البشرية وحلم الفلاسفة تحولت إلى شرطي حراسة يخدم المصالح الأمريكية الصهيونية. وحاول السيد سكرتير عام الأمم المتحدة الدكتور بطرس غالي أن يقف موقفًا يتميز بالموضوعية، عندما دمرت إسرائيل في قانا ملاذ الأمم المتحدة، الذي كان يحتمي فيه اللبنانيون من شيوخ أو أطفال، وكان تحت حماية الأمم المتحدة. فطُرد شر طرده من منصبه وانحازت الأمم المتحدة بكل مؤسساتها لخدمة مصالح الغوريلا الأمريكية. وبذلك فقدت الأمم المتحدة مصداقيتها لدى شعوب العالم.

وشبح الكساد الكبير أصبح يهدد النظام الرأسمالي نفسه بالانهيار التام، وذلك بسبب انهيار العالم الثالث اقتصاديا وثقافية وسياسيا. فأشعلت الشركات عابرة القارات نار الحقد القومي والتطهير العرقي، وأشعلوا الحروب الصغيرة العرقية والدينية في كل أنحاء المعمورة، وبذلك نشطت تجارة السلاح وخاصة بعد الهزيمة العسكرية الكاملة لمصر والعالم العربي. وزادت زيادة كبيرة أرباح الشركات عابرة القارات وتغلبوا فعلاً على الكساد الاقتصادي الكبير. وتحول إلى مرحلة ازدهار كبير للعالم الغربي كله، بما فيه الولايات المتحدة الأمريكية. إذ أن طلبيات السلاح قد زادت زيادة مهولة من قبل دول الخليج التي تم شراؤها ببلايين الدولارات أسلحة متقدمة جدا، بحيث لا تستطيع هذه الدول العربية المتخلفة استخدامها في حرب فعلية. ولقد استولت فعلاً إسرائيل في حرب ١٩٦٧ على كل الأسلحة التي لم يتمكن العرب حتى من استخدامها، لأنهم لم يتمكنوا من التدريب، وتبلغ بألوف الملايين من الدولارات، وباعتها في السوق العالمي في آسيا وأفريقيا، وأصبح العرب عبرة لمن يعتبر، بل موضع سخرية من العالم كله.. وهكذا أُنقذ ازدهار تجارة الأسلحة النظام كله من انهيار محقق. وبذلك تمت على خير ما يرام عملية الشرق الأوسط. وبدأت ماجي في تصفية أعمالها

بالتدريج في المنطقة العربية. واستُدعيت ماجي لحضور الاجتماع مع حُكماء صهيون في المكتب البيضـاوي الذي يدور خارج الجاذبية الأرضية في مدار القمر، وهناك أعطيت لها الخطة المعروفة تحت كـود "الحـب الصافي"... بعد نجاحها الباهر في تحطيم كل أسس التقدم الحضاري في هذه المنطقة الحيوية في قلب العالم، ونجحت ماجي نجاحا باهرا في تشجيع النظم السياسية الاستبدادية، التي تقوم على الطغيان بدرجة العودة إلى أنظمة ما قبل التاريخ الحضاري التي تقوم على الوراثة. ولا تعرف ولا تدرك روح العصـر الـذي تقـوم الأنظمة السياسية فيه على التعددية والديمقراطية وحقوق الإنسان. واختزلت الشعوب العربية كلها إلـى فـرد واحد أو أسرة واحدة، لا رقيب عليها ولا حسيب. وهذا طبعا في صالح الشركات متعددة الجنسيات وعـابرة القارات. وغذت هذه الشركات نزعات الاستهلاك السفيه والعنف والجنس خارج إطار المجتمـع الإنسـاني. فحدث تفكك هائل في هيكل التركيب الاجتماعي للأسرة العربية ما غذى المكتب البيضاوي وهو أعلى هيئـة تنفيذية للرأسمالية الجديدة التي ابتلعت العالم لصالح أعلى مراحل الرأسـمالية، وهـي العولمـة الأمريكيـة الصراعات الدينية والقومية وحتى القبلية، ونشطت مافيا تجارة المخدرات ومافيـا الـدعارة حتـى دعـارة الأطفال. وسخرت كل طاقات العالم لخدمة مصالح الولايات المتحدة الأمريكية. وشجعت المكتب البيضـاوي الزراعات الغير تقليدية مثل الفواكه والفراولة. حتى أصبح اعتماد كل بلدان المنطقة العربيـة فـي إمـدادها بالغذاء الرئيسي وهو القمح، على الغرب الأمريكي. بل أغلب الاحتياجات الأساسية من الغذاء. بحيث إنه في مقدور الغرب إجاعة شعوب هذا الجزء من العالم. ومن يملك رغيفي يملك حريتـي. والأنظمـة السياسـية السائدة أنظمة مختلفة لا تتلاءم إلا مع العصر الحجري القديم الذي انقرض منذ زمن طويل.

أما عملية زهرة الحب الصافي التي كلفت بتنفيذها ماجي الأسترالية، فتتلخص في تحطيم واسـتعباد بقيـة مناطق العالم. وهي منطقة النمور الخمس أي جنوب شرق آسيا. وقام المكتب البيضاوي بدور رئيسـي فـي تغذية كل الصراعات القومية والدينية المتطرفة، في هذه المنطقة المهمة من العالم. ونجحت ماجي بمسـاعدة زوجها برنارد ألبا في عملية تفتيت هذه المنطقة تفتيتًا كاملاً. بحيث نجحت الهيمنة الأمريكية في إخضـاعها بالكامل لسيادة وسيطرة الشركات العملاقة عابرة القارات ومتعدية ومتعددة القوميات والأديـان. وإخضـاعها بالكامل لخدمة مصالح الولايات المتحدة الأمريكية. ولعبت إسرائيل الدور الأساسي في تنفيذ كل مخططـات الهيمنة الأمريكية (أوالنازية الجديدة). وربحت مافيا السلاح ومافيا الجنس البيولـوجي ومافيـا المخـدرات، ثروات طائلة لا حد له، بحيث عاد النشاط والازدهار إلى هيكل النظام الرأسمالي، وسرى الدم فـي عروقـه وتدهورت مستويات المعيشة بين قطاعات كبيرة من السكان تدهورا كبيرا في كل بلدان العالم، وخاصة بـين شعوب العالم الثالث. بينما عاش الغرب وأمريكا في ازدهار هائل وثراء لا حد له، وزادت الفجـوة المخيفـة بين الفقراء والأغنياء. وحققت الصهيونية العالمية أهدافها الكبرى في السيادة والسيطرة علـى كـل شـعوب العالم، وحققت الصهيونية كل أحلامها العالمية من سيادة على كل الشعوب. وتحول العالم بأسره بفضل التقدم العلمي إلى قرية صغيرة في قبضة الشركات العملاقة عابرة القارات. وتحت سيادة وسيطرة المكتب التنفيذي الذي يدور في مدار القمر خارج نطاق الجاذبية الأرضية. والذي يشرف عليه حكماء صهيون السبع. وماجي الأسترالية كانت من أهم أعمدة الحكومة العالمية النازية الجديدة.

المشهد الواحد والأربعون

ميلاد الفجر الجديد في تاريخ الإنسانية

ودارت الأيام ومرت الليالي. والليالي من الزمان حُبالى مثقلاتٌ يلدن كل عجيبة. واشتد الصراع العالمي بين جحافل الظلام وقوى الشعوب على مستوى كوكبنا الأرضي. بين قوى العقلانية والتقدم والنور ضد قوى الأساطير والخرافة واللاعقلانية. وعادت الراهبة الثائرة إلى روما. حدثت ثورة كبيرة في عقلها. واجتاح روحها القلقة إعصار هائل. شاهدت الفقر في الهند في أبشع صوره. الفقر الذي يحطم إنسانية البشر، ويفقدهم أروع ملكات تتمتع بها الإنسانية في أروع وأزهى صورها، وهو ملَكة الضمير والناموس الخلقي. وشاهدت الموت في الهند يحصد حياة الملايين. الناس هناك يموتون كالذباب. وشاهدت الغِنى الفاحش الذي يدمر ويفسد. وشاهدت أثرياء العالم الثالث الذين باعوا أنفسهم وكونوا ثروات طائلة من الغش والفساد والسرقة. وسرقوا عرق ملايين الناس الذين لا مأوى لهم ويعيشون في الطرقات وعلى الأرصفة. وأيقنت أن الغنى والثراء قد يفسد ويدمر نفوس الناس وأرواحهم، وخاصة إذا كان الثراء والغنى نتيجة الغش والسرقة والنهب، وليس نتيجة التعب الشاق والمجهود المضني، سواء كان مجهودا ذهنيا أو مجهودا عضليا. حقًا كاد الفقر أن يكون كفرا، لأنه يُذل الإنسان ويجرده من أهم مقومات الإنسان، وهو الشعور بالأهمية والكرامة الإنسانية وأدركت ميريام باحتكاكها وارتباطها الوثيق بالمؤسسات الدينية سواء الإسلامية أو المسيحية، أن هذه المؤسسات مرتبطة أوثق ارتباط بأثرياء العالم ومصالحهم. وتذكرت الخاتم الماسي الثمين الذي يرصع يد البابا، ويبلغ ثمنه الملايين من الدولارات. وصورة السيد المسيح على الصليب بدون رداء إلا ما يقي عورته. وتذكرت قول السيد المسيح وهو معلق على الصليب الخشبي، ورأسه عليه تاج من الشوك، ودماؤه تسيل على وجنتيه، وهو يقول مخاطبا ا : "يا أبتي الطيور لها أعشاش، والثعالب لها أوكار، أما ابن الإنسان فليس له وكر أو عش". وسخرية الزمن أن البابا هو ممثل المسيح على الأرض وهو الواسطة بين ا والناس. حقًا وصدقًا الدين أفيون الشعوب. حقًا الدين الحقيقي هو خدمة ومساعدة عيال ا . الكادحين والبؤساء هم عيال المساكين هم عيال ا . كيف يسمح ا جل جلاله بهذا المقدار الهائل من البؤس والفقر، والذي بلغ حدا كبيرا مذهلاً بالرغم من التقدم الهائل في العلوم والفنون. هذه التساؤلات كانت تجري في عقلها وروحها. مجرى السحاب في السماء. وأخذت بهدوء تسأل نفسها: ألم يقُل السيد المسيح: "طوبى للمساكين فإنهم سيرثون الأرض وما عليها".. ألم يقُل نبي الإسلام الكريم: "اللهم أحيني مسكينًا وأمتني مسكينًا واحشرني في زمرة المساكين؟... ما هذا التناقض الهائل بين حياة المسيح الذي صُلب على الصليب الخشبي، وعلى رأسه تاج من الشوك والطيور الجارحة تنهش عينيه، والعامة والجنود الرومان تهزأ به وتضحك عليه، وتلقي عليه القاذورات وتبصق على وجهه الكريم، وبين جناب البابا الحبر الأعظم وممثل المسيح في الأرض، والذي يضع على رأسه تاجا من الذهب والأحجار الكريمة والجواهر. التناقض الضخم بين المسيح البسيط الذي لم يمتلك في حياته القصيرة أي مال أو عقار أو أي مكان ينام فيه أو يقيم فيه، والقصور الفاخرة التي يقطن فيها رجال الكنيسة في كل مكان من العالم. المسيح الذي كان يتنقل على ظهر حمار والعربات الفارهة التي

يركبها رجال الدين المسيحي. وأخذت تقارن بين الحياة البسيطة التي كان يعيشها رسول الإسـلام الكـريم، ومنزله الذي كان لا يزيد عن حجرة واحدة مبنية من أبسط المواد، وحياة البذخ والرفاهية التي يحياها شـيوخ الإسلام. شاهدت ميريام في الهند الفقر المدقع الذي يعيش فيه غالبية الشعب الهندي الذي ينام في الطرقـات، وقارنته بالثراء الضخم الهائل الذي يعيش فيه الكهنة والقسس في معابد البوذيين والهنود. القصـور الفـاخرة التي يعيش فيها رجال المؤسسة الدينية والطرقات القذرة التي يحيا فيها جزء كبير مـن المجتمـع الهنـدي. شاهدت في مصر رجال الدين الإسلامي وهم يركبون العربات الكبيرة الفاخرة، والفقراء الـذين لا يجـدون مكانًا يعيشون فيه إلا في المدافن والقبور. وتذكرت ما حدث في الهند - أثناء وجودها هناك للمشـاركة فـي مقاومة وباء الكوليرا الذي يحصد الملايين - الكارثة الكبرى التي حدثت وقتلت آلاف العمال، حـين حققـت شركة عابرة القارات ومتعدية الجنسيات ومتعددة القوميات أرباحا هائلة. هذه الشركة العملاقة التـي حققـت أرباحا تقدر بملايين الدولارات. التي انفجرت مصانعها التي تنتج الأسمدة الكيماوية لخطـأ فـي التركيـب، وقتلت الغازات الخانقة المتصاعدة ما لا يقل عن عشرة آلاف عامل خنقًا، بواسطة الغازات السامة المتصاعدة من التفاعل بين الكيماويات. وثبت من التحقيق أنها خالية من أية شروط صحية من التي تتوافر في مصـانع نفس هذه الشركة في أمريكا. وعرفت ميريام أن أغلب المصانع التي تضر البيئة هاجرت للعمل إلى الـبلاد الفقيرة، مثل مصر أو الهند لتحقيق نسبة أكبر من الأرباح، والحصول على الحد الأقصى من الـربح علـى حساب صحة آلاف العمال. وعلمت القديسة الحمراء أن الشركات الصناعية الكيماوية تهرب إلى بلاد العـالم الثالث، حيث لا يوجد أية رقابة صحية فعالة. كذلك نما إلى علمها أن بعـض شـركات الأدويـة العملاقـة المشهورة على مستوى العالم ومقرها سويسرا تنتج أدوية باهظة الأسعار، ولا فائدة منها، ونجحـت بفضـل الدعاية المكثفة في إقناع الأطباء بجدواها في علاج بعض الأمراض المزمنة. ولكن بعد فترة زمنية سُـحبت هذه الأدوية من السوق العالمي، بسبب أنها أدت إلى وفيات عديدة في أمريكا. وكذلك ثبت أن بعـض هـذه الشركات يصُب كل مخلفاته في نهر الراين في أوروبا، وأنه قد قضى علـى الثـورة السـمكية - تمامـا - لسنوات كثيرة. وهكذا نجحت هذه الشركات العملاقة عابرة القارات في القضاء المبرم على الحياة البيولوجية في نهر الراين. وأدركت القديسة الحمراء أن هذه الشركات قد دمرت بدون رجعة الغابات الاسـتوائية فـي الأمازون وفي أفريقيا، للحصول على الأخشاب، مما أضر الضرر البليغ بمناخ الكرة الأرضـية. وأدى إلـى زيادة حرارة الأرض بسبب تآكل طبقة الأوزون. وتغير المناخ في جميع أنحاء العالم. وعرفـت ميريـام أن الشركات العملاقة المصنعة للسلاح، ومنها شركة ماكدونالد دوجلاس سوبر ماركت لبيع "الهـامبيرجر" فـي جميع أنحاء العالم، هذه الشركات تربح البلايين من إثارة الصراعات الطائفية في جميع بلاد العالم والنزاعات الدينية في الوطن العربي وفي آسيا وأفريقيا. بل هي خلف التطهير العرقي الذي حدث في يوغسـلافيا وفـي أفريقيا لأنها تربح البلايين من تجارة الأسلحة إلى جميع أنحاء العالم. لأنها تعطي السلاح للظالم والمظلوم في نفس الوقت. إذ أن تجارة السلاح الممول الرئيسي للعالم الصناعي وهي التي ساعدت الرأسمالية الأمريكية أو الغوريلا الأمريكية في التغلب على الكساد الكبير الذي يهدد كيانها ووجودها.

اتصلت القديسة الحمراء بصديقها الفارس الأسمر ممدوح إسماعيل فريد. وذهبا معا لمقابلة المهاتما غاندي الهند. لاستطلاع رأيه في المخاطر التي أصبحت تهدد كوكبنا الأرضي الجميل. وعاشا معه في بيته شهرا كاملاً. يدرسان ليلاً نهارا على يديه فلسفته وأكد لهما مرارا وتكرارا أن الحياة أصبحت في خطر جسيم. وقال لهما بالحرف الواحد:

"الحياة بكل ألوانها وأنواعها أصبحت مهددة بالفناء. الحياة البشرية التي نشأت وتطورت عبر ملايين السنين في خطر الانقراض والاختفاء. سادت في كل مكان المذاهب الفلسفية القائمة على اللاعقلانية والخرافة والأسطورة. العقل البشري الذي طور الإنسان من كائن شبيه بالغوريلا إلى الحضارة الحديثة التي سافرت في الكون وعبر الزمان. يا أبنائي نحن على أبواب عصر الفضاء. عصر الإبداع. والإبداع هو خاصية بني البشر. ولولا الإبداع لاستمر الإنسان غوريلا كثيفة الشعر. تعيش على فروع الأشجار في الغابات والأحراش. والإبداع هو الذي نقل الإنسان من عصر صيد الحيوانات كوسيلة للبقاء إلى عصر الزراعة. أي إلى بداية التحضر الإنساني. والإبداع هو الذي نقل الإنسان من عصر الزراعة إلى العصر الصناعي. ولدت الطريقة العلمية في إيطاليا. أي في عصر النهضة الأوربي الذي نقل بني الإنسان إلى العصر الحديث. وعلى شعوب العالم الثالث المتخلف استخدام الأسلوب العلمي في التفكير والفلسفة العقلانية التي تقوم على سيادة العقل، وقدرته على فهم هذا الكون الرائع البديع. إذ أن الأسلوب العلمي والفلسفة العقلانية ليست حكرا على الأوروبيين، إنما هي تراث مشترك ساهمت فيه كل شعوب العالم. شارك في مولد الطريقة العلمية في التفكير الفراعنة واليونانيون والعرب والصينيون والأوروبيون والهنود والصينيون. والعلم الحديث ليس حقائق ثابتة، إنما هو أسلوب في التفكير قائم على العقلانية وسيادة العقل، ولا سيد للعقل إلا العقل ذاته. ومن الجذور الأساسية لمولد الطريقة العلمية في عصر النهضة الأوروبي عصر جاليليو جاليلي وإسحاق نيوتن، هو العالم الإسلامي الأشهر الفيلسوف ابن رشد الذي دعا إلى الاجتهاد في النصوص الدينية الثابتة، وتفسيرها حسب مقتضى المنطق والعقلانية وتمكنت أوروبا من التطور الرائع والسيادة على الجنس البشري. فلسفة ابن رشد هي التي أيقظت أوروبا من سباتها العميق إلى صحوتها الكبرى في عصر النهضة، وتمكنت من سيادة العالم بأسره. نصيحتي الأخيرة لكل أبناء العالم الثالث هو النظر إلى المستقبل.. انظروا إلى المستقبل ولا تنظروا إلى الماضي. وفسروا التراث الروحي العظيم على هدى ونور النظر العلمي والفلسفة العقلانية. إذ أن العقل البشري هو جوهر الإنسان وروحه. لأن الإنسان خليفة الله جل جلاله في أرضنا الجميلة والعقل الإنساني هو قبضة ونفثة من روح المولى تعالى تقدس في السماء اسمه. والعقل البشري هو مناط الأمانة التي ميزت الإنسان عن جميع الكائنات في كوكبنا الأرضي. أمريكا والعالم الغربي يسعى بكل جهده إلى تكريس اللاعقلانية والخرافة والأساطير في العالم الثالث، لأنه يبغي بكل الوسائل استعباد أبناء العالم الثالث والقضاء عليهم كما نجح في القضاء على الهنود الحمر في العالم الجديد، وكما تحاول الصهيونية حاليا القضاء على العرب. واختتم المهاتما غاندي قوله بقوله لهم:

"أعدى أعداء أبناء العالم الثالث هو عدم استخدامهم الأسلوب العلمي في التفكير والفلسفة العقلانية بـالرغم من أن الأسلوب العلمي التجريبي وفلسفة التنوير هي تراث وإرث مشترك لكل شعوب العالم، أعدى أعـداء العالم الثالث هو أخذ تراثهم بدون نقد أو تدقيق وعلى عِلاته. انتشار المنطق الخرافي الأسطوري اللاعقلاني سيؤدي بهم خارج الحضارة الإنسانية وخارج مسار الحضارة البشرية. وهدف الغرب هـو نشـر الخرافـة والأساطير والخزعبلات في أبناء العالم الثالث. وبذلك يتمكن الغرب من السـيطرة التامـة علـى مقـدرتهم واستعبادهم استعبادا كاملاً".

ودعهما عند باب منزله وقبلهم ودعا لهما المولى عز وجل أن يحرس خطاهم ويوفقهم في معركـة أمـتهم المصيرية ضد النازية الجديدة، المتمثلة في الشركات عابرة القارات والمتعدية القوميات والأجنـاس. والتـي يمثلها البنك الدولي وصندوق النقد واتفاقية التجارة العالمي واتفاقية الجات.

سافر ممدوح ومريام جوا إلى القاهرة. حيث أسسا دارا للنشر تقوم بنشر الوعي والعقلانية بـين القـراء. على ضوء تراثهم الثقافي. وأسسا دارا للترجمة لكتب الاستنارة والعقلانية والمعرفة العلمية إلى جميع لغـات أبناء العالم الثالث. بأزهد الأسعار. وكان رأس الحربة في هذه الثورة الثقافية لنشر الوعي بين أبنـاء العـالم الثالث هو الفيلسوف الأشهر، فيلسوف العصر الحديث بلا منازع الدكتور مـراد وهبـة، صـاحب كتـاب " جرثومة التخلف". وهو الفيلسوف الذي أعاد الفيلسوف الإسلامي الشهير ابن رشد إلى الحياة. وعقد فلاسـفة العالم الحديث المؤتمرات الدولية واعترفوا جميعا بأن الفيلسوف ابن رشد هو من أهم جذور عصر النهضـة الأوربي الذي رافق مولد الطريقة العلمية في التفكير وإلى إحياء الفلسفة القائمة على العقل. وأن العقـل هـو سيد نفسه لأنه من روح ا سبحانه. وأنه لا سيد للعقل إلا العقل ذاته. حيث إن العقل هو مـن روح المـولى عز وجل. وأسسوا مجلة تصدر في القاهرة. لإحياء ابن رشد الذي كان مـن أسـباب النهضـة الأوروبيـة. ترجموا كتب الدكتور مراد وهبة إلى جميع اللغات العالمية. وعقدوا المؤتمرات العالمية في لنـدن وبـاريس ونيويورك لإحياء تراث ابن رشد العالم الإسلامي. وترجموا أهم كتب الفيلسوف المصري الـدكتور الأسـتاذ مراد وهبة رئيس قسم الفلسفة في كلية الآداب جامعة عين شمس، الذي اكتشف أهمية ابن رشد للتراث الثقافي العالمي ومن أهم كتبه (مدخل إلى التنوير. فلسفة الإبداع). مجلة شهرية تصدر في نيويورك تحت اسم ابـن رشد اليوم. ومن أهم كتب مراد وهبه التي ترجمت إلى جميع اللغات. كتاب (جرثومة التخلف) وكتاب (فلسفة الإبداع). وكتاب (ملاك الحقيقة المطلقة). وكتاب (مدخل إلى التنوير). وكتاب (ابن رشد والتنوير).

عرفت القديسة الحمراء أن أمها ماجي الأسترالية من الدعائم الأساسية لحكماء بني صـهيون أو النازيـة الجديدة. وأيقنت القديسة أن أمها ماجي هي التي ساعدت في تدمير منطقة الشرق الأوسـط. وأنهـا عضـو أساسي في جمعية إخوان ماسون. وأنها العقل المدبر للمكتب البيضاوي الذي يدور في مـدار فلـك القمـر. وأنشأت القديسة بنكًا في روما له فروع في جميع أنحاء العالم الصناعي والعالم الثالث. ويقـوم هـذا البنـك بتمويل كل الحركات الثورية في العالم. وتمويل أنصار البيئة للدفاع عن أمن الأرض ضد الهجمـة الشرسـة التي تشنها عليها الشركات عابرة القارات والمتعددة القوميات على البيئة التي أصبحت في خطـر التـدهور بدرجة كبيرة قد تؤدي إلى فناء وانقراض كل أنواع الحياة في كوكبنا. ويقوم البنك - أيضا - بتمويل شـراء أحدث ما وصل إليه العلم الحديث وإرسالها إلى الحركات. التحررية في جميع أنحاء المعمورة وإلـى فِـرق الألوية الحمراء التي نظمتها ماجي لمحاربة النازية الجديدة المتمثلة في الشركات العملاقة عـابرة القـارات والرأسمالية الأمريكية، التي تسعى إلى الهيمنة الأمريكية على مقدرات العالم بمساعدة الصـهيونية العالميـة، والتي تسعى إلى استعباد جميع الشعوب، وخاصة شعوب العالم الثالث.

* * *

المشهد الثاني والأربعون
إنشاء معهد أبحاث علمي
يضم خير علماء العالم لخدمة الشعوب



تعاون معها الفارس الأسمر وأنشأت له ميريام مكتبا سريا في روما. بدأت في إنشاء معهد أبحاث. جندت له أعظم العقول الخلاقة لخدمة الشعوب الفقيرة. وللوقوف ضد طغيان النظام الرأسمالي المرعب، الذي حول الإنسان إلى مجرد سلعة تباع وتشترى في سوق العبيد الجدد. هذه النازية الجيدة التي أثارت ونشطت في الإنسان أحط غرائزه وهي العنف والجنس البيولوجي والأساطير والخرافات والتعصب الأعمى للعِرق أو الدين أو القومية وغريزة التملك العمياء. واختارت من العلماء هؤلاء الذين يؤمنون بمذهب الإنسانية العلمية أي Scientific Humanism وهو المذهب التي يؤمن بصحة وصدق كل الأديان، وتسعى إلى رفاهية وسعادة الجنس البشري كله، بكل ألوانه وكل أديانه وكل قومياته. وترى أن العلم أصبح أخطر وأهم قوة في العصر الحديث. ولكنه لا يزيد عن كونه قوة في الإمكان استخدامه من أجل الخير والسعادة، لميلاد مستقبل أفضل للجنس البشري؟. وفي الإمكان استخدامه من أجل التدمير والخراب والحروب. ولدى الإنسان حاليا من القوة الذرية ما يجعل في إمكان بعض الأفراد تدمير الحياة من على ظهر هذا الكوكب. ويرى العلماء الذين يؤمنون بالإنسانية العلمية أن إنسان العصر الحديث في تحدٍ هائل. ويجب تطوير ضمير الإنسانية ووعيها حتى يتسع لكل الشعوب ولكل الأديان ولكل القوميات. ولكن الإنسان الحديث بالرغم من التقدم الهائل في أسلحة الدمار الشامل، ما زال يعيش في كهف صغير من الوعي لا يرى إلا جزءا صغيرا جدا من البشرية. فوعيه وضميره ما زالا وعي وضمير إنسان العصور البربرية والهمجية الأولى، أو غوريلا في الغابة، ولديها مئات القنابل الهيدروجينية والذرية. وهذا هو التحدي الأعظم الذي يواجه إنسان العصر الحديث. وهو تطوير وعيه وضميره من وعي طفل إلى وعي يسع البشرية كلها، وإلى ضمير يتسع ليلتزم تجاه الإنسانية كلها، ويسعى إلى مولد عصر الفضاء الذي سيتميز بالخلق والإبداع وبالمسئولية عن الحياة المقدسة في كل صورها وفي كل أشكالها، والذي سيتميز بقانون خلقي وناموس روحي تجاه الكون اللانهائي. أي ميلاد إنسان عصر الفضاء أو الإنسان الكوني، الذي سيكون على وفاق مع الكون وليس غريبا عنه.

وارتبطت القديسة الحمراء والفارس الأسمر بكل حركات التحرير على مستوى العالم كله وأصبحت مريام اسما معروفًا في العالم كله. أطلق عليها برناردشو كاتب المسرح الشهير القديسة الحمراء التي ستحطم النازية الجديدة، كما كان يحلو له إطلاق هذه التسمية على الشركات عابرة القارات ومكتبها التنفيذي، أي صندوق النقد والبنك الدولي واتفاقية التجارة الدولية واتفاقية الجات. أطلق غاندي عليها بوذا الذي سيعود من السماء لينقذ أهل الأرض. أطلق عليها القديس يوحنا الذي يقود لاهوت ثالوث التحرير والذي يقود النضال ضد هذه الشركات عابرة القارات ومتعددة القوميات أي ضد الهيمنة الأمريكية أو النازية الجديدة وفي أمريكا اللاتينية، جميعهم أطلقوا على ميريام المسيح المنتظر. أما أحزاب التحرير التي تقاوم بضراوة الاستعمار الصهيوني

الأمريكي (النازية الجديدة) في منطقة الشرق الأوسط، فأطلقوا عليها المهدي المنتظر بسبب المساعدات المالية الهائلة التي أمدتهم بها. ونمت وتطورت ثورات الشعوب في كل مكان بفضل المساعدات المالية والمعنوية الضخمة التي قدمتها مؤسسة ميريام للفقراء في جميع أنحاء العالم. قامت القديسة الحمراء - بفضل علماء المذهب العلمي الإنساني الذين يعملون في المعهد التي أنشأته من مالها الخاص - بتطوير أسلحة نووية لكي تساعد الفقراء في مقاومة النازية الجديدة. ومول البنك الفقراء التي أنشأته في روما كل حركات الدفاع عن البيئة والحياة في جميع أنحاء العالم.

ونجحت معاهد الأبحاث السرية التي تمولها القديسة ميريام في اكتشاف أسلحة ذات طاقة تدميريه هائلة تفوق بكثير القنابل الهيدروجينية في قدراتها التدميرية المرعبة. وهدفها الأوحد هو تمكين المساكين من السيادة على كوبنا الأرضي وفي مساعدة الضعفاء في معركتهم المصيرية في مقاومة الشركات العملاقة، وفي مساعدة شعوب العالم لمقاومة مخططات الهيمنة الأمريكية والنازية الجديدة.

* * *

المشهد الثالث والأربعون

الخـــاتمة

(حرب النجوم، وحرب الكواكب، انتصار قوى الحب والخير والتقدم)

اشتد الصراع في جميع أنحاء العالم بين قوى الشر والتدمير والخراب وقوى الخير والتقـدم والمسـتقبل. وتبلور الصراع بشكل حاد جدا وانتشر في كل مكان. وحتى داخل المؤسسات العلمية ذاتها. علماء يعملـون في خدمة النازية الجديدة والهيمنة الأمريكية، وعلماء في خدمة قوى التقدم والحب وخدمة كل شعوب العـالم. وتبلور الصراع الهائل في شخصيتي الأم وابنتها. ماجي تمثل قوى تسعى إلى فـرض الهيمنـة الأمريكيـة الصهيونية على العالم كله، والتي أطلق عليها النازية الجديدة. وشعارها العودة إلى التقاليد والأصولية الدينية والعودة إلى الماضي السحيق. أما حزب ميريام فيسعى في سبيل ميلاد الحضارة الجديدة. حضـارة عصـر الفضاء وفي سبيل ميلاد الإنسان الكوني المبدع الخلاق. وكان شعار حزب ميريام (حياتي في مستقبل العالم. حياتي في سبيل مولد فجر الإنسانية الجديد) وقدم علماء الأبحاث في معاهد الفجر الجديد لميريام أخطر تقرير قدم لها أثناء الصراع المرير الطويل في حياتها الحافلة. قام الطيار ممدوح إسـماعيل فريـد بعـد دراسـة المشروع بتعمق، بمقابلتها في مكتبها السري الخاص الذي بنته في قاع المحيط تنفيـذًا لنصـائح وتعليمـات العلماء، وذلك لحمايتها من مخططات المخابرات الموساد الصـهيونية ومخططـات المخـابرات المركزيـة الأمريكية للقضاء عليها وعلى مشروع (الفجر الجديد.. حياتي في سبيل مستقبل العالم).

ممدوح : صباح الخير يا ميريام.

ميريام : أهلاً بك يا ممدوح. هل قمت بدراسة مشروع: (الفجر الجديد.. حياتي في سبيل مستقبل العالم).

ممدوح : نعم. ملخص المشروع الذي قدمه العالم البريطاني عالم الفيزياء المشهور وهو ج. د. بيرنال. والعالم الفرنسي الأشهر مسيو مارشال كوري. وكلاهما حاصل على جائزة نوبل فـي دراسـة انشطار نواة الذرة والجسيمات المتناهية في الصغر. اكتشف العالمان برنارد وكـوري جُسـيما أطلقوا عليه الميزون Mison وهو أصغر من الذرة بملايين المرات. ويوجد في الأشعة الكونية التي تخترق الفضاء والكرة الأرضية والميزون هذا فيه طاقة كامنة مرعبة تقدر بآلاف المرات، الطاقة التي نتجت عن انشطار نواة الذرة. وهكذا أمكنهم تفجيرها والتحكم فيها. وفـي الإمكـان استغلالها لصالح شعوب العالم. في معركتنا المصيرية ضد النازية الجديدة. ولو سبقتنا إلى هـذا الاكتشاف الموساد أو الـ C. I. A واستخدموه ضدنا، لقَضوا القضـاء المبـرم علـى حـزب (المستقبل الجديد. حياتي في سبيل مستقبل العالم) ولكن حظنا حلو. ما زال هذا السلاح المرعب لا يعلمه إلا العلماء الذي يطلق عليهم (العلماء الإنسانيون) أو من أتبـاع مـذهب Scientific humanism. وهم في صفنا مائة في المائة. وهم في حرب حياة أو موت مع علمـاء النازيـة الجديدة التي تخدم مصالح الشركات عابرة القارات ومتعدية القوميات.

مريام : (أخذت تفكر في هدوء ثم تكلمت بعد قليل).. عاوز تقول إيه يا ممدوح. خليك واضح. إحنا يا ممدوح حاليا جنود في حرب الحياة. لكي تنتصر الحياة الخالدة في كل مكان. إحنا جنود في حربنا المصيرية ضد الشيطان. ضد تدمير الحياة المقدسة التي تطورت وانتشرت في كل أنحاء الكون اللانهائي. هذه الحرب مصيرية؟ إما ا ؟ إما الشيطان؟ أنا لن أتورع عن اتخاذ أي قرار في هذه الحرب المقدسة؟..

ممدوح : الموضوع يتعلق بالمكتب البيضاوي؟. الذي يدور خارج نطاق الجاذبية الأرضية في مدار القمر. وهو العقل المدبر وراء مخططات النازية الجديدة. العقل المخطط لتحقيق مصالح الهيمنة الأمريكية على العالم. بس طبعا انتِ عارفة أن ماجي الأسترالية من أعمدة المكتب البيضاوي؟.

مريام : أيوه أنا عرفت من العلماء كوري وبرنال أن هذا المكتب البيضاوي هو المركز العصبي المركزي الذي يدير ويشرف على وينظم كل الهجمات الشرسة على جميع شعوب العالم بل ويخطط - أيضا - لتحويل كل شعوب العالم الثالث إلى عبيد؟.

ممدوح : نعم هذا حق؟ لقد ثبت لدي أن هذا المركز هو المخطط الرئيسي لمافيا تجارة السلاح. ويشرف على وينظم مافيا التجارة في الأعضاء البشرية التي انتشرت في جميع أنحاء العالم. وتأكدت بأدلة كثيرة أنه وراء مافيا الدعارة العالمية ومافيا التجارة في الجنس. وهذا المركز نجح نجاحا كبيرا من تحويل الجنس من كونه جوهر الحياة الاجتماعية السليمة إلى أنه مجرد نشاط بيولوجي حيواني صرف. نشاط بيولوجي يُباع ويُشترى. وعن طريق وسائل الإعلام الضخمة التي يملكها استطاع الترويج لفكرة البعد البيولوجي للحب والجنس وفصله - تماما - عن البعد الاجتماعي الرائع للحب. إذ أن البعد الاجتماعي للحب والجنس هو أساس من أسس التقدم الحضاري لبني البشر. واعتبر أن التركيز فقط على البعد البيولوجي من أخطر ما يروجه مركز النازية الجديدة. ومن أخطر ما يهدد البشرية. بل قد تتجاوز آثاره التدميرية على المجتمع الإنساني، الآثار التخريبية لمافيا السلاح ومافيا المخدرات، التي ينظمها ويخطط لها. وهذا المركز يعمل بهمة ونشاط لإفقار شعوب العالم وتدمير البيئة تدميرا، بحيث تتدهور كل أنواع الحياة الرائعة على ظهر أمنا الأرض الجميلة، التي احتضنت الحياة منذ ملايين السنين. ونتيجة لأنشطته التخريبية وتلوث البيئة تلوثًا خطيرا بدأت أنواع كثيرة وأشكال كثيرة للحياة تموت وتنقرض. ويكفي أن أعرض عليك آخر تقرير لهيئة الأمم عن تلوث البيئة في العالم. فقد بلغ درجة التلوث في بعض بلاد أمريكا اللاتينية وفي القاهرة ونيودلهي درجة من الخطورة تبلغ ثلاث مائة ضعف المعدل المسموح به. أي أقل معدل يسمح باستمرار الحياة في أشكالها المختلفة، وله تأثيرات مدمرة على مستوى الذكاء لدى الأطفال. ودافع الربح الأقصى هو الدافع الحقيقي وراء هذه الأنشطة التخريبية. ولكي أستكمل رسم الصورة المفزعة لعالم اليوم. لقد ثبت ذلك من أبحاث عديدة قمت بها.

وأطلع ممدوح القديسة الحمراء على كل المستندات التي تؤيد أقواله وهو أن مركز النازية الجديـدة هـو وراء كل حركات التطهير العرقي الذي ساد في جميع أنحاء العالم حديثًا، للترويج لتجارة السلاح التي تـدر البلايين من الدولارات على هذه الشركات (وهنا توقف ممدوح عن الكلام وأطلعها على أوراق أخرى تثبـت بدون ذرة شك أن المكتب البيضاوي وراء إحياء الأصولية الدينية والتطرف الديني والقومي، الذي انتشر في عالمنا الحديث. وهنا توقف عن الكلام ليلتقط أنفاسه وأفكاره).

ميريام : إحنا يا ممدوح في معركة حياة أو موت؟.. معركة مصيرية ضد الشركات عـابرة القـارات ومتعددة الجنسيات. ضد الصهيونية والتطرف الديني الإسلامي أو المسـيحي أو الهنـدي. إذ أن تسييس الدين وتحويله إلى مطلقات - كما قال الدكتور مراد وهبة في كتابة جرثومة التخلف وفي كتابه الثمين (ملاك الحقيقة المطلقة)- أن تسييس أي ديـن سـواء اليهـودي أو المسـيحي أو الإسلامي وتحويله إلى حقيقة مطلقة قد يدمر البشرية. إذ أن الإنسـان لا يملـك إمكانيـة إدراك الحقيقة المطلقة بشكل مطلق، وهو يحاول ما استطاع إدراكها ولكنه يدركها بشكل نسبي. وهنـا صمتت القديسة الحمراء لبرهة ليست قصيرة، ولقد أدركت المرامي والأبعاد الحقيقية للمستندات التي عرضها عليها ممدوح إسماعيل فريد. واستمرت في الكلام:

- "شوف يا ممدوح. أنا على يقين أن النازية الجديدة لو انتصرت، فلن تأخذها رحمة أو شـفقة فـي القضاء علينا. لن تأخذها رحمة أو شفقة في القضاء على شعوب العالم؟. لتحقيق المكاسب الماديـة الهائلة التي تمتصها من دماء المساكين. أنا... فاهمة الأبعاد الحقيقية البعيدة لكلامك.؟ أنا لن أتورع عن اتخاذ أي قرار في سبيل إنقاذ البشرية مهما بلغت قسوته. أمي الحقيقة يا ممدوح هي الأم سـان تيريزا التي ماتت وحرقت جثتها في وباء الكوليرا في الهند. والذي علمني الدين الحقيقي هو الكاتب الأيرلندي برناردشو والزعيم الذي عشنا في كوخه المهاتما غاندي والذي تعلمنا منه معنـى الحيـاة الحقيقية، وأخذنا عنه الجوهر الجميل الرائع للدين الصحيح بعيدا عن مفـاهيم المؤسسـات الدينيـة الرسمية. أنت أقرب إنسان إلى روحي، لأننا تطورنا روحيا معا عبر خدمتنا لكل الناس مـن كـل الألوان ومن كل الأشكال وعملنا سويا، واشتركنا معا في خدمة المجتمع الإنساني، خدمة المجتمـع البشري وتطور القوى الروحية لدى الإنسان وأقرب الطرق لعبادة الرحمن جل جلالـه. واشـتركنا معا في عبادة الواحد الأحد الرحمن الرحيم في معبد الحياة المقدسة. أنا يا ممدوح لا أؤمـن بصـلة الدم. أو صلة الرحم فكثيرا ما تكون صلات الرحم صلات مبنية علـى الحقـد والتملـك والغيـرة العمياء، الصلة الحقيقية بين الناس هي صلة الروح والفكر. وهنا انفعلت وثارت وهبت من كرسيها واقفة:

- " أنا حياتي في سبيل مستقبل العالم. حياتي في سبيل مستقبل الحياة المقدسة التي أتعبد في محرابها. أنا مستعدة للتضحية بنفسي في سبيل مستقبل بني الإنسان. لا أتردد في التضحية بذاتي أو بأي صلة قرابة.

ممدوح : اشتد الصراع في كل العالم بين قوى الشر والتخريب وقوى الخير والحب. نعـم يـا ميريـام الصراع الرهيب يجري في كل مكان وفي كل بيت وفي كل حارة. إذا تأخرنا في تنفيذ مشروع الفجر الجديد فقد تسبقنا في تنفيذه المخابرات المركزية الأمريكية والموساد. إذ أنهم في سعي دائم ودءوب لمعرفة أسرار انفجار الميزون الذي أجريناه تحت مياه المحيط الهادي. والتجربة الثانية أجريناها في الفضاء. ولا شك أن أجهزتهم العلمية قد سجلت هذه الانفجارات. ولذا يركزون كل طاقاتهم في التوصل إلى الأسرار التي توصل إليها علماؤنا. علماء مذهب العلميـة الإنسـانية. وأخشى أن يصلوا إليها في القريب العاجل. انت عارفة كويس مهارة وحذق الموساد التي تسيطر حاليا على المخابرات المركزية الأمريكية. إذن فلنبدأ في تنفيذ مشروع فجر الإنسانية الحديد. ولا يوجد أمامنا بديل آخر. وعامل الوقت حاسم. وهذا الوقت هو أنسب الأوقات. إذ سيعقد اجتمـاع باكر في المكتب البيضاوي وستحضره ماجي الأسترالية أمـ ك البيولوجيـة. وتوصـل جهـاز مخابراتنا إلى الشفرة التي يستخدمونها. وهم يخططون لاستخدام أسلحة الدمار الشـامل لتحقيـق أحلامهم للسيادة على العالم واستعباد بقية شعوب العالم.

وبدأت حرب الكواكب. وبدأت حرب النجوم. قامت جميع شعوب العالم بـالثورة العالميـة. ضـد تجـار الحروب. المخدرات. تحركت الشعوب في الهند وفي مصر وفي الفلبين وفي الصين وفـي جميـع منـاطق العالم. نجحت القديسة الحمراء والفارس الأسمر في إشعال الثورة العالمية. ثورة المساكين. وقامت الحـرب العالمية الثالثة والأخيرة ومن الشرارة يندلع اللهيب. و تحركت كل القوى الثورية بكل ألوانها تحـت قيـادة القديسة الحمراء والفارس الأسمر. ضد قوى الشر والتدمير والرجعية تحت قيادة ماجي الأسترالية والحكمـاء السبعة في المكتب البيضاوي خارج مدار الكرة الأرضية. وهو الهيئة العليا التنفيذية للنازية الجديدة. واستطاع ممدوح باستخدام السلاح الرهيب الجديد تدمير المكتب البيضاوي أثناء اجتماع ماجي الأسترالية مـع حكمـاء صهيون السبعة. وبذلك دمر حزب فجر الحياة الجديد العقل المدبر للشركات عابرة القارات ولمافيـا الجـنس ومافيا المخدرات ومافيا السلاح. واستخدمت فيها القنابل الذرية على نطاق واسع. المسيح المنتظر نزل مـن السماء وقاد المسيحيين في حرب صليبية ضد النازية الجديدة في كل مكان. وضد أهم المراكز الصناعية في أمريكا والغرب. المهدي المنتظر نزل في السودان وقاد شعوب العالم ضد الصهيونية في حرب مقدسة ضـد الطغيان الأمريكي الصهيوني. وبوذا نزل من السماء وقاد شعوب آسيا البوذيين والهندوس وقادهم في حـرب مقدسة ضد الهيمنة الأمريكية. وماوسي تونج الزعيم الصيني نزل من السماء وقاد اليابانيين والصينيين ضـد النازيين الجدد والهيمنة الأمريكية.

واستطاعت قوى الظلام والرجعية تجنيد كل قوى الأصولية الدينية من الصهيونية والأصولية الإسـلامية والأصولية المسيحية في أمريكا والأصولية الهندية، في حرب مقدسة ضد قوى (فجر الحياة الجديد وحيـاتي في سبل مستقبل العالم). وبعد تدمير المكتب البيضاوي وحكماء العالم السبع، فقدت قـوى الظـلام والحقـد والتعصب الأعمى العقل العصبي المركزي الذي كان ينظم حركتها ويخطط لها. واستطاعت القديسة الحمراء والفارس الأسمر تحطيم هذا العقل المركزي باستخدام أسلحة حرب النجوم.

وانتصرت قوى الخير والحب والتقدم. وساد العدل والسماحة واحترام الآخر. وانتصر المساكين في كل أنحاء المعمورة. صدق المسيح حين قال: "طوبى للمساكين. فإنهم سيرثون الأرض وما عليها". وصدق رسول الإسلام الكريم حين دعا ربه: "اللهم أحيني مسكينًا وأمتني مسكينًا واحشرني في زمرة المساكين وأبناء السبيل". وصدق بوذا حين قال: "احترم الرأي الآخر. سر التقدم الحضاري يكمن في السماحة واحترام وتقديس الآخر الذي يخالفك في العقيدة.." وصدق غاندي في قوله: "حب الآخرين واحترامك لرأيهم مهما اختلف عنك وخالفك، يزيد عقيدتك لمعانًا وتألقًا". الديالكتيك هو سر التقدم في المجتمع الإنساني. وسر تطور الحياة والطبيعة. والديالكتيك الجدلي هو مذهب التناقض. السائد في الطبيعة كلها وفي الأشياء جميعها. القضية تتفاعل مع نقيض القضية. وينتج عن هذا التفاعل قضية جديدة. الرأي يتفاعل مع نقيض الرأي، وينتج مولود جديد وهو الرأي الجديد. وهذا هو مبدأ الديالكتيك الجدلي الذي نادى به الفيلسوف الألماني فريدريك هيجل. ومبدأ التناقض هذا هو الذي طور العقل البشري إلى مستواه الحالي. وجود الرأي والرأي الآخر ضروري جدا لتطور العقل البشري. وعدم السماح بالرأي الآخر في أي مجتمع يؤدي إلى توقف التطور والتقدم. ولولا قانون التناقض الموجود في الطبيعة لتوقفت الحياة عن النمو والتطور والحركة. ويضرب الحق بالباطل "أما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض".

وانتصرت الشعوب على مافيا التعصب الديني المتطرف وعلى تجار السلاح وعلى الشركات العملاقة عابرة القارات ومتعدية القوميات Trans national companies وعلى النازية الجديدة. وساد العدل والسلام والإخاء والسماحة بين جميع شعوب العالم. وبعد الانتصار العظيم الكاسح عاد بوذا إلى مملكته في السماء وعاد المسيح المنتظر إلى السماء. وساد حب الآخر في كل مكان. فجر جديد في تاريخ بني الإنسان. واستخدم هذا التاريخ بدلاً من التاريخ الميلادي لبداية التاريخ الحقيقي للإنسان. واختفت العبودية بكل ألوانها على ظهر هذه الأرض. وهذه الحرب العالمية الثالثة كانت نهاية الحروب المدمرة والمخربة في تاريخ البشر. وبدأت مرحلة عصر جديد. عصر السفر بين الكواكب. وعصر الإبداع والعبقرية المتاحة لجميع أبناء آدم وحواء. وعصر الحضارة الروحية التي تقوم على القيم الروحية السامية. والتي ستتيح الفرصة الملائمة لمولد الإنسان السوبرمان الروحي. السوبرمان الاجتماعي. السوبرمان الأخلاقي. حلم الفلاسفة والأولياء والقديسين. حلم البشرية القديم. فقد حلمت البشرية بالجنة والفردوس. وتحقق هذا الحلم الرائع بفضل العلم الحديث ودخول الإنسان إلى عصر الفضاء والإبداع للجميع، وهاجر الجنس الإنساني إلى الكواكب الأخرى وإلى المجرات البعيدة بفضل سفن الفضاء التي تسافر بسرعة أكثر من الضوء. وأصبحت أمنا الأرض المزار وقدس الأقداس لجميع الشعوب التي هاجرت إلى المجرات الأخرى. وفي جميع أنحاء الكون اللانهائي والجميع. كانوا يحجون سنويا إلى أمهم الأرض التي ولد فيها الجنس البشري، والجنس البشري استوطن الكواكب الأخرى التي تصلح للحياة واستوطن المجرات بفضل السفر في السفن الفضائية الضوئية التي تسافر بسرعة الضوء. والجنس البشري الذي هاجر وعمر جميع أنحاء الكون والمجرات الأخرى. جعل من الأرض مركزا للحج والتقديس والعبادة. أما ممدوح الفارس وميريام القديسة الحمراء. فقد أصبحا من أولياء ا الصالحين. واختفيا نهائيا من على خشبة مسرح الحياة الخالقة المبدعة. وانتشرت ديانة الحب والسماحة وحب الآخر في

كل مكان. وانتشر مذهبهما في التفكير الذي دعيا إليه، وهو مـذهب العلمانيـة الإنسـانية The scientific humanism واختفيا - تماما - نهائيا وإلى الأبد. البعض يقول أنهما قتلا وقضي عليهما في الحرب الذريـة التي دمرت الحياة على ظهر أمنا الأرض، وأصبحت غير صالحة للحياة. واضطر الجنس البشري ممن تبقى من الحرب الذرية إلى الهجرة إلى المجرات الأخرى، واستوطنوا الكواكب التي يتوفر فيها الماء. أما البعض الآخر فقالوا أنهما رفعا إلى السماء مع أولياء ا والقديسين من عباد الرحمن. وأقاما لهما في الأرض مزارا يزوروه سنويا من الكواكب والمجلات الأخرى. إذ أن الأرض أصبحت غير صالحة للحيـاة بكـل أنواعهـا والمبنى الوحيد الذي بقي على ظهر أمنا الأرض بعد الحرب الذرية، هو مبنى واحد وهو المزار الذي شـيده أتباع حزب (فجر الحياة الجديدة وحياتي في سبيل مستقبل الحياة) ومكتوب على المزار بماء الذهب بكل لغات العالم:

"مزار القديسة الحمراء ميريام وولي ا ممدوح إسماعيل فريد".

ومكتوب على جميع الجدران الشعار الذي حاربوا في سبيله وهو:

"حزب فجر الحياة الجديدة. حياتي في سبيل مستقبل العالم".

* * *

قصص قصيرة

الانتحار بالطريقة الروسية

حقًا الدنيا لغز.. كل شيء بقدر.. القدر يلعب دورا كبيرا في حياتنا. البسمة قدر. الدمعـة قـدر. الحيـاة صندوق من الألغاز. لغز داخل لغز. إذا نجحت في حل لغز. اكتشفت لغزا آخر أشد تعقيدا. وهكذا دواليـك. إلى ما لا نهاية من الألغاز التي لا نهاية لها ولا حدود.

في كازينو الشاطبي. بالإسكندرية. أمام البحر. جلسنا. أنا وحسونة. حسونة زميل الطفولة. وزميلـي فـي كلية الطب. ترك الكلية. بسبب فشله في الدراسة الجامعية. واشتغل بالأعمال الحرة. حياته غريبـة الألـوان. متنوعة. دفعته الحياة إلى اليأس. وصل إلى حافة الهاوية. في ظروف غريبة. اشـتغل فـي شـراء وبيـع الروبابيكيا. ثم عمل في جمع القمامة. ازدهرت تجارته. أصبح من الأثرياء. استضافني للإقامة معه. بشـقته الفاخرة المطلة على كازينو الشاطبي. عمارته الملك من عشرة أدوار. والدور العاشر كله حوله إلى فيلا من دورين. ومبنية على مساحة أربع شقق.

جلسنا في الشرفة العريضة المطلقة على البحر المالح. نحتسي البيرة الطازجة المثلجة ونتذكر أيام زمان. تبادلنا أطراف الحديث. حسونة رجل عملاق. عريض الأكتاف. مفتول العضلات. ضـخم الـرأس. عـالي الجبهة. صلعة كبيرة في وسط الرأس شوارب كثة كبيرة ومفتولة إلى أعلى. له بطن كبير وكرش ممتد إلـى الأمام. شواربه الطويلة الغزيرة مبرومة إلى أعلى تتحدى الزمن والدهر. رجل محنك ذو تجـارب. حنكتـه مرارة الأيام. وعلمته تجارة الحياة القاسية المرعبة.

سألني: "هل تؤمن بالقدر. يا دكتور فكري؟... قلت له: "أنا لا أؤمن بالقدر" أنا لا أؤمـن إلا بالضـرورة. وحرية الإنسان تنبع من معرفته وإدراكه الضـرورة. الضـرورة البيولوجيـة. الضـرورة الاجتماعيـة.. والضرورة النفسية".. صديقي حسونة ضحك وأخذ يقهقه بصوت عالٍ. وقال: "أنا أؤمن بالقدر إيمانًا أعمـى. إيمانًا لا يعتريه أي شك". واستمر في حديثه الشيق البديع. الجلسة هادئة وحلوة. وخرير البحر يصـلنا مـن بعيد: "تركت كلية الطب بعد فشلي الذريع في الدراسة. ماتت أمي.. كانت تاجرة زبدة.. فقدت بموتها سـندي الوحيدة في الحياة. ضاق بي الحال. أظلمت الدنيا في عيني. حياتي كانت جحيما كانت البؤس بعينـه. بـدأت أقترض من كل معارفي وأصدقائي. أقاربي كانوا صفر على الشمال. أفقر من الفقر. حياتي كلها على السلف. وأعيش بصفة دائمة على الاقتراض والدين...".. قام حسونة وأحضر زجاجة بيرة مثلجة. وطبق بـه فـول سوداني وفزدق وبندق. وطبق آخر فيه أسماك صغيرة مملحة وجندوفلي للمزة. لم أحاول مقاطعتـه. حتـى يستمر في حديثه. "فاكر يا فكري.. لما مريت عليك في بيتكم بالعباسية. طبعا أنت نسـيت. ده مـر عليهـا أربعين عاما.. فاكر يا فكري. أنا استلفت منك يومها عشرين جنيه مصري. والعشرين جنيه اللي أنت مـش فاكرهم. كانت بداية سعدي. وبداية نجاحي.. اشتريت بيهم سجائر من تاجر الجملة. قعدت على الرصيف في ميدان المحطة. بعتها للمارة. كسبت. فتحت كشك صغير. لبيع التبغ. نجمي بدأ في الصـعود. ازداد رزقـي. النجاح الصغير يولد النجاح الكبير.. وقعت في حب فتاة فقيرة. دقة زي حالاتي... بنـت طيبـة ومسـكينة.

وطوبى للمساكين. تزوجتها على سنة ا   ورسوله.. حقًا يا فكري الحب يصنع المعجزات. بـدأت تجـارتي تتسع. وتزدهر. استأجرت دكانًا صغيرا في طريق بنها إسكندرية. واستمر زميلي يـروي قصـته العجيبـة. واستمر انتباهي معه وإصغائي له: "راجت وازدهرت تجارتي.. فتحت محلاً جديدا. في العباسية بجوار بيتكم القديم. وبعدها بمدة. اشتريت محلاً آخر في سيدنا الحسين. وفقني الحظ واشـتريت الأرض أرخـص مـن التراب. بملاليم في المقطم. المتر كان بخمسين قرشًا. فاكر يا فكري بيت الشعر اللي جالنا في الثانويـة فـي الامتحان.. وأنت اللي غششته لي.." إذا أقبلت باض الحمام على الوتد.. وإذا أدبرت بال الحمار على الأسد.. "واستمر صديقي يقص لي أروع ما قابلته في حياتي الطويلة من أعاجيب.. "نعم تاجرت فـي كـل شـيء.. تاجرت في القمامة. ونجحت في أن أصير أشهر زبال في مصر. تـاجرت فـي الروبابيكيـا. وازدهـرت تجارتي.." تصدق يا فكري أن أرض المقطم اللي اشتريتها بملاليم.. بعتها بعد عشرين سنة بـالملايين.. يـا سلام يا فكري على الدنيا لما تضحك لك. فتحت حساب في البنك. وبعدها حسابات كثيرة. في بنوك عديـدة. تدفق علي المال زي الفيضان. من كل جانب. فتحت محطة بترول في طريق مصر السويس. الحظ الحلو جه معاي. أقمت شركة مياه معدنية. شركة مساهمة عربية مع بعض السعوديين. إذ أنهم وثقوا بي. وفي مهارتي وعبقريتي في إدارة الأعمال الحرة. الأمير السعودي شريكي كان يقول لي.. تعرف يا حسونة أنك لو حطيت صُباعك في الطين يبقى ذهب".. وصدرنا المياه المعدنية إلى السعودية والخليج. اتفقت مـع شـركة ألمانيـة لزراعة الزهور في مصر. وتصديرها إلى السويد وألمانيا. طبعا تحت إشراف الخبراء الألمان.. "وكده أنـا بقيت يا صديقي القديم مليونيرا. والحقيقة أنا بقيت بليونير".. واستمر حسونة في حديثه الممتع علـى صـوت هدير البحر المالح. وموسيقى موزارت الخافتة. وأخذنا نشرب البيرة زجاجة وراء زجاجـة... "وكلـه مـن خيرك. ولولا العشرين اللي أنا استلفتهم منك لبقيت شحاذًا في ميدان رمسيس. ولم أرد المبلغ لك. ولن أرده. العشرين جنيه كانوا سبب حظي. فيهم نجمي اللي صعد..".

طلبت زجاجة بيرة وطبق جنبري كبير ومشوي على الفحم. وانتعشت وشعشعت دماغي. قلت له سـاخرا: "إزاي يا حسونة بعد النجاح ده كله.. تؤمن بالقدر والحظ. لولا أنك استعملت عقلك وفكرك وذكـاءك. لكـن ضيعت العشرين جنيه بتوعي واستلفت غيرهم وغيرهم.. وكنت بقيت في القاع إلى يومنا هذا. عايش علـى السلف. انت يا حسونة راجل عصامي.. استعملت عقلك وذكاءك وفطنتك الغريزية التي ورثتها من أبيك تاجر القماش في الغورية.. اللي أفلس.. انت رجل عصامي كبير.. لولا أنك استعملت عقلك لفضلت في القاع فـي مزبلة المجتمع إلى يومنا هذا.. ولم تنجح في الصعود إلى القمة.. انت راجل عصامي.. كيف تـؤمن بالقـدر والحظ بعد كل هذا النجاح الرائع.. هذا النجاح ليس إلا نتيجة تعبك وعرقك.. فين القدر ده. إزاي تقول انـك تؤمن بالقدر.. انتصارك ده نتيجة عمل شاق ودءوب وجهد هائل مستمر ونضال رهيب فـي سـبيل لقمـة العيش.. فين القدر ده..؟ وأخذت أنا في الضحك والقهقهة بصوت عالٍ مرتفع حتى وصل إلى الأسماك فـي البحر المالح. وكدت أن أقذف بزجاجة البيرة في البحر من الدور العاشر.

سكت حسونة عن الكلام لبرهة وجيزة، ثم بدأ في الحديث الشيق الممتع "صبرك علي. يا عم فكري. أنـا لما طردوني من كلية الطب لفشلي مرات كثيرة في امتحان السنة ثانية طب. وفصلت. انطفأ نور الأمل فـي قلبي. قررت الانتحار وإنهاء حياتي التي لا معنى لها ولا مغزى. كل زملائي نجحوا وتخرجوا مـن الكليـة وأصبحوا أطباء. ذهبت إلى غرفتي. أغلقت باب الغرفة بإحكام. وترببست الباب من الداخل حتـى لا يـدخل علي أحد، وضعت فوهة المسدس المحشو في فمي. كنت على وشك الضغط على الزنـاد. سـمعت صـوتًا مرعبا. وصريخًا مفزعا. صادرا من غرفة أمي. أو من المطبخ. أسرعت إلى نجدتها. كانـت راقـدة علـى الأرض تتلوى من الألم. صدمة شديدة لي. نسيت كل ما يتعلق بالانتحار. استدعيت سـيارة الإسـعاف مـن تليفون الجيران. نقلت أمي إلى مستشفى الدمرداش. ُأدخلت إلى قسم الطوارئ والحروق. توفيت والدتي بعـد ساعتين من دخولها قسم الحروق. لولا صياح أمي واستنجادها بي. لنجحت فـي تفجيـر رأسـي بالطريقـة الروسية مش ده هو القدر يا دكتور يا عظيم ولا إيه؟ ماتت أمي بسبب الحروق في كل أنحاء الجسم نتيجـة سقوط الماء المغلي عليها. وأنا الصعلوك الفاشل عشت لأصبح بليونيرا. وعشت أناضل في معتـرك الحيـاة الصعب. ولم أقم بأي عمل غير شريف. طوال حياتي. نعم وصلت إلى القاع. ذهبت إليك في بيـت العائلـة. استلفت منك العشرين جنيها. هذه السلفة التي لم أردها لك كانت بداية صعود نجمي. وتغيير حظي. لو تـأخر حادث أمي ثانية واحدة. لكنت أنا الآن في عداد الأموات. وماتت أمي. وعشت أنا أناضل بقسوة وعنف. حتى أصبحت من كبار أثرياء مصر المحروسة. وثروتي تقدر بالبلايين. بالدولارات مش بالجنيه المصري. هكـذا الدنيا لما تضحك وتبكي في نفس الوقت. زي مراتي الحلوة نبيلة تضحك وتبكي في وقت واحد.. زي السماء الصافية الزرقاء لما تمطر وتغيط والشمس طالعة في كبد السماء.. وصدق الشاعر عنـدما قـال: "ضـحكت الأرض من بكاء السماء..." أما أنا فقد صمت ووجمتُ وأخذت أردد قول الشاعر في صمت وحياء.. والـدنيا إذا أقبلت.. باض الحمام على الوتد.. والدنيا إذا أدبرت بال الحمار على الأسد.

* * *

الحب الأعمى

عملت في محافظة السويداء. في جبل الدروز أو ما يطلق عليه حاليا جبل العرب. وتقع محافظة السويداء، على حدود الأردن وإسرائيل ولبنان. وعلاوة على عملي، أخصائي جراحة عامة. منتدبا من الإقليم الجنوبي لجمهورية مصر العربية. فقد عملت أحيانًا أخصائي طب شرعي. والقيام ببعض قضايا الطب الشرعي وحل رموزها وأسرارها. وذلك للندرة الشديدة في الأطباء الشرعيين في سوريا في تلك الأيام. وقد كنت أول طبيب مصري انتدب للعمل في سوريا.

وردت إشارة عاجلة من شرطة السويداء. للتوجه لمقابلة السيد رئيس المحكمة، أو ما يطلق عليها (سراي العدل). أخذت سيارة المستشفى. إلى سراي العدل لمقابلته. أُدخلت فورا إليه. أخبرني سيادته أنه يوجد شكاوى مجهولة كثيرة وردت إلى المباحث الجنائية في صلخد، المدينة الدرزية الواقعة في أعلى جبل الدروز. ودائما مغطاة بالثلوج طوال العام إلا أثناء فصل الصيف فقط. ويبدأ الثلج في الذوبان في أواخر الربيع. وقال لي سيادته بالحرف الواحد: "أنا حولت لك هذه القضية. الصعبة لثقتي الكبيرة فيك. إذ تشير الأبحاث الجنائية، وترجع احتمال أن لها أساس من الصحة. ولهذا لم أتمكن من حفظها، بالرغم من مرور ثلاث سنوات عليها. وتتلخص في الآتي: "عن المهاجر الدرزي السوري. المدعو أسعد حرب. البالغ من العمر أربعين عاما. الذي هاجر إلى فنزويلا منذ فترة طويلة. عاد إلى صلخد واشترى بيتًا. بالأموال التي نجح في جمعها في المهجر. وكان يقيم معه في منزله الجديد. أخوه صياح عسلي وهو مصاب بالعمى نتيجة إصابة قديمة بالجدري، وزوجته الجميلة صباح عامر. وأولاده الثلاث. ومنذ أكثر من ثلاث سنوات عاد من المهجر نهائيا. فتح له سوبر ماركت في صلخد. وحسب كلام المباحث، فقد كان يتمتع بصحة جيدة. وتوفي فجأة بدون سابق إنذار. وبدون مرض سابق. في منتصف الليل. وقام أخوه الأصغر صياح بإبلاغ السلطات الصحية المسئولة. ومدير الصحة الدكتور عارف محاسن. أعطى تصريح دفن للمتوفى بدون توقيع الكشف الطبي الفعلي. وذلك نظرا لانشغاله الشديد. والطريق إلى صلخد كان مسدودا نظرا لتراكم الثلوج في شهر الشتاء. ودفن المجني عليه في المدافن الخاصة بعائلة حرب. في مدافن الدروز. واستمر سيادة رئيس المحكمة في تلخيصه للقضية الجنائية لي: " واطلعت على شهادة تصريح الدفن. التي دفن بها. وقرر الدكتور عارف طبيب الصحة أن سبب الوفاة - كما جاء في شهادة الدفن - "سبب الوفاة. هبوط حاد بالقلب بسبب انسداد شريان القلب التاجي الرئيسي...".

واستمر القاضي في تقريره عن القضية: "لاحظ أهل القرية بأن زوجة المجني عليه لم تعلن الحداد المدة الكافية المتعارف عليها. وثارت الشكوك في نفوسهم. وفي البداية لم نعطها الأهمية نظرا لكثرة الشكاوى والصراعات في هذه المنطقة بالذات. ولكن زواج زوجة المجني عليه المبكر من الأخ الأصغر الضرير أضاف بعض المصداقية للشكاوى. ذلك لأن زواج الأرملة المبكر يتناقى مع تقاليد القرية في الحداد. وتوالت الشكاوى الغيبية إلى سيادة وزير الداخلية. وبعد إجراء المزيد من البحوث. وتوفرت لدينا المزيد من

المعلومات. قررت المحكمة استخراج جثة المتوفى المجني عليه. على أمل فك طلاسمها. ومعرفة الحقيقـة. وعندنا كامل الثقة فيك. لأنك منذ قدومك إلى سوريا حققت نجاحا ملموسا في اكتشاف الكثيـر مـن الخفايـا القضائية الشائكة الملغزة. واستطعت حلها". وأضاف: "ولا أخفي عليك بأن هذه القضية أصعب قضية وردت لنا خلال مدة عشرين عاما. والصعوبة الكبيرة في رأيي هي أن الوفاة كانت منذ ثلاث أعوام.. ولا شك أنهـا تحدي كبير لك".

وفي اليوم التالي. توجهت في رفقة السيد رئيس شرطة منطقة صلخد. إلى المـدافن الخاصـة بالـدروز. ومعنا مختار القرية للناحية. وفي طريقنا إلى المقبرة اصطحبنا معنا المشرف على المدافن أو فـي التعبيـر الدارج في مصر التربي. حتى نتعرف على مكان دفن الجثة. إذ أن تقاليد الدروز تختلف عن تقاليـد السـنة والشيعة. واقترح السيد مدير الشرطة الاستعانة بجيران المجني عليه. وذكر لنا بعضهم. بأن أسـعد حـرب هاجر إلى أمريكا اللاتينية منذ عشرة أعوام. وأنه كان يرسل كل أمواله الوفيرة إلى زوجته صباح وإلى أخيه الأصغر الضرير. واشترى قطعة أرض في أحسن بقعة في المدينة وبنى منزلاً من ثلاث طوابـق. وحولـه حديقة واسعة قد تزيد عن مساحة أرض البيت. مزروعة بأشجار تفاح الجبـل المشـهور بحلاوتـه، وزرع تكعيبة عنب طويلة بطول الحديقة. أكد لي بعض الجيران أن المجني عليه كان في أتم صحة وعافية، عنـدما عاد المرة الأخيرة من المهجر. واشترى سوبر ماركت فاخرا في الميدان الرئيسي في صلخد. ولكنه لم يعش إلا ستة شهور فقط. ولم يجد الوقت للتمتع بثروته الطائلة. وأخبروني - أيضا - ونحن في العربة في طريقنا إلى المقبرة أنه هو الذي تولى العناية بأخيه الأصغر الضرير منذ إصابته بالجـدري. حيـث فقـد بصـره. وانتشرت بثور الجدري القبيحة على جميع أنحاء جسده. في ظهره وعلى بطنه وخاصة علـى وجهـه ممـا أعطاه منظرا قبيحا منفرا. الذي نفر كل فتيات القرية من الزواج منه. ولم يستطع الزواج. وعطف عليه أخوه الأكبر المجني عليه. وأخذه للإقامة معه في بيته. وكان يصرف عليه من ماله الخاص. وفهمت مـن خـلال أحاديثهم أن صلخد في الشتاء قد تصل درجة الحرارة فيها إلى العشرين تحت الصفر وتتراكم الثلـوج حـول البيوت. وقد تصل الثلوج المتراكمة والمتجمدة زي حجر الصوان إلى ارتفاع متر أو يزيد. وفي أثناء الشـتاء القارس تنعزل البيوت بين الناس. وتمتنع الزيارات العائلية. حيث يتعذر أحيانًا عليهم الخروج مـن بيـوتهم. حيث يصعب جدا فتح أبواب المنازل والسير في الطرقات. أثناء الليل الطويل وأثناء النهار. طـوال فصـل الشتاء تقريبا. ويعتمد كل منزل على ما خزنه من لحوم مجففة وأسماك وجمبري وغيره من الخضـراوات. وهم يتقنون صناعة تجفيف الطعام الذي يقومون بإعداده في فصل الصيف. ويجيـدون تخزينـه. وصـعوبة الخروج من المنازل طوال شهر الشتاء. وعزلة الناس التامة عن بعضهم بعضا قد تكون لها نتـائج خطيـرة على تصرفات البشر وسلوكهم. ولا شك أن هذه المعلومات كان لها فضل كبير علـى فهـم أبعـاد القضـية العويصة التي أقوم أنا بصدد حل رموزها وألغازها والكشف عن أبعادها.

ذهبنا إلى مقابر الدروز. تعرفنا على المكان. حددنا مكان وموقع دفن جثة أسعد حرب. أكد لي الأقـارب والجيران. صدق المعلومات التي حصلت عليها. وكانت التجربة الأولى لي في استخراج ومعرفة سبب الوفاة بعد مضي ثلاثة سنوات. كل الجثث التي قمت بتشريحها واستخراجها. كان قد مضى على الدفن مدة لا تزيد عن عشرة أيام. تم البدء في استخراج الجثة. واستُعمل الجاروف لإزالة حوالي متر أو يزيـد مـن الأتربـة المتراكمة على القبر. وكانت عملية صعبة في منتهى الصعوبة. لأن الدروز لا يضعون شواهد على قبورهم. لكن التربي ساعدنا على التعرف على مكان دفن المجني عليه، وأسلوب دفنه الذي يختلف عن أسلوب الـدفن عندنا في مصر. لم يتبقَ من الجثة إلا بعض العظام الغير مكتملة. وبقايا مهلهلة من الثياب التـي دفـن بهـا حسب عادات الدروز. البقايا المتآكلة فقدت لونها وقوامها بفعل الزمن. أخذتُ عينة مـن عظـام الجمجمـة. ومعها بعض الأتربة والرمال المحيطة. وأخذت عينة - أيضا - من عظام الحوض وبعض الثياب العالقـة. وعينة من الضلوع والرمال والأتربة اللازجة التي تحيط بعظام الصدر. ووضعت كل عينة في قطرميز خاص بها. وأقفلت القطرميز بالغطاء الزجاجي بإحكام وشمعت عليه بالشمع الأحمر. وختمت عليـه بخـتم شـعار الجمهورية المتحدة. وأخذت ثلاث عينات من الأتربة والرمال من نفس التربة، ولكن من على بعد لا يقل بل قد يزيد عن متر. من مكان دفن الجثة. وشمعتها - أيضا - بالشمع الأحمر وختمتها بنفسي بإحكـام. حسـب تعليمات الطب الشرعي. وقمت بإرسالها. عن طريق الشرطة. على المعامل المركزية في دمشـق. للكشـف عن نوع السم المستخدم. وذلك في حالة استخدام السم في قتل المجني عليه.

ومرت الأيام. ونسيت كل ما يتعلق بالقضية، والحق أقول، إنني تصورت أن التحقيق لن يصـل إلـى أي نتيجة. إيجابية كانت أو سلبية، لأن مدة ثلاث سنوات كفيلة بتدمير كل الأدلة المتعلقة بالقضـية. إلا إذا كـان الموت بسبب التسمم بالمعادن. ولقد فوجئت بالنتيجة التي أرسلت لي في خطاب سري.. صادر من محكمـة السويداء. وظهر من التحليلات التي أجريت في المعامل المركزية الآتي (إن كميـة مـادة الـزرنيخ. فـي القطراميزات - أي العينات التي أخذت من موقع ومكان دفن الجثة - تصل الكمية فيها إلـى عشـرة آلاف ضعف كمية الزرنيخ في القطراميزات التي أخذت من على بعد أكثر من متر أو يزيد. أي من الأتربة البعيدة عن مكان الدفن. ويعني هذا بصورة مؤكدة في الطب الشرعي أن الوفاة كانت بسبب التسمم بمادة الـزرنيخ. أي بعبارة قانونية القتل العمد مع الإصرار والترصد. باستخدام مادة الزرنيخ.

وتم القبض على كل من الجاني عامر حرب وزوجة أخيه صباح. وصدر الحكم بإعـدامهما شـنقًا حتـى الموت. وتبين من تقرير أخصائي النساء أن صباح حامل في الشهر الرابع. ولذا تأجل تنفيذ حكم الإعدام إلى ما بعد الولادة. ولقد اطلعت على ملف القضية. لاهتمامي لمعرفة ما حدث. "وتبين من تحقيق قاضي العـدل الذي أجراه. أن الجاني عامر حرب وعشيقته صباح العسلي. زوجة أخيه الأكبر. قد عزما على قتل المجنـي عليه بعد عودته مباشرة من المهجر. بصفة دائمة عندما عبر عن رغبته في الاستقرار نهائيا في السـويداء. وشرائه السوبر ماركت المشهور في المدينة. حيث وقف تواجده في طريق تحقيق شهواتهما. وقامـا بتـدبير جريمة القتل سويا. كما جاء في أقوالهما. والعقل المدبر لهذه الجريمة البشعة هـو عـامر حـرب الضـرير المصاب بالجدري. وعامر حرب هو الذي أشار على عشيقته بالتوجه إلى صـيدلية الجبـل، لشـراء مـادة

الزرنيخ. بحجة استخدامه للقضاء على القوارض المنتشرة في صلخد. ودسوا له السم في طعامـه. الزوجـة صباح قامت بوضع مادة الزرنيخ في طعامه المفضل. وعندما أصيب أسعد بضيق في التنفس وألم شديد فـي الصدر. وأصيب بفقد الوعي. قاما سويا بكتم أنفاسه. ببطانية ثقيلة. حتى توقف النفس نهائيا. وعند منتصـف الليل. ذهب عامر حرب إلى مكتب الصحة في صلخد. للتبليغ عن الوفاة. وعن الموت المفاجئ للمجني عليه. وعندما ذكر لدكتور الصحة الأعراض التي عانى منها. ومات بسببها. أصدر طبيب الصحة شـهادة وفـاة. بدون توقيع الكشف الطبي الفعلي على المتوفى. وجاء في شهادة الوفاة (تصريح الدفن) "إن سبب الوفاة هـو السكتة القلبية الحادة. بسبب جلطة في الشريان التاجي. نتيجة التعرض لموجة البرد القارس". وقـام الجـاني بدفن الجثة بعد حصوله على تصريح الدفن الرسمي. وذلك في صحبة أهل القرية وأقاربه.

أصدر وزير الصحة قرارا بعقاب طبيب الصحة ونقله إلى محافظة القامشلي في سوريا. وتـزوج عـامر حرب عشيقته صباح العسلي بعد استكمال المدة الشرعية. وهي ثلاث شهور. ولكنهمـا تعجـلا الأمـر. لأن التقاليد الدرزية تفضل استمرار الحداد سنة كاملة. ولكنهما تعجلا الأمر. وتسرعت الزوجة الحلوة في إنهـاء الحداد. مما أثار موجة من الاحتجاج الصامت في نفوس أهل القرية. كذلك أثار الشك والريبة. لديهم، كثـرت الظنون والأقاويل بين الناس. مما دفع الكثيرين إلى الكتابة للسلطات المسئولة. وكثرت الشكاوى المجهولة إلى وزارة الداخلية. حتى تكررت الشكاوى إلى رئاسة الجمهورية. وذلك لتراخي وتقاعس رجال الشـرطة فـي إعادة التحقيق. واستخراج الجثة.

وتم تنفيذ الحكم في الجاني. عامر حرب. وأرسلت المحكمة إشارة لي لحضور تنفيذ الحكم. وأخذ عينة من القرنية لإرسالها إلى بنك العيون. بدمشق. كما تجري العادات والتقاليد في سوريا. وكانت أول مرة لـي أرى الجاني عامر. وهو عملاق ضرير ضخم الجسم. عريض الصدر. مفتول العضلات صوته أجش وجهـوري وعالي النبرات وعميق. بشع الوجه منفر. ولم أتمكن من أخذ عينة من القرنيـة. نظـرا لإصـابتها القديمـة بالجدري. ولا تصلح لأخذ العينة.، تأجل تنفيذ حكم الإعدام في صباح عسلي. نظرا لأنها حامل. وهي امـرأة جميلة رائعة الجمال. حسنة المنظر. الفتنة والحسر تبهر كل من ينظر إليها. الفتنة الجنسية تنبعث كالإشـعاع من كل عضو من جسمها الفاتن الممشوق. سبحان من أبدع هذا الجمال الساحر الذي يـدير عقـول النـاس. الشعر ناعم حريري المنظر والملمس. يصل إلى أسفل ظهرها الممشوق القوام الطويل. ومفروق عند الجبهة. إذا دخلت أي مسابقة جمال في أي مكان في العالم تفوز فورا بالجائزة الأولى. كل هذه الفتنة الأنثوية والسحر الجنسي وهي في ملابس السجن الرمادية الخشنة. تم تأجيل حكم الإعدام في المرأة الخلابة. بسحرها إلى بعد ولادة طفلها. الذي أطلقت عليه اسم عامر عشقًا في حبيبها الذي مات شنقًا. شاهدت - أيضا - تنفيـذ حكـم الإعدام في صباح عسلي شنقًا حتى الموت. ونجحت هذه المرة في أخذ رقعة قرنية من عينيهـا الجميلتـين. وأرسلتها إلى بنك العيون بدمشق. تنفيذًا لأمر القاضي رئيس محكمة العدل.

* * *

بقعة الظـلام

في قهوة كاليتيا في الإسكندرية. جلست شلة من الأصدقاء تتسامر. على طاولة بالقرب من البحـر. فـي ركن منعزل. بعيدا عن رواد القهوة. يحتسون البيرة الطازة. الآنسة زهيرة والدكتور فكري والأستاذ حسونة. يتسامرون بصوت خافت يكاد لا يسمع. الأحكام العرفية التي أعلنت. وقانون الطوارئ. الشمس قاربت علـى المغيب. وما زال لون الشمس القرمزي ينعكس على مياه البحر، وعلى السحب الكثيفة التـي تجمعـت فـي الأفق. السحب الكثيفة القاتمة. تتشكل في أشكال بديعة. انظر يا فكري. انظر إلى هذه السحابة. دي على شكل عروسة المولد. السحابة دي على شكل فارس بيرقص مع حبيبته. وأشارت زهيرة بإصـبعها.. إلـى الأفـق البعيد ناحية أقصى اليمين.. شوف السحابة دي.. دي على شكل فرس بيجري على قمم الجبـال.. وأشـارت زهيرة بإصبعها ناحية الشمال. شوف يا فكري.. السحابة دي على شكل طائر النورس. زهيرة كانت منفعلـة جدا مع روعة وجمال الطبيعة الساحرة.

الإسكندرية في بداية الربيع. جمال وحياة وحيوية. الجو يميل إلى البرودة. شهر مارس. بداية فصل الربيـع. البحر فيه نوة. عنيفة. الأمواج العاتية. تأتي مسرعة إلى الشاطئ. تتلوها أمواج عاتية أخرى. تتكسر على الشاطئ الحجري العنيد. الزبد يتطاير في الهواء. عند الأفق البعيد عند تقابل البحر بالسماء. كل شيء رائع. وبديع. الحياة. الحب. والكفاح في سبيل حرية الإنسان وقداسته. الأستاذ حسونة أو الشيخ حسونة. كما ينادونه تلاميذه ومريديـه. الأب الروحي لزهيرة وفكري. صلتهم بالتنظيم السري السياسي. ومسئول الخلية التي يتبعونها. التنظيم السـري الذي يكافح ضد الاستبداد والشمولية. في سبيل الديمقراطية والحرية وميثاق حقوق الإنسان.

الدكتور فكري. في أوائل الثلاثينيات. ما زال في بداية حياته كطبيب. زهيرة تعمل ممرضـة معـه فـي مستشفى باكوس. ارتبطوا معا في العمل السياسي لميلاد وطن أفضل. وميلاد مجتمع جديـد. زهيـرة كلهـا حيوية وشباب. حيوية متدفقة. جمال ساحر ف أواخر العشرينيات. القوام بديع. الشعر ناعم حالـك السـواد. مرسل وطويل يصل إلى أسفل كتفيها. قوام ممشوق. كأنها جنية من بنات حواء. خارجة لتوها مـن قيعان البحر المالح. نوة البحر تزداد عنفًا الأمواج الهائلة تصطدم بالشاطئ الصخري العنيد تزداد ارتفاعـا. حقًـا الحياة ما هي إلا أمواج هادرة. أمام شاطئ الحياة الصخري العنيد. الأمواج القديمة تنهزم والجديدة تولد مـن أعماق القديم. وأما الزبد فيذهب جفاء. وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض.

العمل في مستشفى باكوس. ربط بين فكري وزهيرة. في علاقة صداقة جميلة. والعمل السياسي في سبيل غدٍ مشرق. عمق علاقة الحب بينهما الشيخ حسونة مرشدهم الروحي. في أواخر الثمانينيات من العمر، كـان يحيطهما بالرعاية والعناية. كما يحيط الجنايني الزهور والورود. برعايته وعنايته. احترف الثورة. احتـرف تربية الأجيال الجديدة. عملاق. طويل القامة. من أسيوط. عيناه تشعان ذكاء وحكمة ودهاء. الرأس كبيـرة. جبهة عالية. شامخة عريضة. خصلة كبيرة من الشعر الأبيض. تغطي جانب الرأس الأيمن في بياض الثلوج التي تغطي قمم الجبال في فصل الشتاء. البلاد كلها وقعت تحت حكم الفرد. تحت وطنه النظـام الشـمولي. انتشرت المنشورات السرية في كل مكان. القلم والورقة. السلاح الوحيد للشعوب المقهورة.

واستمر الحديث الشيق الهادئ. والخافت جدا. وبالرغم من فرض الأحكام العرفيـة وقـانون الطـوارئ. شعروا بروعة الحياة وبهجتها. كل شيء جميل. الحياة والطبيعة والناس. كل شيء في حالة حركة وتـدفق. شعر الشباب والشيوخ. أن الحرية هي قدس الأقداس. الحرية هي التي تفجر في الشعب أجمل ما فيـه مـن طاقات. خلاقة ومبدعة.

حرارة الحب والربيع تنساب في قلوبهم. طلبوا زجاجة بيرة ستيلا. البيرة مثلجة ولذيـذة. زجاجـة وراء زجاجة. المزة فول سوداني وأسماك صغيرة وجندفلي.. نشوة الحياة مرت في قلوبهم. حقًا ما أروع الحيـاة.. الحياة حلوة.. وبتضحك لهم... وأخذوا يغنون معا.. ويرتلون اللحن الشعبي المشهور... "البحر بيضحك ليه.. وأنا نازلة.. أدلع وأملا القلل". الثلاثة أخذوا يرددون بصوت خافت "البحر بيضحك ليه وأنا نازلة أدلع وأمـلا القلل"... نشوة الحياة سرت في أرواحهم وفي قلوبهم. واستمرت القعدة اللذيذة الهادئة إلى منتصـف الليـل. لديهم شعور عميق بأنهم على أبواب مرحلة جديدة في حياتهم. الأحكام العرفية العسكرية التي أعلنت. وقانون الطوارئ الذي تجدد العمل به. الأصدقاء الذين أودعوا السجن. غلق مجلة روزاليوسف ومجلات أخرى.

شعرت زهيرة بمغص مفاجئ في أسفل البطن. مع نزول دم العادة الشهرية. سال منها دم الطمث بغزارة. بلل ملابسها ونشع الدم على الجونلة الرمادي الفاخرة، التي أهداها لها فكري بمناسبة عيد ميلادهـا. شـحب لونها. اعتراها القلق والاضطراب. أخبرتهم بالمأزق التي تعانيه. استعدوا لمغادرة المقهى المشهور الذي كان على وشك الإغلاق أحاطوا بها من كل جانب. حتى لا يلمح رواد المقهى بقعة الدم التي نشعت على الجونلـة الفاخرة.. أخذ فكري تاكسي لتوصيلها إلى منزلها في كامب شيزار.. شعرت زهيرة بالسعادة والفرح. إذ أنها كانت في غاية القلق لتأخر العادة الشهرية عن ميعادها المنتظم. وأخبرت فكري بذلك. وأصيب فكري بالذعر والرعب. لم يكن مستعدا للزواج. وتصور فكري عندما لمح بقعة الدم على الجونلـة الرماديـة الفـاخرة أن وصفة الدكتور الصيدلي صديقه كامل أفندي، قد نجحت وحققت المراد في إنهاء الحمل. الخطـر زال. عـاد فكري إلى المستشفى. سعيدا مرحا فالمصيبة زالت. و الحمد والشكر. انتهى القلق. ونجحت وصفة الدكتور كامل الصيدلي. وضع همه كله في عمله. في قسم الأمراض الباطنية. كان أمله في الحصول على دكتـوراه في الأمراض الباطنية والقلب. ودارت الأيام. ودارت الليالي. تجنب مقابلة زهيرة. تجنـب رؤيتهـا ليتفـرغ للدراسة. وابتعد عن مشاكل رجال الأمن. وابتعد - أيضا - عن مشاكل الحب.

وبعد شهر تقريبا. ازداد شوقه لرؤية زهيرة. كاد أن يجن. الحب في قلبه ازداد اشتعالاً. انتصرت الشهوة على الحكمة. رغبته في الاجتماع بها تغلبت على كل المخاوف والأخطار. الخوف من البوليس. الخوف مـن الحب. زارها ليلاً في بيتها في كامب شيزار. خالف بذلك أوامر الشـيخ حسـونة. المحتـرف الثـوري: "لا تخلطوا الحب بالسياسة.. لا تخلطوا الثورة بالجنس..." في بيتها في كامب شيزار. زهيرة كانت لوحدها. أمها ذهبت إلى طنطا. لحضور الاحتفال بمولد السيد البدوي. فرحت زهيرة به. ابتهج قلبهـا. لرؤيـاه. طـارت كالعصفور المغرد. تغني أغنية الحب والسعادة. أخذت تغني وتغرد. أغنية الحب والسعادة. خالفوا بذلك أوامر الثوري المحترف أستاذهم. والحب أقوى من الخوف. والحب أقوى من الموت أحيانًا.

في حوش البيت المتواضع. البيت المتهدم القديم الذي أكل عليه الدهر وشرب. والليلـة كانـت منتصـف الشهر العربي. القمر الكامل في استدارته في كبد السماء. نور القمر الهادئ يشع في كـل مكـان. ويحـيط الحوش بغلالة من الجمال والموسيقى والسحر. جلست زهيرة وفكري على العشب الرطـب تحـت شـجرة الجميز العتيقة. شجرة الجميز العملاقة التي امتدت فروعها الطويلة الغليظة إلى كل ركن من أركان الحوش. احتموا بجذع الشجرة الضخم من العيون المتطفلة. احتموا بفروع الشجرة من تسلل نور القمر الباهت الـذي يضيء كل أركان الحوش العتيق. ويتطفل عليهم. ظنوا أن الزمن غافل عنهم. بعد هذه الغيبة الطويلة تبـادلا القبلات الساخنة. والعنيفة العميقة. قبلات دافئة أحر من الجمر المشتعل. والحب أقـوى مـن الحيـاة. إذ أن جوهر الحياة. لأنه الوجود نفسه. والحب أقوى من الموت. إذ أنه الخلود واستمرار الحياة المباركة. والليلـة كانت حلوة. ليلة الفرح والبهجة. ليلة مش زي كل ليلة. القمر الساطع نوره على الكون. كله. اختبأوا في ظل شجرة الجميز. العتيقة العملاقة. وفي حمايتها. توسدوا الأرض الطرية المعشوشبة. العشب الطري النادي كان فراشهم. الشجرة العجوز تنظر إليهم بعطف وإشفاق وحنان. تحيطهم بالرعاية والحب والإشفاق. الحب يمـلأ الكون كله. السماء صافية. من أي غيوم. الربيع يسري في الطبيعة. والكائنـات والنـاس. الطبيعـة ذاتهـا تشاركهم فرحتهم. فرحة الحياة والحب والعناق. النجوم الساطعة في السماء الصافية. تطل عليهم مـن القبـة السماوية. تنظر إليهم بحب وحنان. الكون كله يشاركهم بهجتهم. وفرحتهم. فرحة الحياة المتجددة. دائما أبدا. اجترفهم إعصار الحب. اقتلعهم اقتلاعا من أقدامهم. مادت بهم الأرض تحت أقدامهم. ارتعشت الأرض تحت أجسامهم. أجسادهم الملتصقة في وحدة واحدة. رائحة زهور الربيع الحلوة تنبعث من كل الأشياء. تناسوا كل شيء. غابوا عن الوجود. التحم الجسدان في جسد واحد. انصهر الروحان في روح واحدة. في بوتقة الحب. الأرض الطيبة المغطاة بالعشب. كانت سرير عرسهم. النجوم في السماء ترعاهم. الطبيعة الخلاقة تعزف لهم أروع الألحان. الأشجار والسماء والنجوم ترقص لهم. رقصة الفرح والخلود.. ناما كطفلـين علـى العشـب الأخضر المبلل بدموع السماء. والحياة تتجدد وتستمر والحياة تخلق دائما من جديد. زلزلت الأرض الطيبـة تحت أجسامهم العطشى إلى الحب والالتحام.. نسوا وتناسوا الأحكام العرفية. وقانون الطوارئ. نسوا وتناسوا الزمن. فكري وزهيرة غابا عن الوعي. خلعت زهيرة حياءها. تذوقوا أروع ألحان الحب.. التحما وانصـهرا في كيان واحد. شعروا برجفة الحب المقدس في جسديهما. قاربت تباشير الفجر على الظهور. بشائر الفجـر في الأفق الشرقي البعيد. الحقيقة عادت. الواقع بدأ في الظهور. تيقظوا من الحلم البـديع. تـذكروا التنظـيم السياسي السري والمنشورات والمطبعة. المخبأة في أقصى الحوش في ركن منعزل ومغطّى بأشجار كثيفة.

أصوات خافتة.. تصل إليهم من كل أنحاء الحوش. أصوات غريبة تسمع هنا وهناك. همهمات وهمسات.. أصوات رجال سريعة ومتلاحقة. همهمات ونحنحات تسمع في كل مكان دب الخوف في قلوبهم. الفزع تغلغل في عظامهم. أشباح طويلة كالمردة. تجري في كل مكان. تحاصر الحوش العتيـق. حـاولوا الهـرب دون جدوى. صوت جهوري في ميكروفون ينادي عليهم بتسليم أنفسهم.. صاح قائد كتيبة الهجوم: "قف عندك. لا تتحرك. سلم نفسك. أي حركة سنضرب في المليان". رجال الأمن أطبقوا عليهما من كـل جانـب. المـدافع الرشاشة صُوبت إلى صدورهما. رفعا أيديهما إلى أعلى فوق الرأس طلبا للاستسلام سلما أنفسـهما. وُضـع القيد الحديدي حول معصم فكري وزهيرة. اقتيدا إلى قسم الحضرة. وانتصرت المدافع على القلم والورقة.

في نفس الليلة تم القبض على أغلب أعضاء التنظيم السياسي في جميع أنحاء جمهورية مصر. أمام النيابة العامة اعترف حسونة. أخذ المسئولية بالكامل على عاتقه. اعترف أمام وكيل النيابة. أنا المسـئول الوحيـد. زهيرة ابنتي لا تعرف أي شيء عن التنظيم السياسي. الدكتور فكري خطيبها. ليس له أية علاقـة أو صـلة بنشاطي السياسي. ولا يدري شيئًا عن المطبعة والمنشورات. أفرجت النيابة عن فكري وزهيرة. وُضع الشيخ حسونة في السجن. حُكم عليه بعشرة سنوات مع الأشغال الشاقة المؤبدة. مات حسـونة علـى البُـرش فـي زنزانته بسجن أسيوط. بعد ثلاثة أيام من صدور الحكم. بسبب أزمة قلبية حادة.

ودارت الأيام ومرت الليالي. شعرت زهيرة بانتفاخ في بطنها ويزداد مع الأيام كبرا. شـعرت بعلامـات حمل أكيد. وزادت مع الأيام وضوحا. بقعة الدم التي نشعت على جونلة زهيرة كانت علامة كاذبة. والحمـل استمر في تطوره الطبيعي. بالرغم من كل العقاقير التي تناولتها. تأكد لها أنها حامل في الشـهر الخـامس. ضاعت منها الفرصة لإجراء عملية الإجهاض لإنهاء الحمل. إذ أن العملية تزداد خطـورة بتقـدم الحمـل. واستمر الجنين العنيد في النمو. والبقاء. ذهبت إلى أخصائي أمراض نساء. أكد لها ظنونها. حامل في الشهر الخامس. ذهبت السكرة. وجاءت الفكرة. صدمة نفسية شديدة لفكري وزهيرة. انتابهم اليأس والقنوط. الدكتور فكري مازال يحبو أول خطواته كطبيب حديث التخرج. أمامه لسة مشوار طويل. لا مال ولا خبـرة طبيـة كافية ليفتح عيادة. ولا حتى خبرة كافية بالحياة. ذهبوا معا إلى أخصائي النساء بالمستشفى لإقناعـه بقبـول إجراء عملية الإجهاض لإنهاء الحمل. رفض الدكتور عبد الفتاح إجراء عملية الإجهاض لأنها فـي الشـهر الخامس. إذ أن العملية في الشهر الخامس قد تؤدي إلى مضاعفات خطيـرة لزهيـرة. وكـذلك لأن عمليـة الإجهاض تعتبر جناية في نظر القانون.

انتابهما اليأس والإحباط. الظلام يزحف عليهم من كل جانب. أطالا التفكير العميق. فكري وزهيرة أفقـر من الفقر. ولا يستطيعان مواجهة الحياة الزوجية. وتكاليفها. وكمان معاهم طفل جديد. نسوا وتناسوا الحريـة والكفاح السياسي والنضال في سبيل حقوق الإنسان. أما بقعة الدم التي نشعت على الجونلة الرمادية الفاخرة. التي أهداها فكري لزهيرة في عيد ميلادها، فقد ازدادت اتساعا. واتسعت واتسعت وأصبحت دوامة من الـدم الأحمر القاني يكاد أن يبتلعهما ويبتلع جيلهما وأحلامهما وآمالهما.

دفعهما اليأس إلى طبيب غشيم في حي كرموز. اشتهر بممارسته هذا النوع من العمليات في الخفاء. بعيدا عن رقابة الجهات الصحية المسئولة. باعا كل ما يملكان اقترضا من بعض أصدقائهما. ذهبا إلى عيادته فـي منطقة نائية. في شارع مظلم. تطل على البحر المالح. صعدا على السلم المتهالك وعلـى وشـك السـقوط. الإضاءة خافتة ضعيفة باهتة. بحيث ترى طريقك بصعوبة. دفعا له الأتعاب مقدما حسب طلبه.

ذهبت زهيرة في رفقة زميلتها سلوى الممرضة في قسم الجراحة. أما فكري فلـم تكـن لديـه الشـجاعة لمواجهة هذا الموقف. ذهب إلى حانة السعادة. التي تطل على البحر. ليحتسي أكبر قدر من الخمر. ليُغـرق في الخمر تعاسته وبؤسه. الذي يعيش ويحيا فيه. شرب كميات من الخمر ليقتل أحاسيسه. ولكي يدمر عقلـه وضميره. والفئران المذعورة تفر من السفينة الغارقة.

زهيرة ذهبت إلى قدرها. الطبيب الغشيم أجرى لها عملية الإجهاض. في ظروف وأحوال لا تتلاءم مع أي تدخل جراحي سليم. الضوء غير كافٍ. الأدوات غير معقمة التعقيم الطبي المعقول. نزيف شديد من الـرحم أثناء العملية. كانت مجزرة. ساءت حالة زهيرة. أصيبت بالصدمة العصبية الشديدة. صرخت سلوى زميلتها في فزع: " انت مش دكتور. أنت مجرم بشهادة". صرخت فيه. أمرته باستدعاء سيارة الإسعاف لنقلهـا إلـى المستشفى الجامعي. نقلوا زهيرة إلى قسم النساء في مستشفى الشاطبي. أجرى لها رئيس القسم عملية عاجلة. حاول إنقاذ حياتها دون جدوى. الطبيب الغشيم مزق الرحم وجزءا من الأمعاء الدقيقة. ماتت زهيـرة. علـى ترابيزة العمليات. أبلغت المستشفى النيابة العامة. الطبيب الشرعي قام بإجراء تشريح للجثـة لتحديـد سـبب الوفاة. جاء في تقرير الطبيب الشرعي الآتي: "سبب الوفاة إهمال جسيم أدى إلى الوفاة. والسبب تهتك بالرحم وتمزق بالأمعاء الدقيقة ونزيف شديد من الشريان الرحمي".. تم القبض على الطبيب. سبع سنوات سجن مـع الأشغال الشاقة المؤبدة. اجتمع مجلس نقابة الأطباء في الإسكندرية. قرر طرد الطبيب من النقابة. ومنعه من مزاولة المهنة مدى الحياة. وشطب اسمه من سجلات النقابة نهائيا.

الأخبار السيئة تصل بسرعة البرق. الأخبار المفزعة وصلت إلى فكري. هو يعب الخمر عبا فـي حانـة السعادة. استأجر قاربا صغيرا. أخذ يجدف بدون أي هدف. هروبا من الرعب واليأس الذي تغلغل في كيانه. أخذ يجدف إلى المياه العميقة. يجدف بقاربه الصغير إلى الأعماق البعيدة. إلى أعماق البحر المظلم. أخذ يبكي ويجدف. ويجدف ويبكي.. بدون أي هدف. انتابته نوبة من الجنون الحاد. اختفى الشـاطئ. اختفـت أنـوار الكازونيهات. اختفت نجوم السماء. الأمواج الهادرة تصل إلى عنان السماء. الأمواج الهادرة والمخيفة تحـيط به من كل جانب. اقتحم فكري الظلام المجهول. قفز فكري إلى العدم. قفز فكري إلى الظلام الكثيـف. قفـز الدكتور فكري إلى الظلام الأبدي. ابتلعته أشباح البحار العاتية. اختفى فكري في دوامة الظلام الذي أحاط به. انتهت حياة الشاب الذي كافح من أجل مستقبل أفضل لبني الإنسان. الشاب الذي كـافح مـن أجـل الحريـة والديمقراطية. وناضل في سبيل حقوق الإنسان في كل مكان. ابتلعته أشباح البحار العاتيـة. ابتلعـه الظـلام المرعب. الحالك البهيم. ابتلعه البحر اللانهائي السرمدي العنيد. وأصبح فكري طعاما سائغًا لسـمك القـرش والحيتان المتوحشة. الجائعة..

ماتت زهيرة. مات فكري. زحفت عليهما جيوش الظلام. أطبقت عليهمـا جحافـل البـؤس والاسـتبداد. ابتلعتهما الغابة الكثيفة المرعبة.. وابتلعت آمالهما وأحلامهما. وابتلعت كل المعاني الحلوة في حياتهما. وفـي حياة أوطانهما. وساد قانون الطوارئ. وسادت الأحكام العرفية. وساد قانون الغابة الهمجية..

واتسعت بقعة الظلام. واتسعت بقعة الدم. حتى غطى الظلام أوطانهم. وحتى سادت الهمجيـة والبربريـة وعبادة الفرد بلادهم الحبيبة. التي ولدت الحضارة الإنسانية على ضفاف نيلها الرائع الخالد.

وهذا يومكم... وسلطان الظلام.....

* * *

سوسن خريجة بنسيون السعادة

وأسرع الشيخ عبد الجواد، إلى صديقه المتر دي تيل، في بار اللواء. مرتديا آخر ثيابه، احتسى كأسا مـن الكوني، الفاخر وانتشى. وسرت نشوة الخمر في جسمه، حتى وصلت إلى رأسه، أفضى لصديقه بما يرغـب فيه. اتصل صديقه بالمعلمة حميدة، صاحبة بنسيون السعادة أخبرها بعلاماته المميزة. حتى تسمح له بالدخول، والإقامة عندها، حميدة دائما أبدا في خوف من البوليس.

أخذ تاكسي إلى ميدان محطة السكة الحديد، فتحت له الخادمة، أعطاها كلمة السر المتعارف عليها: "أنا من طرف النبي سليمان" صباح الخير، أنا عاوز حجرة ليلة واحدة.

- اتفضل يا عم، الحجرة الممتازة بجنيه ونصف.

الست حميدة جالسة متربعة، على مكتب الإدارة، "دى السعر ده عشان خاطر النبي سليمان، دخـل إلـى الغرفة، صاحبته، فتاة جميلة حلوة، زي عروسة الحلاوة، ريانة العود، شعرها أسود حالك، طويل نـاعم زي الحرير، يصل إلى أسفل ظهرها، سيقان طويلة مربربة، سمراء سمرة النيل أيام الفيضان"

- اتفضل يا سيدي على حجرتك، حجرة واسعة، عريضة، مرآة كبيرة، مذهبة، بعرض الحائط، تمـلأ أجزاء كبيرة من الحائط المقابل للسرير العريض، سرير عريض من أيام زمان، ملاية السرير فـي غاية الجمال، منقوش عليها صورة الإلهة ديانا، إلهة الحب والعشق عند اليونان، وقفـت العـروس أمامه، قالت:

"اسمي سوسن، وقفت تتراقص أمام المرآة العريضة، رشت بارفان تحت إبطيها، جلست علـى السـرير بجوار الشيخ عبد الجواد، حملق عبد الجواد في مفاتن جسمها العاري بذهول، من فرط جمالها، قبلها، طالـت شفتاه كل موضع في جسمها الساحر، بدأت في خلع ملابسها، الرقيقة، سرت الشهوة في جسده، بدأ يتحسـس كل موضع من جسمها البض الريان، شعرت سوسن لأول مرة في حياتها الفنية بالراحة تجاهـه، تجاوبـت معه، لأول مرة في حياتها، كمومس تتجاوب مع زبون، التعليمات عندها، واضحة أوامر المعلمة أو الأستاذة حميدة: "لا تجاوب، لا تفاعل مع أي زبون، المومس تأخذ الحب، ولا تهب الحب"، تأخذ فقـط ولا تعطـي". شعرت سوسن- بالرغم من إرادتها - بالسعادة تنبعث في روحها! غريبة، الحب عنـدها عمليـة جراحيـة مؤلمة، لا عواطف إنسانية، لا تجاوب مع الزبون، بالرغم عنها، أحست بالنشوة تسري في دمهـا، إعصـار الحب اجترفه، إعصار الحب اجترفها، نسيت الواقع، تاهت في الأحلام، ركبت صـاروخ الحـب، تـداعت الذكريات، رجعت إلى فتاة السابعة عشر، الفتاة العذراء، الماضي عاد إليها.



فكري ابن صاحب الوسية، في بستان البرتقال. أعلن عن حبه لها، وعدها بالزواج، الحب الأول في حياتها، قال لها: "أحبك أعبدك، سأتزوجك، على سنة ا ورسوله، بابا وافق، لا تخافي، اطمئنت له، بكرة يروحوا لمأزون القرية، وهبته كل ما تملك، سيطر عليه وعليها شيطان الشهوة، أعطته حبها كله، نسيت والدها الخفير عند صاحب الوسية، نسيت تقاليد القرية، نسبت حنان أمها، الذكريات تجري في خيالها، زي فيلم السينما، تذكرت شرفها الذي فقدته، تذكرت أنوثتها الضائعة، تذكرت فكري، الطالب في كلية الطب، الجبان كيف هرب وتركها لوحدها، تواجه مصيرها المرعب، تواجه العار في القرية، هربت، تلقفتها الست حميدة، في ميدان السكة الحديد، صادها قوادها الذي يعمل في بنسيون السعادة، أخذتها المعلمة إلى طبيب. أجرى لها عملية الإجهاض، علمتها الصنعة، أقدم المهن في تاريخ الإنسانية، زينت لها حلاوة المهنة، صدقتها، اختفت الذكريات، عادت سوسن إلى الواقع، عاد إليها الوعي، عادت إلى بنسيون السعادة.

إلى الحاضر الكريه، أحست ساعتها بالكراهية والنفور للرجل الذي يضاجعها، رجل غريب، فوقها، يضاجعها، ويتحسس كل جزء من جسمها، المستباح، ذكر بط راقد فوقها، عرقه الكريه يتساقط منه، رائحة نتنة تبعث منه، من كل جسمه، من نفسه، تذكرت أبيها المسكين، تذكرت الأم الغلبانة، تذكرت فكري الجبان، الذي دمر حياتها.

هرب بعد أن نال مراده منها، وتذكرت بؤسها وشقاءها، تذكرت الآلام المبرحة، آلام الأمراض، التناسلية، التي أخذتها من الرجال، خمدت النار، عادت سوسن إلى الواقع، الكئيب، هذا الرجل الكريه يشبه فكري ابن صاحب الوسية، يشبه النذل الذي غرر بها وحطمها، وحطم عائلتها، هذا الرجل مازال راكبا عليها، يكتم أنفاسها، يخنقها برائحته، الكريهة ومازال الزبون الغريب راقدا فوقها، بدأ في الارتعاش، ارتعاشة الشهوة، العرق يتصبب منه، الشهوة اجترفته، أشرف عبد الجواد على قمة الشهوة، فجأة انتابتها ثورة الغضب، ثورة الانتقام، ثورة أخذ الثأر من كل الرجال، للعذاب والمهانة اللذين وقعا عليها، الراقد عليها يكتم أنفاسها ويخنقها بأنفاسه القذرة يشبه فكري، بل هو نفسه فكري، هو فكري بعينه، مدت يدها تحت المخدة، أمسكت الموس الكبير الحاد، سلاحها الوحيد ضد الرجال المشاغبين، السكارى زبائن آخر الليل، طعنته، في صدره في رقبته، في بطنه، في كل مكان طالته الموس، إعصار الشهوة تحول إلى إعصار الانتقام، رجفة الحب إلى رجفة الموت، النزيف في كل مكان، الدم يسيل بغزارة من صدره، من رقبته من بطنه، الدم الأحمر القاني يبلل الفراش، الملاية غرقانة دم، دم الشيخ عبد الجواد أغرق ولطخ أرض غرفة الحب، فقد عبد الجواد وعيه، تحولت دعوة الحب إلى دعوة الموت الأبدي، سوسن عادت إلى الوعي، عادت إلى الواقع في بنسيون السعادة ورأت الدم يلطخ كل مكان وينبثق من جسم الزبون الراقد فوقها، صرخت بأعلى صوتها، صرخت صراخًا مرعبا، المومسات اقتحمن غرفة الحب، الزبون مات، أمام السيد وكيل النيابة صرخت: "أنا قتلته، أنا قتلته، فكري انتهك عرضي، فكري دمر حياتي، نعم أنا قتلته، ثأرت لعار أبي، ثأرت لعار أمي، انتقمت لفتيات قريتي، أخذت ثأر كل البغايا" في المستشفى الصفراء في العباسية، قضت سوسن بقية عمرها في المستشفى الأمراض العقلية، لا تتذكر شيئًا، هربت من الواقع المر كالحنظل، هربت إلى الخيال، إلى خيالها الذي صنعته بنفسها لنفسها، نسجت من خيالها عالما آخر، عقلها اللاواعي نسج عالما سعيدا جديدا، عالم من البهجة والسعادة، والرضا، المرأة التي أخذت ثأر كل البغايا، أخذت ثأرهن من القوادين ومن الرجال ومن الحجة حميدة، في مستشفى الأمراض العقلية أطلق عليها الأطباء والنزلاء، سوسن السعيدة خريجة كلية بنسيون السعادة.

عاش المريض بالرغم من جهل الطبيب

كنت أشاهد مسرحية الخرتيت. تأليف الكاتب المسرحي الأشهر يونسكو في مسرح الحكيم. تقدم مني شاب "إزيك يا دكتور عمرو أنت مش فاكرني. إزاي أنت مش فاكرني. أنا مريضك من دمياط. استغربت لم أتعرف عليه. وأخذ في كشف صدره. أثر ندبة عملية جراحية في أعلى الصدر. قائلاً: "أنا اللي أنت عملت له أحسن عملية في حياتك الطبية.. ونشرت في الجرائد. كلها وجالك شكر من وزير الصحة. إزاي تنساني يا دكتور".

تذكرته على الفور. تداعت الذكريات في عقلي. تذكرته جيدا. كان يوم خميس. يوم الراحة الأسبوعية. كنت رئيسا لقسم الجراحة العامة. في مستشفى دمياط العام. استدعاء عاجل. بالرغم من راحتي. الجراح اضطر للذهاب إلى المنيا لوفاة والدته. أرسلوا إلي سيارة الإسعاف لإحضاري من منزلي في رأس البر.. شاب طويل. عريض الأكتاف واقف على قدميه بالرغم من لونه الباهت. لون القماش الأبيض. شعرت من خبرتي الطويلة بالجراحة العامة. أنها حالة حرجة ومستعجلة جدا. أمرت بإدخاله فورا إلى قسم الطوارئ.

قال لي والده: "إحنا يا دكتور ذهبنا أولاً على مستشفى رأس البر. لإسعافه. الطبيب الامتياز هناك. قام بإسعافه بإجراء خياطة الجرح. يظهر أنه لسة جديد ومبتدئ. وأعطاه أمبول تيتانوس.. ولم يدخله القسم الداخلي هناك. انصرفنا إلى المنزل. بالرغم من إلحاحي عليه بإدخاله لوضعه تحت الملاحظة الطبية. متصورا أنه جرح بسيط لا يحتاج إلى دخوله إلى القسم الداخلي. ساءت حالته وأصيب بفقد الوعي وإغماء. طلبنا الإسعاف. ونقلناه إلى مستشفى دمياط العام.

فحصته بدقة على ترابيزة الكشف. النبض سريع وغير منتظم. ضغط الدم حوالي. (١٠٠/ ٢٠٠٣ ـ ٠٨ ـ ٣١ ٦٠). أرسلته بسرعة لقسم الأشعة لإجراء أشعة عاجلة على الصدر والقلب. ظهر من الفحص الإشعاعي والإكلينيكي أنها حالة نزيف شديد داخل التجويف الصدري. بسبب جرح نافذ إلى عضلة القلب مما أدى إلى نزيف شديد في غشاء التامور الذي يحيط بالقلب. والسبب هو الطعن بمطواة قرن غزال في الصدر من الناحية اليُسرى. في المسافة الضلعية الثالثة. غرقت ترابيزة العمليات بالدم. الذي سال من داخل التجويف الصدري بغزارة. من الجرح السطحي والعميق. شاب في مقتبل عمره يحتضر أمامي. كنت في حيرة شديدة. إذ أنني متخصص في الجراحة العامة. وليس لدي أية خبرة عملية في جراحة القلب والصدر. ولكن طبعا عندي خبرة نظرية. حدث هذا في أوائل السبعينيات. جراحة القلب كانت ما تزال في أوائل تطورها. المستشفى العام الوحيد في دمياط. لم يكن به أي استعداد أو تجهيزات لمثل هذا النوع من العمليات. انفعل والد الشاب. شعر بخطورة الموقف. أدرك عمق ترددي سألني في أدب في صوت هادئ: "أنا أبوه.. عاوز أعرف الحقيقة". قلت له: "ابنك مصاب بجرح نافذ إلى الصدر والقلب. أنا أخصائي جراحة عامة. وليس لدي أي خبرة عملية لمثل هذه الحالات. ابنك في حاجة عاجلة إلى سرعة النقل إلى قسم القلب، في كلية الطب بالقاهرة. الطريق من دمياط إلى القاهرة، حتى بنها طريق مفرد وضيق جدا ولا يسمح إلا بصف واحد من العربات. النقل على القاهرة يحتاج إلى خمسة ساعات للوصول إلى القصر العيني. وحسب علمي قسم القلب

بالمنصورة لم يُفتتح بعد. لاحظ الأب شدة اضطرابي. وقلقي. سألني بصراحة: "سيادتك ما عنـدكش خبـرة كافية في جراحة القلب"... "أنا طبعا عندي خبرة نظرية فقط. وإلمام جيد بالأسس النظرية الدقيقـة لجراحـة القلب. ولكني لم أمارس أبدا هذا النوع من العمليات".. لاحظ والده عدم رغبتي في إجراء التدخل الجراحـي اللازم. " سألني: "نسبة الوفاة كام لو أرسلناه إلى القصر العيني...؟".. قلت: "... نسبة الوفاة ستكون تقريبـا تسعين في المائة..." "لو أرسلناه بأقصى سرعة".. وصمت قليلاً. ثم سألني: "طيب نسبة الوفاة كام لو سيادتك قمت بالتدخل الجراحي اللازم هنا في المستشفى...؟".. "لو أنا قمت بإجراء الجراحة اللازمة... هنا بـالرغم من عدم توفر الأجهزة الخاصة. وضعف الإمكانيات.. حتكون نسبة الوفاة لا تزيد عن ثمـانين فـي المائـة. ويمكن يموت مني على ترابيزة العمليات.. ولكن طبعا يجب علي القيام بواجبي لإنقـاذ حيـاة المصـاب"... تركني لبرهة وجيزة. اتصلت أثناءها بالسيد المحافظ لمحاولة نقله بطيارة عسكرية من الجيش. واتصـلت - أيضا - بجامعة المنصورة للتأكد من عدم فتح قسم لجراحة القلب. أفادني السيد المحافظ إن الجيش مشـغول في عمليات عسكرية مع إسرائيل. وأفادني مدير المستشفى الجامعي في المنصورة بعدم وجود قسم لجراحـة القلب. وسيفتتح بعد ستة شهور على الأقل. وبعد دقائق عاد والده بعد مشاورته مع والدته وأقاربه. وقال: "... اعتمد على ا يا دكتور عمرو.. اعتمد على الحي القيوم. أنت يا دكتور سمعتك حلوة أوي في كل محافظـة دمياط.. كلنا نثق في شرفك ومهارتك توكل على ا ."... وأخذ يبكي وابتعد عني.. انتابني صـراع عنيـف وتردد شديد في أعماق نفسي وعقلي..." وبعد برهة وجيزة حسمت الموقف وأخذت قرارا. حيث تعلمت مـن الممارسة الطويلة للجراحة العامة. الحسم في الأمور التي لا تتحمل كثرة التردد. والأيدي المرتعشة لا تقوى على البناء. وطلبت أخصائي التخدير. الدكتور مجدي فرج ا . الذي كان في مصيف رأس البر.. "أنا عندي حالة عاجلة. جرح نافذ إلى القلب بمطواة قرن غزال... وهو شاب في مقتبل العمر. وهو في حالة احتضـار على إجراء العملية. ما فيش أمامي وسيلة أخرى. لإنقاذ حياته. عشان أبعته لقسم جراحة القلب فـي القصـر العيني. عاوز على الأقل خمس ساعات. أنت عارف صعوبة وضيق الطريق... "الدكتور مجـدي فـرج ا قال: "طيب ما تبعته للمنصورة.." "... لسة قسم جراحة القلب لم يفتتح بعد.. ولم يعمل فيـه. وقـد أفـادتني المستشفى الجامعي بذلك. بإشارة رسمية. ".. وافق الدكتور مجدي على مشاركتي في تحدي القدر. وما الحياة إلا وقفة تحدٍ. وأضفت قائلاً: "بس ضروري تعرف يا مجدي أن المريض قد يموت مننا في غرفة العمليـات. قال لي مجدي بصوت خافت هادئ: "أنا مستعد لتحمل المسئولية ده شرف مهنتنا. ده شرفنا. وليفعل ا مـا يريد. "استدعيت والده إلى غرفتي. "... أنا مستعد للقيام بواجبي. ده هو شرف الطبيب. بس طبعا حاكتبلـك إقرار بالموافقة على إجراء العملية. بالرغم من الظروف العصبة. "كتب إقرارا بأنه موافق على إجراء العملية لإنقاذ حياة ابنه. بالرغم أنني أخبرته بأنني ليس لدي أي خبرة عملية بجراحة القلب. وأنني قمت بإخباره بأن المستشفى لا يتوفر بها الإمكانيات والتجهيزات الكافية والضرورية لإجراء هذا النوع من العمليـات. وكتـب إقرارا - أيضا - على نفسه. بأنه ليس له أي حق في المطالبة بأي تعويض مني أو من وزارة الصحة.. في حالة وفاته على ترابيزة العمليات. أو حدوث أي مضاعفات مهما كان نوع وخطـورة هـذه المضـاعفات. ووقعت الأم - أيضا - على الإقرار. وطلبت توقيع خال الشاب كشاهد على الإقرار.

بدأت في إجراء العملية. فتحت الصدر. جرح كبير في البطين الأيسر للقلب. وجرح في الرئـة اليُسـرى وفي غشاء التامور. توترت إلى أقصى حدود التوتر. اشتغلت بسرعة جنونية لإنهاء العملية تجنبا لموته على ترابيزة العمليات. انتهت العملية بعد ثلاث ساعات. كنت في غاية الإرهاق والتعب. وما زال المريض يتنفس. وما زال قلبه ينبض. ذهبت إلى منزلي. ملابسي كلها دم. رفضت زوجتي السماح لي بالنوم في حجرة النوم. لأن عندها حساسية من رائحة المخدر والدم. وهي لا تعرف طبعا ما حدث. نمت نوما عميقًا. وغبـت عـن الوجود... في الصباح ذهبت إلى المستشفى لرؤية الحالة. دخلت غرفة العناية الفائقة. الـدكتور مجـدي لـم يغادر المستشفى ونائم بملابسه في السرير المجاور للمريض. اطلعت على أوراق المـريض. تفيـد أوراقـه ورسم القلب والتحليلات اللازمة كل ربع ساعة. أيقظت الدكتور مجدي. أخبرني "في الساعة الأولى، رسـم القلب كان في غاية الاضطراب. وبعد ثلاث ساعات من إجراء العملية. انتظم القلب والنبض والتنفس.. وزاد ضغط الدم ووصل إلى ١٢٠/ ٧٠.. ونظرت إلى المريض فوجدته ما زال على قيد الحياة وتنفسـه منـتظم ونبضه محسوس بصورة لا بأس بها.

قال لي الدكتور مجدي: "أنا يا دكتور عمرو قعدت جنبه طوال الليل. وفضلت النوم بجواره فـي السـرير الثاني. حالته لا بأس بها. أخذ كميات كثيرة من نقل الدم. ولم أنم إلا بعد عودة رسـم القلـب إلـى الحـدود الطبيعية.

خرج المصاب شافيا من المستشفى بعد خمسة عشر يوما. وبذلك تحولت من جناية إلى جنحة. حيـث تـم شفاؤه بدون أي عاهة وفي مدة أقل من عشرين يوما حسب نص القانون. الذي يفيد أن مدة العلاج إذا كانـت أقل من واحد وعشرين يوما تتحول إلى جنحة، إلا إذا تخلفت عاهة مستديمة من الإصابة. واطلعت على ملف القضية. وظهر أن الجاني هو ضابط بوليس حديث التخرج. وأن المجني عليه حاول مغازلة شـقيقة ضـابط الشرطة. وطعنه في صدره. وهكذا لعبت الأقدار دورا أساسيا في إنقاذ حياة المجني عليه. وفي إنقاذ مسـتقبل ضابط البوليس عندما تحولت القضية إلى جنحة.. حيث إنه إذا اعتبر الحادث جناية أو إذا حدثت وفاة يـنص القانون على فصل رجل الشرطة. ولكان تم فصله من الخدمة العسكرية...

وهكذا عاش المريض. بفضل شجاعة أخصائي التخدير. الدكتور مجدي فرج ا ، وعاش المريض بفضل شجاعة الدكتور الجراح وقبوله التحدي الطبي. بالرغم من جهله بجراحة القلب الدقيقة...

* * *

وباع روحه للشيطان

كان القطار السريع ينهب الطريق نهبا. في طريقه إلى أسوان. الدكتور/ عصام مدني جـراح الأعصـاب الشهير بالإسكندرية. مع صديقته سوزان. حيث انتدب للعمل في مستشفى عنيبة المركـزي لمـدة شـهرين. وعنيبة تقع جنوب أسوان وغرقت واختفت بعد بناء السد العالي في بحيرة ناصر. هذه المأمورية كانت بنـاء على رغبته وطلبه. استغربت الوزارة لهذا الطلب. ولكنها رحبت به. لأنها كانت تشجع كبار الأخصائيين في كافة فروع الطب. للعمل في هذه المناطق الخالية بصفة مؤقتة.

على صوت القطار الرتيب. نام الدكتور عصام مدني نوما عميقًا. أخذت سوزان ترضع ابنها سمير مـن ثديها. أخذ عصام أثناء نومه العميق يحلم أحلاما عجيبة وغريبة، شريط ذكرياته المزعجة يتداعى في ذاكرته كفيلم سينما. تذكر كيف تشاجر مع زوجته الشرعية، وأقسم عليها يمين الطلاق. لأسباب واهية تافهة. كيـف ترك لها المنزل. تذكر صراخ وعويل أطفاله الثلاثة. في منتصف الليل. تذكر نصيحة صديقه عبد الرحمن له بالذهاب إلى الشيخ بهلول. لأخذ نصيحته. والشيخ بهلول مشهور في الطب الروحاني والسحر. الذي اشـتهر لنجاحه في علاج الأمراض العصبية والنفسية. وهو قادم من المغرب وذاع صيته في مصر وخاصة بعـد أن أعلن مريدوه أنه يستخدم الجان ويسيطر عليها بإذن الله لخدمة بني البشر.. وأنه حاصل على الدكتوراه فـي الطب الروحاني من جامعة فرجينيا بأمريكا. ليطلب مساعدته في الشفاء. من المرض العصبي الذي ألم بـه. بسبب الضغوط النفسية والعصبية التي تجمعت في أعماقه. وتذكر في الحلم أو الكابوس. كيف توجه بعربتـه المرسيدس إلى الشيخ. وقابله في منزله المنعزل في منطقة نائية بين رشيد وأبو قير. حيث ابتنى بيتًا في هذه المنطقة المهجورة. وتذكر في الحلم. كيف انتظر حوالي ساعتين لمقابلته. وكيف دفع مائة دولار ليتمكن مـن مقابلته. الشيخ بهلول يستعين بالجن والأسياد. وعده بأن يسخر الجن لتحقيق أحلامه وآماله. وفـي الكـابوس المزعج الذي ألم به. تذكر الصك الذي كتبه الشيخ الساحر ووقع عليه الدكتور عصام مدني. وباع به روحـه للشيطان الرجيم.

أيقظته حبيبته وعشيقته سوزان من الكابوس الذي ألم به. لأنه كان يهذي ويردد كلاما لا معنى له. استيقظ من النوم المزعج العميق: "قوم يا عصام.. إحنا وصلنا أسوان. أنت نمت ثلاث ساعات. كنت بتخرف أثنـاء نومك وتقول كلاما لا معنى له".. "كنت قاعد تخطرف في الحلم".. استيقظ. أخذ ابنه من سوزان في أحضانه ولاعبه، جهزوا الحقائب للنزول. محطة أسوان قربت. أعلن مفتش القطار بأن القطار سيصل أسـوان بعـد عشرة دقائق. في أسوان قابلتهم الوجوه السمراء الحلوة الضاحكة. المميزة لأهل محافظة أسوان. قضوا الليلة في فندق كاتراكت القديم. في انتظار المركب السودانية. لتحملهم إلى عنيبة. التي تبعد عن أسـوان بحـوالي ثلاث مائة كيلومتر. وتقع على نهر النيل العظيم مباشرة.

أخذوا فلوكة لزيارة جزيرة النباتات. في وسط النيل. التي بناها اللورد كتشنر الحـاكم الإنجليـزي. أيـام الاستعمار البريطاني. وتعتبر إلى الآن أهم مركز لدراسة النباتات الاستوائية في العالم. وفي صـباح اليـوم التالي. أخذوا الباخرة السودانية في طريقهم إلى عنيبة. عاصمة بلاد النوبة. الطبيعة رائعة خلابة. على جانبي النيل. الواسع العريض. أشجار النخيل الباسقة الرشيقة تتمايل وتتراقص في الهواء. القرى والنجوع متنـاثرة هنا وهناك تتناثُر النجوم في السماء الصافية من الغيوم، نسي عصام أوهامه وأحزانه. وذاق لأول مـرة فـي حياته طعم إسعاده في أحضان حبيبته سوزان. والتي حرم منها في علاقته مع زوجته الشرعية. الدكتورة منى زميلته ابنة مدير عام المستشفيات في وزارة الصحة. والتي تزوجها لضمان مستقبله، وليتمكن من السفر إلى انجلترا للحصول على درجة الزمالة في جراحة الأعصاب والمخ.

شرب من رحيق الحب الذي ربطه بعشيقته سوزان. وهي ممرضته التي تساعده في عملياتـه الخاصـة. سوزان التي أحبته حبا جارفًا اقتلعها من كل الأسس المتينة لحياتها. والتحما معا في سيمفونية الحب الـذي لا يفنى أبدا. واندمجا معا في كيان روحي وجسدي واحد. وابنهما سمير الثمرة الرائعة لهذا العشق..

الباخرة السودانية أخذت ثلاثة أيام للوصول إلى عنيبة. استقبله الأهالي بالحفاوة والترحـاب. أقـام فـي استراحة كبار الزوار. عاشوا في حلم بديع. نسوا وتناسوا الواقع المر الكئيب. تناست سوزان العلاقة الغيـر شرعية التي تربطها بعصام. العلاقة التي لم تعلن حتى الآن على الناس. حقًا إن ابنهما سمير مقيد في سـجل المواليد. تحت اسم سمير ابن الدكتور عصام والذي قيده في السجل هو أبوه نفسه. تناست سـوزان والـدتها. وصدمتها العنيفة عندما عرفت واقع الأمر. وأخذت تبكي ليلاً نهارا. وتولول وتقول ربنا الرحيم يستر عليك. "وصدقت الأم الطيبة كلام ابنتها سوزان. وتركت الأمر كله يد ا العلي القدير الذي لا ينام. ولرحمته التـي وسعت كل شيء..

مستشفى عنيبة صغيرة وعتيقة. لا يتوفر بها أي تجهيزات حديثة. لا عمل للدكتور عصـام مـدني غيـر الأكل والشرب وممارسة الحب. الجو حار جدا. قد تصل درجة الحرارة إلى الأربعين مئوية في الظل. بحيث يصعب عليهم الاستحمام. إلا في منتصف الليل. سيطر الملل والضيق النفسي عليهم. عصام الجراح المشهور كان يهوى عمله. هنا لأول مرة في حياته يعيش بدون عمل. اقترحت سوزان عليه القيام برحلة إلى معبد أبي سنبل. المعبد الرائع الذي نقلته هيئة الأمم اليونسكو إلى شمال السد العالي. وتكلف نقله مائة مليـون جنيهـا مصريا. الرحلة في النيل إلى المعبد كانت ممتعة. راحة مؤقتة لهم. والهروب من واقعهم الأليم. وفي المعبـد عادوا للحياة في تاريخ بلادهم المجيد عبر آلاف السنين. وكيف كان مصر فجر الحضارة البشرية. حيث ولد أروع قانون في الوجود. القانون الأخلاقي. وحيث ولد الضمير الإنساني.

وفي ليلة العودة من عنيبة. نام سمير في فراشه كالملائكة. تناولوا عشاء فاخرا جنبري وسـمك مشـوي. أعده لهم الطباخ الماهر المشرف على استراحة كبار الزوار. أسرفوا في شرب الخمر. شربوا الكثيـر مـن عرق البلح المشهور في الصعيد. والمنتشر في الوجه القبلي. الجلسة كانت حلوة في شرفة الاستراحة. المطلة على النيل الواسع العريض. الليلة منتصف الشهر العربي. القمر في استدارته الكاملة. النسيم العليل بدأ يهـب عليهم ويلطف من حرارة الجو بعد منتصف الليل. شجر النخيل الفارغ الطويل الرشيق يتراقص ويطل عليهم من جانبي النهر الخالد. أغنية أم كلثوم "ليلة حب" تصل إليهم من بعيد من أحد المراكب الشراعية في رحلتها إلى الشمال. إلى أسوان.

عصام.. وقد شرب حتى الثمالة من عرق البلح تبادل الحديث الممتع مع سوزان "... الحب الحقيقـي يـا سوزان هو تعرية الجسد والروح للحبيب.. والرقص في معبد الحب المقدس. تعالي يا حبيبتي في أحضـاني نرقص في معبد الحب المقدس على أصوات الناي الحزين. وأخذها في أحضانه القوية، يرقصان في ضـوء القمر. في الشرفة..

سوزان.. وقد أشرفت على السكر البين لأنها أول مرة تجرب شرب الخمر إرضاء لحبيبهـا.. "نعـم يـا حبيبي.. (وقد زادت من التصاقها بعشيقها عصام).. نعم يا حبيبي تعالى نكشف أرواحنا حتى نصل إلى أرقى وأسمى درجات العشق.. لأن الحب الحقيقي يقوم على الشفافية والصفاء. حتى تعود الحيويـة إلـى حياتنـا والبهجة إلى قلبنا...).

عصام... أخذ يرشف من كأس العرقي بتلذذ عميق وتكلم بصوت هادئ خافت كأنه يحـدث نفسـه. فـي مناجاة الحب:

"نعم حقًا يا حبيبتي.. الحب لا يعيش ويحيا وينتعش إلا في جو الصراحة والشفافية والصفاء. الصدق هـو روح الحب المقدس الذي يجمعنا ويوحدنا في كيان واحد.. وسأبدأ بنفسي. وأخذ عصام يسرد لها قصة حياته. وما فيها من سلبيات. كيف تزوج ابنة مدير المستشفيات العامة. ليتمكن من السفر للخارج للحصـول علـى درجة الدكتوراه في جراحة المخ والأعصاب. بالرغم أنه لا يحبها بل وينفر منها. وأيضا لكي يستطيع البقـاء والتعيين في الإسكندرية بعد عودته ظافرا من إنجلترا. وأنه لا يحمل لها أي عاطفة صادقة أو أي حب حقيقي بالرغم من أنه أنجب منها ثلاثة أطفال. إذ أن الحب لا يخضع لإرادة الإنسان وهو أقوى مـن عقلـه. ولـه قوانينه الخاصة به.. نعم يا سوزان... كان لي.. علاقات كثيرة مع فتيات من كل لون.. ومن كـل شـكل.. أطلع من حب أدخل في حب جديد.. وخاصة في بلاد الإنجليز. الناس هناك يحبون الحب الجنسي. والجـنس عندهم مش مرتبط بالخطيئة. مافيش حرام ولا حلال. إنما تذوق صحي لكل أبعاد الحـب الجنسـي. وكـل اهتماماتهم مركزة في الحب الجنسي. وفي الشهوات الحسية. واستمر عصام في حديثه الهامس إلى سـوزان. وخاصة النساء بعد ثورة الجنس. بعد الأبحاث التي قام بها ماستر وجونسون. ونشْـر كتـبهم عـن النشـاط الجنسي عند الرجال وعند النساء. وأخضعوا الجنس لأول مرة في التاريخ البشري للدراسة العلمية التجريبية. قاموا بدراسة الجنس كما درس سابقًا الأكل والتغذية... والنساء في أوروبا عندهم فلسـفة حـب الاسـتمتاع الحسي وحب الحياة. ومصابون بإدمان الجنس...".

سوزان: "وأنا يا عصام كان لي أخطائي الكثيرة - أيضا - قبل علاقتي بك. كان لي علاقة بطالب في كلية الحقوق.. استأجر غرفة من والدتي للسكن معنا طوال فصل الدراسة. حتى نتمكن من مواصلة الحياة والمعيشة. وخاصة بعد وفاة والدي الذي كان يعمل سائق ترام. معاشه كان ضئيلاً جدا لا يفي بضرورات الحياة والمعيشة. ولم نتمكن من مواصلة الحياة إلا بتأجير بعض الغرف في شقتنا إلى طلبة الجامعة طوال فصل وموسم الدراسة. وبعد موسم الدراسة. كنا نؤجر للمصيفين. طوال فصول الصيف منذ وفاة والدي. وفي الشتاء نقوم بتأجيرها إلى الطلبة القادمين من الأرياف.

في تلك الليلة لم يتمكن عصام من النوم. اعتراف القلق. العقل الشرقي لا يتحمل مواجهة حقائق الحياة. اعترف عصام لنفسه بأنه كان من الأفضل عدم الإفصاح عن الخفايا والأسرار الكامنة في دهاليز الروح والعقل الباطن. وأنهم كشفوا عن بركان يكاد أن يدمر كيانهم. وقال لنفسه بصوت لا يسمع: "تعرية الجسد مش زي تعرية الروح، تعرية الجسد سهلة ولذيذة. أما تعرية الروح فقد يكون لها نتائج مدمرة. وقد تكون بداية الإعصار في حياة الناس. وقد تكون زلزالاً يخرب ويهدد عقل الإنسان وروحه.

وانبثقت في عقل عصام أفكار سوداء قاتمة. تفجرت في روحه أفكار شيطانية مخيفة. حاول مقاومتها دون أي جدوى. حاولت سوزان مساعدته في استعادة المرح والبهجة. ولكنها فشلت، حاولت العمل على إسعاده دون أي نتيجة. فقد عصام شهيته للأكل والحب. وفقد قدرته على البسمة.

في ليلة من الليالي بعودتهم من معبد "أبو سمبل".. وقع سمير من فوق الفراش العالي النائم عليه. على مكواة معدنية ثقيلة، على طرفها الحاد المدبب. أصيب بجرح نافذ إلى التجويف البطني. ونزيف داخلي شديد. يحتاج إلى تدخل جراحي سريع. استدعى عصام أخصائي التخدير من مستشفى أسوان العام الذي حضر بطائرة مروحية، لا يوجد دم من أي فصيلة في مستشفى عنيبة. أرسل الدكتور عصام عينة من دمه، من دم ابنه سمير. أرسلت مديرية الشئون الصحية زجاجات دم من فصيلة، أخرى لعدم تطابق فصيلة سمير مع عصام... وهذا نادر الحدوث. الجراح الماهر أجرى العملية بمهارة فائقة. تمكن عصام من إنقاذ حياة ابنه. ولكن التساؤل الذي حيره وأربكه وشتت أفكاره هو؟ لماذا لم يتوافق دم ابنه مع دمه؟ وأخذت الشكوك والظنون تزحف على قلب عصام، وتفجر شيطان الشك في أعماق روحه..

اكتشف عصام أسبابا كثيرة للتدمير. وانبثق الشر في عقله. وانتابته الكوابيس المفزعة والمظلمة. والتي ليس لها أي أساس من الصحة أو الصدق العلمي. وقد يكون لها تفسيرات كثيرة أخرى بل ومختلفة لهذا التناقض في نوع فصيلة دم الأب وفصيلة دم الابن. ولكن مرض الشك إذا استيقظ في القلب. فلا راد له ولا علاج. ويلٌ للإنسان الذي انبثق في قلبه مرض الشك.

في ليلة الاحتفال برأس السنة الجديدة. جهزت سوزان عشاء فاخرا يليق بميلاد العام الجديـد. لعلمهـا أن زوجها يحب استقبال العام باحتفال كبير.. زجاجة شمبانيا فاخرة. وعشاء متنوع من كل ما لذ وطاب. ديـك رومي محمر باللوز والبندق والزبيب، طبق دولما من كل الأصناف التي يعشقها حبيبها عصـام. واهتمـت اهتماما خاصا بطبق الكبدة الضاني المشوي. وجميع أنواع السلطات. سلطة طحينة وبابا غنوج وسلطة التبولا اللبنانية. وضعت على الترابيزة كل الأصناف بتنسيق بديع رائع. لم يشاركهم أحد من زملاء عصام. سـرت السعادة في قلوبهم. والبهجة في نفوسهم. والنشوة الحلوة في أرواحهم. اقتربت اللحظات الأخيرة مـن العـام المنصرم. واستعدوا لاستقبال مولد العام الجديد. قبلته قبلة عميقة. وأخذته في أحضانها الدافئة. قبلها وأخـذها في أحضانه. صنع لها كوكتيل صاروخي من الشمبانيا وعرق البلح وعصير البرتقال والكريز. ووضع فيـه بعض العقاقير الأخرى والتي لم تلحظها سوزان ولم تسترعي نظرها. إذ أنه معروف عنه المهارة والسـرعة الفائقة في عمل الكوكتيل.

وما إن وصل الشراب إلى فم سوزان وتذوقت طعمه اللذيذ جدا. حتى تشنج جسمها فـي التـو. وسـرت الرعشة في أطرافها. وازرق لونها. وارتمت على الأرض فاقدة الوعي، وخرج الزبد من فمها. ورقدت على الأرض بدون حراك. وتوقف قلبها عن الخفقان. ورقدت الرقدة الأخيرة لها. أذاق عصام الطفل سمير الـذي اعتراه الشك في أبوته له. تذوق سمير الكوكتيل الصاروخي، الذي أعده والده الخبير في السموم، التي تُميـت في لحظات. تذوق سمير الكوكتيل مستطلعا ببراءة وببسمة ملائكية على والده الذي أنقذ حياتـه مـن مـوت محقق. تشنج جسم سمير. وانتفض وازرق لونه وتوقف تنفسه. وانتفض وفارق الحياة إذ أن الطبيب العبقري الحاصل على أعلى الشهادات من جامعات إنجلترا كان يتقن فن وعلم السموم الصاروخية. وهوايته المفضـلة السموم الصاعقة التي تُميت في لحظة وصول السم إلى الفم. ولا تترك أي أثر يمكن اكتشافه. ومنها مجموعة سموم أسيانيد. التي تقضي على الكائن الحي في ثوانٍ أو ثانية واحدة. ولا تترك أثرا كيميائيا في الجسم يـدل عليها. ولا تترك أي آثار يمكن اكتشافها. اختفت بهجة عيد الميلاد المجيد السعيد. وانطفـأت شـموع العـام الجديد. وانتصر الشيطان وزغرد. وعزفت شياطين الشيخ بهلول أروع ألحانها..

ظلال الموت أرجاء استراحة كبار الزوار. الطبيعة كلها تبكي وتنتحب على الحب الـذي ضـاع. أشـجار النخيل الباسقة الفارعة الرشيقة. شاركت الطبيعة كلها أحزانها وتوقفت عن الحركة والرقص إجلالاً للمـوت. وحزنًا على الأمومة الموءودة. وموت سوزان الجميلة الحلوة. وعلى تـدمير وتخريـب الطفولـة البريئـة. الدراويش في أعالي أشجار النخيل. توقفوا عن التراتيل المقدسة. والرهبان في الأديرة توقفوا عـن التسـبيح للرحمن الرحيم وانتابهم اليأس والقنوط من قدرة الإنسان على الحب والخير. وتوقفت الدراويش والرهبـان، وقام الدراويش برقصتهم الخالدة المقدسة. واختفت النجوم في السماء. والطيور عن الطيران والغناء والتغريد. خوفًا من قسوة هذا الوحش الكاسر الذي يطلق عليه بني الإنسان. ورعبا من همجيته وقسوته وبربريته التـي لا حدود لها.

صمتت الأشياء كلها عن الحركة. ونشط الشيطان. ونشط الدكتور عصام. تلبسه الشيطان الرجيم. حمل جثة سوزان. وجثة سمير إلى البانيو في الحمام. خلع عنهم ملابسهم وضعهم في البانيو. فُتح صنبور الماء. أقفل النوافذ. فتح اسطوانة الغاز. أغلق الباب وراءه بإحكام. أبلغ عن موتهم المفاجئ الشرطة. حضر الطبيب الشرعي من أسوان. أمرت النيابة بإجراء الصفة التشريحية لمعرفة سبب الوفاة. وقام سيادته بتشريح الجثث لمعرفة سبب الوفاة. لم يتمكن الطبيب الشرعي من اكتشاف السبب الحقيقي للموت. أعطى تصريحا لدفن جثة سمير وعصام. وافق السيد وكيل النيابة على إعطاء تصريح الدفن. سبب الوفاة كما جاء في أوراق التحقيق الذي أجرته النيابة العامة.. (سبب الوفاة بعد إجراء تشريح الجثة والاطلاع على نتائج الفحوص المعمل المركزي هو... اسفكسيا الاختناق الناتج عن تسرب الغاز في الحمام المحكم الإغلاق.

أرسل عصام برقية إلى والدة سوزان في الإسكندرية. حضرت على وجه السرعة. قابلت السيد وكيل النيابة المسئول على القضية. اعتذرت عن عدم إمكانها الحضور فور استلامها البرقية من النيابة ومن الدكتور عصام. وأنها لم تكن في الإسكندرية. إنما كانت في عمرة في الأماكن المقدسة. وأنها حضرت فور اطلاعها على البرقية. أخبرته بأنه لا يوجد لديها أي شك في أسباب موتها. ولا أي اشتباه جنائي. والأم الطيبة عبرت عن اقتناعها بأن الحادث قضاء وقدر. وأنه لا راد لقضاء ا العلي القدير. وصرح السيد وكيل النيابة بنقل الجثتين. إلى شبين الكوم لتدفنا في مقابر أسرة سوزان. وذلك حسب طلب الأم الطيبة والدة سوزان.

سافر عصام إلى لندن لحضور بعض المؤتمرات الطبية التعليمية. حيث كُلف من الجمعية الطبية الإنجليزية التي كان عضوا عاملاً فيها. بإلقاء بعض المحاضرات الطبية والأبحاث التي أجراها في جامعة إسكندرية. وتدور أبحاثه كلها عن نظريات جديدة في التشخيص المبكر لاكتشاف أورام المخ. وحول طرق جديدة لعلاجها بالمواد المشعة.

عاد من لندن على الإسكندرية. ونشر في بعض الجرائد اليومية نبأ عودته من المملكة المتحدة. وباشر عمله في مستشفاه الخاص التخصصي. وفي عمله في المستشفى الحكومي. وقطع علاقته نهائيا بزوجته. الشرعية لأنها رفضته رفضا كاملاً وطردته من منزلها. الذي اشتراه لها والدها. ومسجل باسمها وطلبت الطلاق البائن. وبرأته من كل ما يحق لها من حقوق وتنازلت عن كل مستحقاتها. وحاول الاحتفاظ بأولاده دون جدوى. حيث إن سنهم الصغير يحول دون ذلك. واستقال من المستشفى الجامعي الذي يرأسه والدها. وذلك تحت ضغوط عديدة. وركز عصام كل اهتمامه. في عمله الخاص. وخاصة في المستشفى الاستثماري الذي يملكه مع نخبة من أشهر أطباء الثغر. لكن الدنيا أدبرت عنه. لأن سمعته ساءت في جميع الأوساط. في الأوساط الشعبية. وبين زملائه. وذلك بسبب إدمانه الخمور وانتشرت شائعات كثيرة. حوله بسبب موت زوجته الغير شرعية وابنه منها في ظروف مشبوهة. وكذلك تردده على بيوت سيئة السمعة وهو الطبيب المشهور. وعلاقاته العديدة ببعض النساء الساقطات. والإسكندرية مدينة صغيرة سرعان ما يعرف كل الناس كل ما يجري في الخفاء.

حاول الدكتور عصام استعادة سمعته دون جدوى. حاول باستماتة استعادة شهرته السابقة. ولكن بدون أية فائدة أو نتيجة. زادت أحوال عمله سوءا. توقف سيل وطابور المرضى الطويل في المستشفى الحكومي، وكذلك في مستشفاه الخاص. قاطعه الكثيرون من مرضى الإسكندرية. انهارت نفسيته انهيارا كاملاً. حتى زملاؤه فقدوا الثقة به. وتوقفوا عن تحويل المرضى له. وفقدوا الثقة في شخصيته نفسها. وكذلك في مهارته الطبية. انتابه اليأس والقنوط. حيث فقد عمله وفقد أسرته. زاد إدمانه على الخمور. والتردد على الحانات الليلية. وأخيرا دفع اليأس إلى الذهاب إلى الشيخ بهلول. الذي يمارس الطب الروحي واستخدام الجن في علاج الأمراض العصبية والنفسية. ذهب لمقابلة الشيخ بهلول في منزله في المنطقة النائية الواقعة بين أبو قير ورشيد. وذلك للاستعانة بالقوى الخفية لعلاج حالته النفسية. قابله الساحر بعد دفع المائة دولار أمريكي. له نظير أتعابه. وأخذ أتعابه مقدما حسب العادة. بعد جلسة استمرت ساعتين نصحه الشيخ بهلول بالاهتمام بالمظاهر. وقال له في صوت خافت يكاد لا يسمع: "عليك بالمظاهر. ركز على المظاهر. الناس لا ترى إلا الظاهر".. وبعد جلسة طويلة في اليوم التالي. جلسة تحضير العفاريت والجان. قال له طبيب العالم الخفي الطبيب الساحر.. قال له بصوت ضعيف خافت: "يا عصام يا ابن وصيفة.. عليك بالظاهر. عليك بالشكليات.. قوى العالم الخفي تشير عليك بالتوجه للحج سنويا. والذهاب للعمرة في مكة والمدينة شهريا. وإعلان ذلك في كل الجرائد. لا تصلي إلا في الجامع حتى يراك الناس. أقم موائد الرحمن طوال شهر رمضان. أطل لحيتك"..

ترك عصام الشيخ طبيب العالم الخفي وعاد إلى الإسكندرية. داعبه الأمل في استعادة مكانته وشهرته. الفنية والاجتماعية. أطال لحيته. أمسك بسبحة طويلة. يبلغ عدد حباتها التسعة والتسعين حبة. واظب على أداء الصلاة قبل العمليات. خصص الدور الأرضي في عمارته البرج في الأنفوشي. لبناء جامع يؤمه الناس، تبرع بمبالغ طائلة سخية للفقراء وأبناء السبيل. والأعمال الخيرية وأعلن عنها في كل الجرائد.. تبرع بمبالغ سخية للطلبة المتفوقين الفقراء في كلية الطب. اشترك في رحلات النقابة الطبية لأداء العمرة شهريا وأعلن عنها في كل الصحف والمجلات. "الدكتور عصام مدني طبيب عاد من العمرة الرجبية. ويباشر عمله في عيادته بكرموز يوم كذا.. الأستاذ الدكتور عصام مدني أدى مناسك الحج ويستقبل مرضاه في عيادته الخاصة يوم كذا. وخصص يومي الخميس والاثنين لاستقبال المرضى الفقراء وعلاجهم مجانًا.

كل هذا دون أية فائدة. ودون جدوى. زادت حالته سوءا انتابته الرعشة في يديه بسبب إدمانه الشراب. وزادت الرعشة ظهورا مع مر الأيام. ووصلت حتى عضلات الوجه والأطراف. أصابه القلق. وانتابته الوساوس. وفقد الثقة في نفسه. وبدأ في الشك في قدراته الطبية. لدرجة أنه كان يتهرب من العمليات الخطير. وفي يوم من الأيام. قام بإجراء عملية تحت ضغوط نفسية كثيرة. عملية التهاب بالزائدة الدودية. وتعتبر من أبسط العمليات للجراح القديم. مات المريض على طاولة العمليات. وهو شاب في العشرين من عمره. قامت المستشفى بتبليغ النيابة العامة. حيث إن القانون ينص على إبلاغ النيابة عند أية وفاة داخل غرفة العمليات.

استدعته النيابة العامة لأخذ أقواله. وبدلاً من التوجه إلى مكتب السيد وكيل النيابة توجه الـدكتور عصـام مدني إلى مكتبه الخاص في المستشفى. فتح خزانته السرية. أخرج قارورة صغيرة فيها مسحوق مـن السـم الصاروخي الذي يقتل في لحظات. وكتب خطابا موجها إلى مكتب النائب العام. يعترف فيه بأنه قتـل ابنـه سمير وزوجته سوزان بواسطة سم السيانيد. وأنه يطلب المغفرة من الناس ومن ا لاندفاعـه فـي الشـر. واعترف بأنه أقدم على الانتحار هروبا من عذاب ضميره الذي يحاكمه ليلاً نهارا، وأنه ليس عنده أية شجاعة لكي يستمر في معترك الحياة. وطلب من الناس مسامحته والعفو عن جرائمه. فقد نال من العذاب النفسي مما دفعه إلى قتل نفسه. وتبرع بكل ما يملكه لطلبة كلية الطب المتفوقين الفقراء الذين يجدوا صعوبة في استكمال دراستهم. وتبرع بعماراته أو أبراجه الثلاثة لعمل أبحاث علمية لأسباب انهيار وتدهور وانحلال قوى الإنسان الأخلاقية والروحية. ووقع على الخطاب. ووضعه في ظرف خاص به وأغلقه بالشمع الأحمر وختمه بخاتمه الخاص به ووضعه في الدرج الخاص للمراسلات السرية العاجلة. وأرسله إلى السيد النائب العـام. وأغلـق الخزانة. أغلق عليه باب الغرفة بالمفتاح من الداخل. حتى لا يقاطعه أحد من العاملين في المستشـفى. وأذاب بودرة سم السيانيد أو السم سريع المفعول الذي يقتل في لحظة. وشرب حتى الثمالة. وفي ثوانٍ أصابه التشنج والازرقاق. وتوقف قلبه عن الخفقان. وفقد الوعي بكل شيء. وغاب عن الوجود. ومات الطبيب المشهور في التو واللحظة كما خطط. لم يشترك أحد من زملائه في تشييع جنازته. ورفض إمـام الجـامع الـذي أقامـه بالمستشفى القيام بالصلاة عليه نظرا لموته منتحرا. ولم يحضر تشييع جنازته إلى مثواه الأخير إلا أخيه تامر مدني وبعض أقاربه من قريته. وأخذ أخوه تامر يردد في نفسه بصوت لا يسمعه أحد بيت الشعر:

"إذا أقبلت باض الحمام على الوتد

وإذا أدبرت بال الحمار على الأسد..."[*]

* * *

---

[*] كل الأسماء والأماكن في هذه القصة لا أساس لها في الواقع... والقصة من خلق الخيال البحت.